بيت الأقصر الكبير



تأليف : فوزية أسعد

ترجمة : منى قطان



المشروع القومي للترجمة



614

المشروع القومى للترجمة

بيت الأقصر الكبير

تـأليـف : فوزية أسعد
ترجمة : منـى قطـان



المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦١٤
- بيت الأقصر الكبير
- فوزية أسعد
- منى قطان
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب :
LA GRANDE MAISON
DE LOUXOR
roman
FAWZIA ASAAD

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel : 7352396 Fax : 7358084.

المحتويات

الجزء الأول - بزوغ أسرة مالكة

الجزء الثانى - سقوط أسرة مالكة

الشخصيات من محض خيال المؤلفة

وسط أحداث تاريخية حقيقية

الجزء الأول

بزوغ أسرة مالكة

الحبل السرى

اسمها "سوسن"، اسم عربى جميل . "سشن" بلغة قدماء المصريين، هذا اللوتس الذى يتفتح عند طلوع النهار، كما لو كان يشارك فى ولادة الشمس. اسم أمها" وردة " ويدعى والدها "جرجس ".

ولدت سوسن فى البيت الكبير الأبيض على ضفاف نيل الأقصر، بجوار المعبد، حيث يتكرر على الدوام زواج إله وإلهة وتولد شمس جديدة.

لم تكن فى نظر أمها سوى فتاة. أما والدها، فطموحاته لها ضخمة. يتخيلها المرأة الفرعون، يرى فيها صورة لـ" حتشبسوت "ابنة الآلهة، شمس أنثوية كانت فى قديم الزمان، هى الحاكمة.

كان جرجس يحلم دائما بتلك الشخصية بعبقها التاريخى الأسطورى، ويداعب بعينى المحب وجه أمها الإلهة "حتحور". هل كانت تشبهها ؟ وراء قناعها الفرعونى المهيب، كانت "حتشبسوت" مجرد فتاة صغيرة ثم أصبحت امرأة. ربما ورثت وجه الإلهة الأم التى أرادت أن تتكرر ملامحها على وجه ابنتها. ولم لا ؟ ظل يفكر فى هذا منذ... منذ متى ؟

فى يوم ما، قرر أن التاريخ يُروى من زاوية منحازة، ولا يمجد إلا الحروب والأبطال المنتصرين.

لكن الحلم كان يراوده قبل ذلك بكثير ويمتد إلى أعماق الماضى. حلم كالصلاة. كل صباح، يفتح الضلف الخشبية المطلة على شرفته الكبيرة، يستنشق نسمة الفجر النقية، يتأمل للحظة معبد " حتشبسوت " المقام على الضفة الأخرى للنهر، من أجل الميلاد المتجدد الأبدى للإله وابنته " حتشبسوت ". أطلق عليه " القصر ذو ملايين الأعوام" و" روعة الروائع ". كم هو جميل! إنه أكثر جمالا أثناء الليل : صف أعمدة بسيطة للغاية، محفورة فوق شاطئ صخرى بانعكاسات ذهبية، تيجان متكررة لوجه الإلهة "حتحور" الغامض، امرأة جميلة بأذنى بقرة. لمسها شعاع "رع"، إله الشمس، والدها و زوجها أيضا. لماذا نتصور أن "حتشبسوت" لن تولد من جديد، مثل الشموس، مثل حبات الشعير ؟ كان هذا طموح أجدادها قدماء المصريين، الخلق المتجدد، مثل الشموس، مثل بذور الشعير. لم لا تكرر ابنته مرة أخرى هذا العهد، عهد السلام والجمال ؟

توقعت وردة عند قدوم سوسن ولدا. كان ترتيبها السابع فى أسرة يتتالى فيها مولد البنات والأولاد بانتظام إلى أن أحدثت سوسن فوضى. لم تكن سوى فتاة. حزنت وردة بشدة. تظاهر الجد بأنه يأخذها بمحمل الجد. قال لها باللهجة الصعيدية الجميلة، التى تشدو مع الشمس:

– مش عاوزاها؟ و لا مين شاف و لا مين درى.

أخذ وسادة ضخمة ووضعها فى المهد. صرخت وردة صرخة كبيرة فقال الجد بنبرة المنتصر :

– جولى الحجيجة. عاوزاها. جولى إنك عاوزاها!

* * *

أما الوالد فقد أرادها بحرارةٍ، هذه الطفلة الصغيرة. بدت في نظره علامة تؤكد أثر الأجداد عليها. ولدت والسبابة في فمها، كالشموس أبنائها، كهؤلاء الفراعنة الذين يدعون "حورس" و" فرعون"، الذين يولدون من زواج الآلهة أطفالا، ذوى ضفائر صبيانية عريضة فوق الوجنة اليسرى، مفضلين السبابة على الإبهام داخل الفم.

قيل له كلما وُلدت أنثى، أو تمنوا قدوم أنثى :

– البنت دنيا جديدة.

كان هذا الاعتقاد الشعبي يدعوه للتأمل، خاصة أنه ينبع من بلد تتمسك بإضفاء أهمية بالغة على الذكور.

عندما يسكن المرء الأقصر، " واسط " القديمة، مدينة الجنوب، طيبة " هوميروس "، التي أطلق الرومان عليها اسم " ديسبوليس ماجنا " وأسماها اليونانيون "ديسبوليس ميجالا": مدينة الإله الكبرى، التي لقبها العرب " الأقصر "؛ أى الحصون، وعندما نطل من شرفة المنزل على الجهة الأخرى للنهر، ونرى حتشبسوت، المرأة الفرعون التي ترتدى لحية مستعارة وتاجا مزدوجا، لا يستطيع المرء أن يكبح جماح الخيال الذى يمتد عبر القرون، فالزمن ذاته يتلاشى أمام الحيوات المتكررة لذرة شعير واحدة !

* * *

هو السيد المطلق لمدينة الأقصر دون منافس. اسمه جرجس، ابن ميخائيل، وحفيد جرجس آخر الذى كان بدوره ابنا لميخائيل آخر.

شجرة العائلة كلها مكونة من أسماء تعود إلى جرجس وميخائيل. كان يربط اسمه بـ "حورس "، زوج الإلهة " حتحور " وإله الشمس المجسد فى فرعون. والمرجح أن اسم " جى يورج " باليونانية يعنى "حارث الأرض"، تختزل فى العربية إلى كلمة واحدة : " فلاح ". ولكن اللغة العربية لم تستخدم فى مصر إلا بعد قرون، بعد ظهور الإسلام. فى بداية العصر المسمى بالمسيحى، عندما كان المصريون يسمعون عن المسيح ويعتنقون المسيحية، كانت البلاد فى قبضة الإغريق والرومان. وكان "جى يورج " يمثل اسم القديس " مار جرجس ". ملأت أيقوناته كنائس البلاد وهو يمتطى حصانا أبيض، يقتل تنين الشر، الغول ذا وجه التمساح. يشبه الملاك " ميخائيل ". يمتطى هو أيضا نفس الحصان الأبيض ويقتل الغول نفسه. والواقع أن الصورة تجسد " حورس " إله الشمس الذى حكم مصر : "حورس " الذى يمتطى حصانا حجريا، و يقتل تنين الظلام ويستعيد النور.

وحيث إن الفرعون كان يجسد " حورس "، أصبح من الممكن أن يتباهى جرجس بأصول فرعونية. بل و يقول لنفسه إن هذه الأصول الخفية تفسر حبه للإلهة " حتحور" وابنتها " حتشبسوت ".

ومع ذلك، يفصح عن تأملاته هذه فى إطار من الدعابة أو فى السر. لأنه كمسيحى، بعد هذه السلسة المتصلة من ألقاب جرجس وميخائيل التى تكوِّن اسمه بالكامل، اندس لا نعلم لماذا من يدعى " عبد المسيح ". عبد المسيح يعنى " خادم المسيح " ومادام المرء يعتز بأنه مسيحى منذ أن كان القديس " مرقس " يبشر بالإنجيل فى مصر –

البلد الذى لجأت إليه العائلة المقدسة – فالمفروض ألا يقيم روابط نسب بين " مار جرجس "، الملاك " ميخائيل " وبين "حورس " إله الوثنيين. لم يعتادوا عبادة إلهة، بل بالعكس، تعلم جرجس مثل والده ميخائيل أن "حورس " هو التنين الذى يجب قتله لأنه وثن ويضع قناعا على هيئة صقر، وأن إلهة برأس بقرة ما هى إلا صنم فج.

لم يكن جرجس يرغب فى جرح مشاعر أسرته وناسه، وهو الذى يتكرر اسمه بلا نهاية بالتبادل مع ميخائيل، وكان ينتهى لا نعرف لماذا، ربما لتأكيد جذوره المسيحية ، أو اختزال الأسماء فى شجرة الأسرة العريقة باسم عبد المسيح.

* * *

ساهم عنصر آخر فى تعميق الحلم. قامت الخادمة– تلك الفتاة الشعبية البسيطة – بدفن الحبل السرى ومشيمة سوسن فى حديقة المنزل. كما لو كانت تغرس نبتة. الحبل السرى فى النهاية ما هو إلا رابط بين حياة وحياة أخرى. كان يقال عنه فيما مضى إنه قرين المولود، الـ " كا "، مثل روحه الثانية. على جدران معبد " حتشبسوت " كان يقوم إله الخزف "خنوم"، ذو رأس الكبش، بصنع فرعون و قرينه : يولد طفلان والسبابة فى فمهما فى آن واحد. وتضيف الأسطورة أن القرين يصاحب الفرعون أثناء حياته كأنه أخ توأم خفى. كان الفرعون يأمر ببناء مدفن ونحت تمثال لهذا القرين، الـ " كا ". ولحظة الوفاة، يستخدم القرين سحره الخاص، ويحيى تمثاله المنحوت، والصور المنقوشة على جدران مدفنه، ويصارع شياطين الظلام كى يصحو من جديد، طفلا، ومعه قرين

آخر يشبهه كالأخ التوأم. كان المتوفى يدخل هكذا فى مقبرته كى يخرج منها مستعيدا شبابه.

يوجد فى طيبة، من جهة الغرب، عدد لا يحصى من مقابر الـ "كا" للملوك والملكات، للنبلاء وللعامة، ولكل هؤلاء البشر الذين عاشوا فى الماضى والذين أرادوا بأعداد متزايدة أن يعودوا إلى الحياة مع بزوغ الشمس. وتوجد أيضا مقبرة قرينة " حتشبسوت ".

جرجس، الذى يُرجع شجرة عائلته فى الخيال إلى قدماء المصريين، كان يضيف فى حياء اعتقادا آخر: إن سلسلة من الأحبال السرية كانت تربط ابنته بـ "حتشبسوت " مثلما كانت تربط الشمس السائدة بالشموس الراحلة.

الأسلاف

كان ينحدر من جذور متواضعة. ولكن هذا يسرى على كل العائلات العريقة، حتى على الفراعنة أنفسهم. سرعان ما ينسى شعبنا المصرى الذى طالما تعرض للهزيمة والاحتلال، أسلافه الأمجاد. يواصل البقاء بعد كل حقبة انحطاط، ويبدو مضطراً إلى أن ينطلق مرة أخرى من الصفر. قرنان من احتلال الهكسوس قبل حكم أسرة "حتشبسوت" المالكة. كم من القرون استغرق الاحتلال العثمانى الذى جاء لمصر قبل ظهور عائلة عبد المسيح ؟ خمسة قرون. نعم. خمسة قرون.

* * *

فى الأزمنة البعيدة المتصلة بأصول العائلة لم يكن أجداد جرجس يقيمون فى الأقصر ولكن فى "قوص"، على طريق قوافل "وادى الحمامات" الذى يربط بين البحر الأحمر و وادى النيل.

فيما مضى، عندما كانت طيبة فى قمة مجدها، كانت بواخر "حتشبسوت" تفرِّغ فى "قوص " ما جلبته من عجائب بلاد " بونت "؛ بلاد الإلهة حتحور الأسطورية : خشب أبنوس، وعاج خام ، وذهب خام، وأنواع من الريش، وسهام، وخدم وأطفالهم، وأشجار المر الطازجة التى يصنع منها البخور؛ مادة الآلهة السحرية.

ثم تفوقت " قوص " على " طيبة " وأصبح لها بلاط وشعراء وعلماء وفقهاء ذاع صيتهم حتى وصل إلى مكة نفسها، و أصبح لها حاكما اسمه علاء الدين ذكرته شهرزاد فى قصص ألف ليلة وليلة. ظلت "قوص" فى قمة الشهرة إلى أن سحبت منها القاهرة مجدها. فى أيام عائلة عبد المسيح، لم تكن سوى مدينة إقليمية صغيرة. وركز أعيانها على التجارة مع آسيا والسودان من خلال الطرق القديمة ذاتها التى استخدمتها "حتشبسوت". ولكنهم اكتفوا بالأشياء الضرورية الأساسية، مثل خشب التنوب بدلا من خشب الأبنوس القيم. والبخور أيضا، للحماية من الحسد والشر؟ أم تلاوة تعاويذ فى الأدخنة المنبعثة من المباخر ؟ لإقامة صلة بالآلهة ؟ كانوا يقودون قوافل الجمال محملة بالثروات البسيطة عبر الصحارى والبحر الأحمر، وترشدهم نجوم الليل للطريق حيث يواجهون البدو المتربصين لمهاجمتهم. لم يلجأوا أبدا للكثبان كنقاط التقاء؛ كانت هبة ريح واحدة تغير مواقعها، كالجنى الخبيث الذى يضلل المسيرة: لم يحلموا بحفر القناة التى ستربط يوما ما البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، الشرق بالغرب، مع أن مشروع القناة فى ذلك الحين كان كفيلا بأن يخلق أغنى تجارة فى العالم. حلم طموح بهذا الحجم، تركوه للمغامرين الأجانب. أما هم، فكانت مغامراتهم بسيطة.

لكنهم فى ولاية " قوص " هذه ذات الماضى المجيد، كانوا من الأعيان، ويمتلكون البيت الوحيد المطلى بالجير، موضع حسد كل سكان المنطقة وضواحيها، حتى مندوب الحكومة المركزية، تطاول يوما وطمع فيه. من أجل هذه الوقاحة، تلقى مندوب الحكومة المركزية ضربا مبرحا بالعصا.

* * *

بدأ عصر جديد فى أسرة عبد المسيح، بظهور شخصية قد تكون أسطورية أو تاريخية، تميزت بطابع خاص. وهو الجنرال " يعقوب "، أحد الأسلاف، وبالتحديد والد جد جدة جرجس، الذى حارب وقتها فى معركة فرنسا مع مصر، من أجل " بونابرت ". هل نفخر به ونجعل منه بذرة الشعير المختارة من بين مئات البذور، من أجل حيوات متكررة ؟ هذا الجد الذى لم يكن سوى متعاون مع العدو " بونابرت " ؟ قد يقول البعض :

– هذا الخائن. لا أحد يود أن ينتسب إليه.

لكن عندما يتأمل المرء هذا البلد المطحون منذ آلاف السنين، هذا البلد الذى مازال محتفظا بجماله ومع ذلك لا يحكم بالعدل، الآهل بأناس طيبين، " كالقطيع الرقيق المسالم"، كما وصفهم الرحالة الكبار، قد يميل المرء إلى التفاخر بجد من الأجداد لم يحمل صفات الخروف الثاغى أو الكلب المخلص، بل أخذ على عاتقه أن يحمل السلاح، ومع ذلك قيل إنه خائن. وجرجس ، كما عرفناه، لم يحاول رد اعتباره.

فى عصر هذا الجنرال، لم يكن مطلوبا من الرجال الأقوياء من سلالته أن يحاربوا، بل كانوا يستأجرون جنودا مرتزقة. من أجل من تحارب مصر ؟ ضد من ؟ ضد مطامع محتل على جانبى الحدود. كانت الفلاحات تفضلن فقء عين الابن أو بتر ساقه أو ذراعيه على إرساله إلى الحرب . كان الرجال الأقوياء من أمثال الجنرال يعقوب يثورون مثلما فعل الفلاحون المساكين فى فيلق " طيبة " الذين رفضوا أن يحاربوا من أجل أباطرة روما، وقالوا لقادتهم :

– ديانتنا لا تسمح لنا بالقتل.

فقطعوا رقابهم وقالوا إنهم خونة. ولكن التاريخ رد اعتبارهم ورفعهم إلى مرتبة القديسين.

لم يحظ الجنرال يعقوب بهذا اللقب، بل ظل موصوما بالخيانة. ولم يفخر به جرجس الذى كان يكره الحرب مثل هؤلاء الفلاحين فى فيلق "طيبة".

أرسل "الباب العالى" القائد الألبانى محمد على على رأس حملة عسكرية عثمانية، لصد الزحف الفرنسى.

فر الجنرال يعقوب، الذى لم يستحق لقب قديس، أو أن يخلد بنحت تمثال له، الذى اعتبر خائنا، مع جيوش بونابرت لتفادى انتقام الأتراك وأتباعهم. توفى فى الباخرة الحربية التى كانت تقله. وتقول الأسطورة أيضا إن الفرنسيين من شدة ارتباطهم به لم يلقوا بجثمانه فى البحر، احتفظوا به فى حمام مملوء بالنبيذ، وعند وصولهم فرنسا أقاموا له جنازة مهيبة.

* * *

لم يلاحظوا فى مدينة "قوص" القديمة التغيير الذى أحدثته الحملة الفرنسية. لكن تجارة أسرة عبد المسيح كانت تدفعهم إلى أبعد، حتى وصلوا إلى ضفاف النيل، فى الأقصر. ورأوا هناك، فى أثناء فصل الشتاء، أوروبا بأكملها تحذو خطى الرحالة المشاهير الذين ألهموا بونابرت. فوجئوا بمشهد غريب: استيلاء هؤلاء الأجانب على الأحجار الأثرية! يسمونهم الخواجات أو الإفرنج أو العفاريت: شياطين جهنم.

تهامسوا حول الأوغاد الذين يتصرفون كما يشاءون بلا عقاب و ردع، تحت حماية نظام الامتيازات الأجنبية، يحاكمون فى المحاكم لمختلطة من قبل قناصلهم الذين يبرئونهم فى معظم الأحيان، بدون لاستناد إلى أصول قانونية أخرى، ولا يوجد أحد لمحاسبة هؤلاء لقناصل على أحكامهم المنحازة.

من المؤكد – دون أن يكون لذلك الاعتقاد أية مستندات مكتوبة – ن أسرة عبد المسيح انجذبت إلى الأقصر، لأن هؤلاء الأجانب أضفوا جدا غريبا على شموس " طيبة "، باهتمامهم بتفكيك المعابد وسرقة لمقابر، وتصدير ثروات البلاد إلى أقصى حدود العالم.

* * *

لم يكن الهدف من إقامتهم حماية أسلافنا الذين طواهم النسيان ل كانوا يبحثون فى الأقصر عن مصادر جديدة للربح، وقد اكتفوا المكاسب البسيطة. كيف يمكن أن يدركوا أن الأحجار القديمة لها قيمة؟ ان الفلاحون يأخذون سمادهم من الأتربة الأزوتية فى المعابد وينشرون لأعمدة الأثرية لاستخدامها فى الرحا. هم ليسوا حتى فلاحين، لا يحتاجون للأزوت أو للرحا.

هذا الجد الذى شاهد نقل المسلة من معبد الأقصر، هل كان دعى " جرجس " أم "ميخائيل"؟

تخيلناه، سوسن وأنا، وهو يسلم بضاعته فى " طيبة " القديمة بينما تفحص الأنثروبولوجيون والإثنولوجيون ملبسه، ويسألونه عن عاداته

وتقاليده. وهو يتابع بنظره " محمد على "، الباشا المفوض من قبل الإمبراطورية العثمانية بحكم مصر، وهو يتنزه على ضفاف النيل بمصاحبة مستشاره، قنصل فرنسا.

كيف نشرح للجد أن هذا القنصل هو " برناردينو دروفتي " الإيطالى المتجنس بالجنسية الفرنسية ؟ كيف نشرح له أن هذا الرجل لا يتوقف عن نهب كنوز بلاده وجمع الأحجار الأثرية القيمة؟ أرسل مجموعة منها إلى ملك " سردينيا " تكفى لإقامة قسم خاص فى متحف "تورينو"، ومجموعة أخرى إلى فرنسا لتعويضها عن الصفقة الأولى التى فاتتها.

يجب تنبيه الجد ! فى استطاعته، هو الذى لم يكن يخشى القانون ولا الصحراء، أن يضع حدا للنهب الذى يقوم به " دروفتى " الجبار هذا! لكنه لم يملك القدرة على خلع " دروفتى ". فى ذلك الحين، لم يكن يستطيع أحد أن ينزله عن عرشه. اعترف " شمبليون " بهزيمته والمصريون ينفذون أوامر " دروفتى " ويحسنون وسائل النقل، لإتاحة فرص أفضل لخروج الثروات الأثرية من البلاد.

ربما كان هذا الجد الذى حضر رحيل إحدى المسلتين، يدعى جرجس أو ميخائيل. رحلت المسلة بكل التكريم الذى يصاحب هدية قيمة من أمير إلى أمير، على متن قارب صنع خصيصا لنقلها عبر النيل، ثم عبر البحر وعبر قنوات فرنسا : طولون. اعتبر فى ذلك الوقت أكبر حدث تكنولوجى معاصر : نقل هذا الصرح الجديد بعظمة فرنسا، نشر قاعدة أجمل المسلتين، الأقرب إلى الماء، رفعها كاملة، دون شطرها إلى ثلاث قطع،

ووضعها على هذا القارب الكبير الذى اقتضت ضخامته إلى ضرورة انتظار الفيضان حتى يمكن عبور النهر والانطلاق فى مجراه. فى ذلك الحين، انتشر وباء الكوليرا. لم يكن هناك ضحايا بين الفرنسيين. لكن عددا كبيرا من الفلاحين ماتوا أثناء القيام بمهامهم. وصلت المسلة بسلامة. كانت قد تركت الأقصر فى الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر عام ١٨٣١ , وصلت إلى طولون بعد عامين، فى شهر ديسمبر عام ١٨٣٣ . كلف نقل المسلة الفرنسيين أموالا طائلة فتركوا المسلة الأخرى فى مكانها، عند مدخل المعبد.

تلقى " محمد على "مقابل هذه الهدية ساعة من الملك" لويس فيليب". لم ير الجد هذه الهدية أبدا.

يقول المرشدون اليوم للسائحين :

– الساعة دى واقفة من يوم ما جت.

* * *

كان الجد يقرأ الإنجيل. ربما كان يدعى جرجس أو ميخائيل. وكان يعتبر التماثيل القديمة أصناما وثنية فظة. أما هو فكان مسيحيا مؤمنا بالحق.

* * *

ولكن ابنه الذى آمن بالأسلاف، قام ببناء البيت الكبير بجوار معبد الأقصر، وطلاه بالجير الأبيض كما فى اليونان لطرد حرارة الشمس والاحتفاظ بطراوة الليل.

هذا الابن هو والد جرجس.

البيت الكبير القريب من معبد الأقصر

لم تكن الأقصر فى ذلك الحين سوى ضيعة صغيرة متجمعة حول لمعبد، لا يتجاوز عدد سكانها الألفين أو ثلاثة الآلاف، كالقرية التى تضاعف حجمها، والمكونة من أكواخ مبنية بالطين المجفف بأشعة لشمس. استخدمت الأسطح فناء للدواجن. بنيت بجوار المنازل أبراج الحمام مربعة وصغيرة، مطلية بالجير الأبيض، بها ثقوب وأغصان ن الأشجار كى يهبط عليها الحمام، وعلى سطحها جرار، مقلوبة أحيانا بتكوين هرمى. وكانت تنمو أشجار النخيل والجميز ونباتات من فصيلة الأشواك ونبات الأثل فى الصحراء المجاورة، وسط أنقاض الآثار القديمة.

لم يوجد سوى بعض بيوت الملاك التى بدت متواضعة مقارنة بعظمة هذه الآثار. التى أطلق عليها اسم الأقصر؛ أى الحصون أو القصور، ولكن الأجانب وحدهم، وهم الذين لا يعرفون حتى نطق كلمة الأقصر بالعربية، كانوا يرجحون أن بقايا " طيبة " القديمة مازالت موجودة هناك.

كان المعبد فى ذلك الحين مأهولا بالسكان. الدار معدة لاستقبال الفرنسيين، مبنية فوق سقف المعبد، فى القاعة المرتكزة على الأعمدة. أقيمت الدار للبعثة المكلفة باقتلاع المسلة التى يختبئ وراءها

بيت "مصطفى أغا"، القنصل الفخرى لإنجلترا وبلجيكا وروسيا القيصرية وهو أيضا تاجر آثار. تظهر تيجان أعمدة المعبد بالكاد فوق مجموعة من أبراج الحمام وأكواخ الفلاحين الفقراء. كانت تسكن بالجوار سيدة تدعى " ليدى"، وكانت ليدى " لوس دوف جوردن" تغنى الأناشيد التى فك رموزها " نافيل "، والتى تخاطب الشمس كأنها حلت محل الكاهنات العظيمات فى الماضى السحيق.

لاكتمال الصورة، فى الجوار أيضا جامع " أبى الحجّاج " المعلق على أعمدة، بالقرب من كنيسة قديمة على مسافة أبعد بقليل، ترتفع قبتها نحو السماء، أعلى من مئذنة الجامع.

تروى أسطورة شهيرة كيف تمكن ولى الجامع من السيطرة على المدينة. دارت هذه الأحداث فى القرن الثانى عشر. فى ذلك الحين، كانت هناك سيدة قبطية مسيحية ثرية تعيش فى الأقصر تدعى " تارزة"، اسمها تحوير لاسم قديم "تاوسريت". وكان هو رجلا مباركا نزل من السماء. يقال إنه أنقذ الحجاج من العطش بأعجوبة وهم فى الطريق إلى مكة ، وسمى "أبو الحجّاج" لهذا السبب. كانت "تارزة" منجمة قد تنبأت بقدوم رجل غريب سينتزع منها سلطتها فمنعت أى غريب من دخول المدينة. تصدى جنود السيدة الثرية لأبى الحجاج وهو قادم. لكنه خاطب عواطفهم طالبا الإحسان.

– جولوا للست أنى راجل فجير والأرض لكل الناس. كل اللى طالبه بردة صوف من وبر الجمل.

استجابت "تارزة" للطلب. فنسل الرجل المبارك البردة وطوق البلدة الصغيرة بالخيوط حول المعبد. سرعان ما أدركت " تارزة " أنها إشارة رمزية تصدر منه للاستيلاء على مدينتها فقالت :

– ده يوسف أبو الحجاج. جريت اسمه فى الطالع.

فطلبت منه أن يتزوجها. وتقول الأسطـورة إنهما تزوجا بالفعل. وقد دفنا معا فى قبرين متجاورين، مثل الإله والإلهة فى معبد الأقصر.

هل يتصور والد جرجس أنه سيكتسب سلطة من نوع آخر فى الأقصر ؟

* * *

عاشت أسرة أبى الحجاج بجوار الجامع داخل المعبد. رغب أبو الحجاج فى الحصول على قطعة أرض متميزة على ضفاف النيل بجوار المعبد وبجوار الكنيسة الطاعنة فى القدم، وأيضا بجوار طريق ربط بين "الكرنك" والأقصر، للاحتفال بالعيد الكبير "أوبت"، لإحياء ذكرى الزواج المقدس. فيما مضى، استخدم هذا الممر فى استعراض "طيبة" المهيب لإله الشمس "آمون رع" وزوجته "موت" وابنهما "خونسو"، على قوارب تحملها مواكب الكهنة، حيث الجماهير المبتهجة تتبعهم فى تحركاتهم، يتزاحم الرجال والنساء حولهم، يريدون رؤية الآلهة ولمسهم وطرح الأسئلة والمطالب والتعبير عن المظالم والمنازعات. كانت الآلهة تتحدث إليهم، رجالا ونساء، وتبدى آراءها وتباركهم.

لم يتبق فى طريق الكباش البالغ كيلومترين طولا سوى الأنقاض وحطام قواعد التماثيل وأجزاء من الرءوس والأجساد، وبقايا آثار تمتد

حتى "الكرنك" حيث مازالت متبقية هناك أجسام أسود ورءوس نساء سليمة. انتهى عصر مواكب الآلهة والفراعنة فى هذا الممر. ولكن استمر تقليد الخروج بالمراكب فى الأقصر، بمناسبة مولد "أبى الحجاج". كانت المواكب تدور حول الضيعة الصغيرة المتجمعة حول المعبد. يأتى علية القوم والفقراء على حد سواء من القرى المجاورة سعيا لرؤيته والحصول على بركته.

لم يكن ميخائيل العزيز متحمسا للآلهة أو لأبى الحجاج، بل كان منجذبا نحو الأوروبيين.

* * *

يبدأ تاريخ الأسرة العريقة منذ إنشاء البيت الكبير الذى كان بمثابة القلب الذى خرجت منه شجرة العائلة كما نتخيلها، حيث تتفرع أغصانها الواهية، من جذع قوى تغوص جذوره فى باطن الأرض.

فى بادئ الأمر، جذب البيت كل العائلة إلى الأقصر. استقر الإخوة على ضفاف النيل ذاته المواجه للكرنك. وأنشأ ميخائيل بيتا ثانيا بالقرب من البيت الأول، ثم بيتا ثالثا أقرب إلى النهر، به مرساة تشبه رصيف الآلهة قديما، والذى انضمت واجهته إلى بيت رابع ثم خامس. الأخير هو الأجمل والأقرب إلى مسجد أبى الحجاج ومعبد الأقصر. سيصبح يوما ما ملكا لجرجس. كانت هذه البيوت الفاخرة المجتمعة تشكل معا قمرا على هيئة الهلال عند حافة المبانى الفقيرة والغنية المتكتلة حول المعبد والجامع والكنيسة.

كان المهندس المعماري لهذه البيوت إيطاليا. لم يشعر بتعارض تصميماته مع طراز المباني المحلية عندما رسم في تصميمه واجهة على طراز عصر النهضة وأعمدة إيونية، ووضع فوق بئر السلم على ارتفاع أربعة طوابق قبةً من الزجاج المعشق تتخللها الأضواء حيث إن اليونانيين والرومان كانوا يحتلون مصر منذ عهد قريب.

التقدم المبهر للجد ميخائيل

لم نتعرف على هذا الجد سوى من خلال لوحة زيتية وبعض الصور التى بهتت من شدة القدم. لكننا سمعنا عنه كثيراً. هذا الجد الذى كان يخطط للمستقبل، أصبح بالنسبة لنا ذكرى من ذكريات الطفولة.

يظهر فى أقدم الصور مرتديا قفطانا رماديا من الجوخ وملفحة، فوقه جبة فخمة تتناسب مع القفطان، وطربوش أحمر فوق رأسه، وفوق شفتيه شارب غزير يدل على القوة، وحاجبان كثيفان. نظرته جميلة ومليئة بالأفكار. كان جرجس يقول :

– الجد ميخائيل كان راجل ولا كل الرجالة. مخه كبير.

نتخيله خارج إطار الصورة وهو يسير فى طريق المجد، رأسه مثقل بمشاريع لبناء المستقبل، يداه معقودتان وراء ظهره، وخلفه رجل يستعين به فى كل المهمات، ممسك مفكرة وقلما، لتدوين الأفكار كلما خطرت فى ذهنه.

* * *

إذن، ترك ميخائيل " قوص " وذهب إلى الأقصر مرتديا القفطان والملفحة. لم يكن يريد أن يحتمى من شياطين الجحيم التى كانت تحتل

النهر والضفتين ؛ علماء الآثار وتجار التحف القادمين من الدول الأوروبية. كان مبهورا بهؤلاء الأجانب المشاهير الذين يجوبون النيل فى بيوتهم العائمة ويتقابلون ويتوقفون ويزورون بعضهم بعضًا، يتوغلون فى الحقول، يترددون على المعابد والقبور ويصببون نسخا من الأحجار الأثرية. يتذكر " نافيل " الذى كان يطلق النار على الحمام والبط من جسر " تيتانيا " ويصطاد الشنقب فى الريف. يتذكر ليدى "دوف جوردن" التى تبحر على سفينة " الغزالة "، وكل النساء اللاتى كن يرتدين الملابس المكشوفة و القبعات القش، و يحملن "الشمسيات"، واللاتى كن يضربن الأرض بعصا رجل متخنث.

* * *

ترك " قوص " وذهب إلى الأقصر فى عهد الخديو " إسماعيل ". كانت النساء الجميلات في ذلك الحين تملأن الشوارع كما هى الحال فى القاهرة والإسكندرية. إيطاليات، يونانيات، فرنسيات، كن يرافقن أزواجهن أو عشاقهن الذين يعملون فى مصانع الأسلحة والمدافع، والورش البحرية، ويقيمون مصانع الغزل أو الورق، والمسابك، ويتاجرون فى القطن، ويحفرون قناة السويس فى الإسماعيلية، ولا تفوتهم الفرصة لزيارة الأحجار الأثرية فى " طيبة ". بالتأكيد، كل هذه المشاهد، والأذرع العارية والأعناق، التى تصاحب شياطين الجحيم، كانت موحية لميخائيل بالعديد من الخواطر.

لم تكن الأقصر قد عرفت بعد الكهرباء أو المذياع أو السينما. كانت الصفوة وحدها تقرأ الصحف. وكان الانتقال بطيئا، عن طريق المياه

بالصنادل أو القوارب أو السفن، أو فى البر، على ظهور الحمير والخيل والجمال، يستخدم الأكثر ثراء عربات تجرها الخيل. ويسير الفقراء على الأقدام الحافية. كان الشعور بالانتقال من بيت إلى بيت ومن قرية إلى قرية كالسفر من عالم إلى عالم آخر. تنتظم الحياة فى الحقول عبر الفصول ،كما فى العصور القديمة ، وفق إيقاع يفرضه نهر النيل : الفيضان ثم بذر البذار ثم الحصاد. ومع ذلك ظهر القطار الذى يربط المدن الصغيرة بالعاصمة منذ النصف الثانى من القرن، وتقدمت خدمة البريد والتليغراف. كان ميخائيل على حق إذن إذ فطن إلى هذا التطور و أخذ يخطط لمستقبل باهر، يبدو ذلك واضحا فى اللوحة الزيتية والصور التى بهتت من شدة القدم. لابد أن يغير مجرى الأمور ويسيطر على القطبين من عالمه الجديد المنقسم بين عالم الأجانب وعالم التقاليد، إذ إنه تنبأ بإمكانية ازدهار السياحة فى البلاد.

أى بلبلة كانت تنتابه عند اختفاء الأجانب ! فى الصيف، لا ترى فى الشوارع سوى نساء متشحات بالسواد، ورجال يرتدون قفاطين خفيفة، وعلى رأس كل واحد منهم عمامة أو طاقية، أو طربوش تركى أحمر أنيق. هل كان يريد حقا أن يقلد هذا العالم الغريب الذى يعاود الظهور شتاء ؟ طرحنا السؤال على جرجس فضحك. كانت المشكلة بالنسبة لوالده تتعلق بالنساء. هل يسمح لهن بالخروج دون حجاب ؟ أم يحميهن من اتباع سلوك شياطين الجحيم الخارج عن المألوف ؟ كان السؤال يعذب ميخائيل. كيف استطاع أن يسيطر على بلبلة الأفكار التى انتابته ؟

* * *

قام بتنفيذ خططه العديدة، فبنى البيت الكبير وفندق "جراند أوتيل" فى التوقيت نفسه . وتحدى " كوك " الذى بنى فندق " الأقصر" ببناء فندق " سافوى"، ثم تنافس معه " كوك " وأنشأ فندق " ونتر بلاس ".

جاء علماء الآثار وتجار التحف القادمون من الدول الأوربية للإقامة فى هذه الفنادق. كان مصرحا لهم بالتنقيب فى كل المواقع الأثرية واقتناء ما يحلو لهم. وربما قال لهم ميخائيل بلهجته الصعيدية الجميلة ، كالسلطان الذى يحكم من شرفته النهر والصحراء :

- أهلاً وسهلا اتفضلوا !

لا يمكن ترجمة هذه الدعوة إلا بلغة أناس طيبين آخرين يسكنون فى مقاطعة " فود " السويسرية.

كرم ميخائيل لا يضاهيه سوى كرم "محمد على" وليس أقل منهما كرم الخديو "إسماعيل".

ارتدى فى الصور المأخوذة فى مرحلة تشييد المبانى الزىّ الإنجليزى، ولكنه احتفظ بالطربوش الأحمر والشارب الغزير. أما زوجته فكانت لا تخرج إلا متشحة بالسواد بعيدا عن أنظار الغرباء.

لم يهتم ببناء فندق أكبر من فندق " ونتر بلاس ". توقفت المنافسة الآن إلى حين. أخذت تساوره فكرة أخرى : شراء الطين، طمى النيل الخصب. فيما مضى طوق " أبو الحجاج " المدينة بخيط رمزى، سيطوق هو المدينة بشراء الأراضى حولها.

كانت الأيام التى ولد فيها جرجس تنذر بأيام مضطربة، فكان
ناس يقولون لمن يتمنون لهم الشر:

– يطينك بطين !

كانت الأرض لا تدر ربحا لارتفاع نسبة الضرائب عليها. ألم يكن
خديو يريد أن تصبح مصر قطعة من أوروبا ؟ إذن كان لابد أن يدفع
منا باهظا. ألم يرغب فى تأمين مستقبل سلالته الحاكمة ؟ إذن لابد من
فع الثمن. كان السلطان العثمانى الحاكم فى " القسطنطينية " يطالب
هدايا، هدايا كثيرة للسماح باستمرارية هذه السلالة الحاكمة. لم يكن
لأجنبى يدفع ضرائب نظرا للامتيازات التى يتمتع بها؛ فوقع العبء على
عاتق الفلاح. لكن الفلاحين مجتمعين، أغنياء وفقراء معا، لم تكن لديهم
لقدرة على دفع الأموال الكافية؛ فاقترض الخديو من الدول الأوروبية
لغنية وحل الخراب على البلاد. كان " إسماعيل" يعتقد أنه يستطيع أن
يعتمد على " الأصدقاء " الذين استُقبلوا بكل البذخ المعروف عن الشرق
لتفرنج عند افتتاح قناة السويس. بعد وفاة " نابليون الثالث "، وجد
نفسه مهجورا وأسس دائنوه مركزا للديون وأطلقوا عليه صندوق الدين،
بناء عليه استقروا فى البلاد. كان " إسماعيل " ملتزمًا بدفع رأس المال
مضافًا إليه الأرباح. استهلكت أغلب الإيرادات في السداد وذهب الباقى
إلى الأعيان الأتراك لضمان استمرار حكم سلالته.

أفلس " إسماعيل " وباع حصصه فى شركة قناة السويس
للإنجليز.

وحدث ما هو أفظع. فترة قحط. الخديو مفلس تمامًا. الدائنون متحالفون على الإطاحة به والإنجليز أكثر تصميما منهم.

* * *

لم تكن الأعمال الفنية المسروقة والتحف الأثرية محل اعتبار فى دفاتر حسابات مركز الديون.

* * *

فى ذلك الحين ظهر بعض الضباط من أبناء الشعب المصرى يعانون من سوء التغذية، ومن ضعف الأجور والمهانة على أيدى زمرة تركية - شركسية حاكمة تحتقر المواطنين الأصليين المرءوسين، والفلاحين " القذرين "، " الأحقر" فى نظرهم. قاد هؤلاء الضباط ، على رأسهم " عرابى " الذى تمرد على الضباط الأتراك فى الجيش، الجماهيرَ الثائرة ضدهم . أحرقوا الإسكندرية وهدموا القنصلية البريطانية مما أدى إلى هروب الأوروبيين من القاهرة.

كانت الأعمال الفنية الأثرية تحت حماية الفرنسى " ماسبيرو " الذى خلف زميله " مرييت ". ظل طوال فترة الصيف يحرس متحف بولاق الذى حوى التحف الفنيسة الأولى التى انتزعت من طمع بعض شياطين الجحيم. ثم هرب " ماسبيرو " كباقى شياطين الجحيم. هؤلاء "الهمج" كما كانوا يسمونهم لم يكونوا على دراية بوجود متحف فى بولاق. فلم يمسسه أحد بسوء.

قُمعت الثورة على الفور، ولتقليل أهميتها التاريخية سميت "هوجة" عرابى. احتل الإنجليز البلاد بحجة إنقاذ المسيحيين من المجزرة وإنقاذ الأغنياء من الإفلاس.

حذرت نساء الأهالى البسطاء أبناءهن من أن هؤلاء الإنجليز الشياطين قد أرسلتهم السماء لمعاقبة الرجال على فساد أخلاقهم.

* * *

تمت السيطرة على الثورة بالفعل. عندما وصلت الأخبار إلى الأقصر، ولد جرجس فى هذا التوقيت عام ١٨٨٢ . كانت الحياة هناك مستمرة على الإيقاع نفسه.

* * *

بعد مرور عشرين عاما، عرض " صندوق الدين " أراضى الخديو الشاسعة للبيع. فى ذلك الوقت تمكن ميخائيل الذى ظل ثريا ، من شراء أراضى الأقصر، على جانبى النهر، وحقول القمح والشعير، وأعشاب النفل، وحقول القطن، وأراض صحراوية كثيرة. اشترى آلاف الأفدنة. نصف الإقليم، بقرض مدته خمسة عشر عاما، بقائدة ١٥٪. فى المقابل يستمتع بحق الانتفاع والتصرف فى هذه الممتلكات الشاسعة، حسب القوانين النابوليونية المطبقة فى البلد منذ ولادة جرجس.

أصبح ميخائيل بالطبع من الأعيان ومن كبار الملاك. تطوق أراضيه الضيعةَ بدائرة تفوق خيوط " أبى الحجاج ".

منح لقب " باشا "، فأمر بتفصيل زى الأعيان الأتراك لارتدائه فى المهمات الرسمية ؛ سترة سوداء مطرزة بخيوط ذهبية على الصدار كله، وعلى الرقبة الضباطى، وعلى الحزام بالإبزيم المكون من هلال وثلاثة نجوم. علق عليها كل النياشين التى كرموه بها. خلدته اللوحة الزيتية بمظهره الجديد.

تجمع علية القوم حول مائدته، مصريون وأجانب. الخديو "عباس حلمى"، وبارونات " ميناس" وملوك القطن، السويسريون والمصريون، وملوك الصحافة السوريون - اللبنانيون، والحكام الإنجليز. قد يتعجب لورد " كرومر " الذى كان يخشى من أعماقه المد الإسلامى ويختلقه حتى لو لم يكن له وجود، لو اكتشف أن هناك علاقات ودية بين ميخائيل وبين الأعيان المسلمين ، بجارته التى أصبحت فيما بعد السلطانة " ملك "، وحاكم قنا، وأكبر أولاد عائلة أبى الحجاج، شيخ الجامع فى معبد الأقصر.

تراه السلطات الأجنبية صالحا للدفاع عن مصالحها. فأصبح قنصلا شرفيا لليونان وإيطاليا، وتمتع بحقوق دبلوماسية، وحتى بحق محاكمته أمام المحاكم الخاصة المختلطة.

فى قمة مجده اتخذ موقفا ثوريا فسمح لزوجته أن تستقبل شياطين الجحيم وزوجاتهم.

* * *

مازالت الأجيال القديمة من الفلاحين والتجار تتذكر أول باشا أقام فى البيت الكبير وهو فى قمة مجده. يتذكرونه مثلنا من خلال الذكريات المتوارثة.

الزواج المقدس

الحياة التى عرفها جرجس، الوثيقة بالأرض، عشناها معًا: سوسن وأنا، فترة طويلة من الزمن. التصور أن يبتعد الفلاح عن هذا النمط من الحياة يوما ما يفجر فينا إحساسًا بالعار. شعرنا أنه لم يتغير أى شىء منذ الأزل. فجدران المعابد والمدافن الموجودة منذ آلاف السنين تصور لنا بالرسم والنحت خطوات العمل فى الحقول. وفجأة، ونحن فى منتصف العمر، انقطعت الصلة بما كان يعتبر بالنسبة لنا أبديا.

لم يستخدم التقويم الجريجورى فى الأقصر على الإطلاق. كنا نسمى الشهور والفصول، مثل الأسلاف الأقباط، الذين استمروا فى استخدام تقويم سكان الوادى القدماء؛ ثلاثة فصول مقسمة إلى أربعة أشهر. كانت سعادتهم و شقاؤهم رهنا بمنسوب المياه فى النهر.

كان الفيضان فيما مضى يعتبر تجسيدا للإلهة. وظل يسمى "دميرة" كما كان يسمى فى مصر القديمة رغم تغير الاعتقادات وظهور المسيحية. ظل الفيضان يعتبر هبة مقدسة تجلب العديد من النعم والبركات، وتمنح الخيرات بتدفق الطين الخصيب. لا تقل بركة الفيضان عن المياه المقدسة داخل مغطس التعميد، حيث عمَّد ميخائيل طفله جرجس، الذى غمرته المياه مثلما غمر الفيضان الأرض.

استمر أسلوب العمل في الحقول كما هو منذ الأزمنة الممعنة في القدم : تنبثق الحياة بعد الفيضان وتطفو الأرض بعد أن غمرها الماء، مشبعة بخصوبة الطمى وكأنها بعثت من الموت. تبذر الحبوب في هذا التوقيت، لتصبح الحقول فيما بعد شديدة الخضرة كالزمرد. يقول الفلاحون إنهم أثناء الأربعين يوما التالية يقومون بحجز المياه للشتاء وتنظيف قنوات الرى، وإن فائض الطمى يظل صالحا لتغذية البراعم الصغيرة. بعد ذلك يتركون المياه تنساب لحين مجيء موسم الحصاد. ثم ينضب النهر. في هذه الشهور المقفرة، لا يزيد منسوب المياه في النهر عن بضع سنتيمترات. فكانوا ينتظرون ليلة " القطرة "، ما بين ١٧ و ١٨ يونيو. اعتبر القدماء أن القطرة دمعة الإلهة إيزيس الأولى، وهي تبكى على زوجها الراحل أوزوريس ، كي يولد من جديد استجابة لمشاعر حبها، ولاستئناف عملية تجدد الخلق. وكانوا يحتفلون بالقطرة الأولى بدون أن يعلموا أنها دمعة الإلهة. أقاموا الطقوس في عز الصيف للاحتفال بعودة الفيضان وبعرس النيل، بدون أن يدركوا أن النيل فيما مضى كان إلها يموت ويبعث من جديد، مثل أوزوريس، وأن الفيضان هو إلهته التي بدونها يموت إلى الأبد.

في شهر "مسرى" الموافق ٢٢ أغسطس، يقام العيد الشعبي لقدوم الفيضان. توضع "عروسة" في قارب مزين بالأكاليل، حجمها حجم الإنسان، مزينة، ترتدى زيا صارخ الألوان بينما يشق القارب طريقه بجلال وسط مياه النيل. يصحبها جمهور صاخب ومرح على الأقدام أو بعربيات تجرها خيول، أو بالقوارب، ويعزف الأعيان و الفلاحون معا على

الناى والطبول، يغنون ويصفقون بأياديهم، يرقصون بالخيول، يتبارزون بالسيوف ويقلدون حرب الإخوة الأعداء، حرب النور والظلام، حرب الحياة والموت. ثم يلقون بعروس النيل فى النهر، بينما الحشد المتحرك مستمر فى الرقص والغناء والعزف على الناى والطبول والمبارزة بالعصى. ومع اقتراب الليل من الفجر، يطارح الرجال النساء الغرام، مثلما يفعل النيل بعروسه. أطلقوا على هذا العيد " وفاء النيل ". الوفاء لمن ؟ لشعبه ؟ لإلهته ؟

فى شهر سبتمبر، عندما تنضج ثمار البلح والجوافة، يحتفلون بالعام الجديد،"النيروز".

شب جرجس على إيقاع الفصول بين الزرع والصحراء والحضارات المختلفة.

* * *

بلغ عمره أحد عشر عاما عندما شرع والده فى شراء الأراضى لأول مرة. كانت المنطقة المنزرعة قريبة جدا من البيت الكبير، محاذية لمعبد الأقصر وفندق " ونتر بلاس ". لم يكن قصر السلطانة " ملك " يحتل إلا مساحة صغيرة على طرف النيل، وكانت حقول القمح والقطن والبرسيم تمتد وراءه. يتوجه جرجس إلى هناك كلما أتيحت له الفرصة فى أثناء النهار، ويبقى لمدة تعتبر طويلة خلال العام الدراسى؛ مرة عند الفجر، وقت خروج الرجال والمواشى والأطفال إلى الحقول، على ظهور الحمير التى تحمل الآباء والأبناء و الطنابير، ومرة ظهرا، حين يلتمس

الراحة تحت ظل شجرة جميز ويشارك الفلاحين فى تناول طعام بسيط، تقدمه النساء والأولاد للرجال، مكون من رغيف عيش لين، مسطح ومستدير مثل الشمس، محفور فى الوسط ليحتوى بصلة وقطعة جبن صغيرة. لكن جرجس كان يفضل الغسق عندما تعود البهائم محاطة بغيمة من الأتربة، حاملة الحمير الآباء والأبناء والطنابير فى الطريق إلى البيوت. فالغسق بشير بالفجر واستئناف نشاط الحياة فى الحقول.

* * *

كان لا يزال فى المهد عندما بدأوا فى إخلاء معبد الأقصر. حصل السكان المساكين على تعويض بسيط للانتقال إلى موقع آخر مع طيورهم وبهائمهم، ليسكنوا فى أكواخ أخرى، مبنية من الطين والقش ويشيدوا أبراج حمام جديدة. طالبت أسرة " أبى الحجاج " بتعويض أكبر لإخلاء المبانى المحيطة بالمسجد. كان من الأصعب إقناع تجار الآثار الذين حثوا العمال على الإضراب، فاستعان " ماسبيرو " بعمال آخرين من القرى المجاورة.

كان "أمين" ابن "مصطفى أغا" يقذفهم بالحجارة فقبضوا عليه ووضعوه فى السجن.

عندما كبر جرجس وسُمح له بالتنزه داخل المعبد، رأى حينذاك منزل " مصطفى أغا " المهجور، المعلق بغير اتزان فوق الردم وسط صف الأعمدة.

لكن معبد " حتشبسوت " فى الجانب الآخر من النهر، قد أخلاه "مارييت " من قبل. مما أتاح لميخائيل الفرصة لأن يلفت نظر جرجس إلى جمال الإلهة البقرة " حتحور "، وأن يتأملاها بإعجاب وهما يتنزهان معا يدا بيد. حكى لنا جرجس فيما بعد أن الإله "حورس " له عينان كالصقر، عين تجسد الشمس وعين تجسد القمر. لكى ينظر إلى "حتحور" على الدوام؛ نهاراً بعين الشمس وليلا بعين القمر.

يحب جرجس أن يلهو وسط الأحجار الأثرية أثناء الشتاء؛ لأن الصيف الحارق يطرد البشر، بما فيهم علماء الآثار. عندئذ كان على جرجس المشاركة فى التعبئة العامة لمكافحة دودة القطن أو جنْيِه. حتى المدارس، كانت تغلق أبوابها فى وجه التلاميذ من أجل هذه الخدمة القومية.

أخوه الصغير رفيقه فى اللهو. يصطحبه دائما ليلعبا معا وسط الأحجار الأثرية ويساعده على الصعود فوق ظهر الحمار. كم كان يعشق حماره! اشتروه لجرجس يوم ثلاثاء من سوق الجمال. أقدامه عفية، لا تسعل رئتاه عندما يتلقى لكمة، يجز له الحلاق شعره فى الربيع ويقص طرفا من ذيله، مما يزيد من شعور جرجس بالفخر ب "حلقة" حماره الحديثة. كان يربطه فى الفناء المطل على الكنيسة القديمة.

فى أثناء النزهات مع أخيه الصغير فوق حماره العزيز، كان ينادى المراكبى الذى يعمل فى خدمة البيت الكبير، ويعبر النيل بالقارب فى نفس اتجاه الشمس فى وضح النهار، من الشرق إلى الغرب، ويجتاز قرية " القرنة "، ويمر أمام تمثالى "ممنون" الضخمين، ويهيم وسط المدافن،

ثم يصعد فى دروب الماعز الضيقة التى تفصل بين"وادى الملوك "ومعبد "حتشبسوت ". إلى أن يبلغ قمة الجرف، يهيمن على الوادى والصحراء، على الحياة والموت، وعلى ساحات التنقيب. يتقدم حتى حافة الجرف فيرفس الحمار الأرض، وتتفتت الصخرة تحت أقدامه ويحدث على أثر ذلك تهدم طفيف.

سعد "نافيل" دائما برؤية هذين الصبيين، فخورين كملكين، على ظهر دابتهما. وكان يحذرهما من تفتت الصخرة :

- خللى بالك تموتوا !

ومع ذلك كان إحساس الطفلين بالدوار والنشوة يدفعهما إلى المخاطرة مرة أخرى. فيتفرغ " نافيل " بعض الوقت كى يروى لهما تفاصيل كل قطعة من الأنقاض ؛ أطلال الجدران القديمة وفضلات القمامة، حفائر" مارييت "، أو بقايا دير قديم،رفات كهنة الإله "مونتو" فى العصور الغابرة، أو ربما رفات قريبة العهد لرهبان أقباط، حطام الصخور المنزوعة من الجرف بفعل الزمن أو الريح، أو بفعل حوافر حمار، مشابه لحمار جرجس الصغير. انبهر الطفلان بسماع القصص عن كل قطعة عظم أو قطعة حجر ولكنهما لم يستجيبا لكلامه وذهبا إلى حافة الجرف من جديد.

روى لهما "نافيل" أيضا قصصا أخرى سمعاها من جرجس فيما بعد. هل كان يحاول جذب انتباه الأخوين بعيدا عن الجرف ؟

- كان فيه قبيلة اسمها" حربات ". اكتشفت مخبأ مومياوات لخمس أسر مالكة من الفراعنة. عرفوا السر من أب لابن . فكوا أكفان مومياوات. سرقوا الدهب اللى بيحمي قلبها وجسمها من شر الموت.

انطلق الطفلان فوق دابتهما العفية للمغامرة ولاستكشاف طرق أخرى خطرة.

روى لنا جرجس هذه القصص ونحن نسير معه عبر الممرات الضيقة التى تشق الجبل بالقرب من المدافن، حيث كان يحلم مع أخيه باكتشاف مخبأ جديد.

ويعود الأخوان باستمرار إلى موقع " نافيل " لسماع المزيد من القصص.

- ممكن حماركم يهد الجبل فوق المعبد.

كان يحاول إقناعهما من زاوية أخرى ويقرأ لهما تراتيل الشمس.

شرح لهما :

- كان الحمار بيرمز لـ "ست" الشرير. ٧٧ حمار منعوا الشمس تطلع.

ينزعج جرجس على مصير دابته الطيبة، التى تُحمّل بكل هذه الأثقال وتتهم بكل هذه الشرور، كأن تكون عدوة الشمس، وتتهم بهدم الجبل فوق المعبد حيث تُبعث الشمس من جديد. لكن"نافيل" يطمئنهما ويصف اللحظة المباركة عندما يتصالح النور مع الظلام، لحظة تزاوج الإله

والإلهة، التى تبشر بظهور الفجر. ويشترك جيش الحمير فى مساعدة الشمس على السير فى قاربها حتى طلوع النهار.

يتخيل جرجس، حين يعيد عبور النهر من الغرب إلى الشرق فى اتجاه الشمس نفسه أثناء رحلتها الليلية، أن حماره الصغيرالشجاع هو الربان الحقيقى.

لم يقترب بعد ذلك من الجرف ليتفادى وقوع الجبل فوق المعبد نتيجة خطأ قد يرتكبه حماره الصغير الجسور.

* * *

كذلك كان "نافيل" مسئولاً إلى حد كبير عن نقل الإحساس بالحب شبه الصوفى لجرجس تجاه " حتشبسوت " وأمها الإلهة. بالتدريج أثناء إزالة الأنقاض المتراكمة عبر العصور،عثر على "حتشبسوت" مجسمة بالحفر على بقايا جدران متهالكة. بدأ جرجس يكوِّن صورة باهتة فى مخيلته أخذت تنمو إلى أن تجسدت الملكة بكل صفات الجمال التى يحلم بها مراهق صغير، مبهرة كالإلهة الأم، من شدة الجمال. ربما الإله "رع" الذى يجسد عين الشمس يبعث من الموت لأنه يداعب جمالها بعينه القمرية كالعاشق الولهان طوال الليل .

ويروى " نافيل " ما تقوله الأحجار العتيقة : كانت المرأة الجميلة بأذنى البقرة تمثل الفيضان. يعرف جرجس حياة الحقول، لكنه وجد صعوبة فى استيعاب هذا التشبيه!

كان الفيضان يثير القلق والرعب فى النفوس عندما يهجر أرض مصر نحو بلاد النوبة البعيدة. كان مثل لبؤة ضارية تبتلع كل أثر للحياة، كما تقول الأحجار. كانت الآلهة تبعث إله القمر "تحوت"، البارع بالكلمات السماوية، مصحوبًا بالإلهين القزمين "بس" اللذين يجيدان العزف والرقص وممارسة الحب. ينشد "تحوت" والإلهان "بس"أغانٍ للإلهة عن جمال وادى النيل. يغرونها بالعودة قائلين إنهم سيشيدون لها المعابد إذا عادت ويحيطونها بالزينات ويقيمون الأفراح. وكانت تعود امرأة جميلة بأذنى بقرة خصبة، فتنتشل إله النيل من نضوبه الكئيب. عندما يراها قادمة يعود للتدفق من جديد بعنفوان الشباب. ينظر إله الشمس إليها بعينه القمرية ، فيستثار ويقترن بها كأنه ولد من تلقاء نفسه و من رحمها الدافئ. سميت الشمس الوليدة "حتشبسوت" فى مرحلة ما . كانت أمها الإلهة البقرة "حتحور" ترضعها بلبنها، تلعق يدها بحنان، وتعدها بالسلام والرخاء، وبوفرة المواسم الفيضانية . تظهر "حتحور" وتنتشر فوق تيجان أعمدة المعبد، فوق رأسها آلة مصلصلات لتعزف وتغنى ألحانا مرحة.

"حتحور"! هل هى الإلهة نفسها المجسدة برأس اللبؤة فى معبد "الكرنك" على الجانب الآخر من النهر ؟ هناك، كان اسمها "موت"، "الأم" ذات الوجه المرعب: أم قاسية كالحياة ؟ كانت "حتحور" من أجمل النساء، تجمل أذنا البقرة عينيها اللوزيتين المحفورتين فى الحجر، المكحلتين لإبراز جمالها الذى يشبه جمال الفيضان!

يحاول جرجس حائراً، يحاول أن يفهم ؛ كما حاول من قبل أن يفهم قصة الحمير التى لا يقل عددها عن ٧٧ ، التى كانت تمثل الشر والظلام. ومع ذلك تستطيع أن تخدم النور وتجر مركب الشمس صوب النهار.

فى طريق العودة بالقارب، كان يتأمل كلام "نافيل"، وكان الملاح يساعده على فهم الحياة الجميلة القاسية.

* * *

يوما ما أراد جرجس، فى عز الصيف، أن يعاون والده. كانت الجواميس تلقى بنفسها فى الماء كى تتخلص من شدة القيظ. بذل عشرة أضعاف المجهود المعتاد تحت الشمس الحارقة، منتظراً أن يقول له والده :

– انت راجل! بتحافظ على أملاكى ؟

لكنه سمعه يصرخ :

– انت اتجننت ؟ الأرض ح تحرجك أنت كمان. انت عارف كام واحد الأرض بلعتهم ؟

ظل جرجس يحكى هذه القصة فى سن الشيخوخة، وكلما رواها بدت له كأنها لحظة تنوير. الأرض مكونة من طبقات من الطمى الوافد مع الفيضان، ولم يكن هو سوى حبة شعير. رغم ذلك الأرض نفسها عرضة للتلف والهلاك ، تحت رحمة نزوات المد، ونزوات الإلهة الجميلة.

كان يأمل أن يحل رموز كلمات إله القمر "تحوت" السحرية ويكتشف أسرار الإلهين القزمين "بس". ربما استسلم عندئذ شهر "بؤونة" الذى " يفلق الحجر" لمفعول الكلمات السحرية. وتلاشت مخاوفه من فناء العالم.

هل كان جرجس يفكر فى المستقبل فى ذلك اليوم القائظ بينما النهر ينساب عليلا فى انتظار الفيضان؟

كان ظمآنا للحب مثل النهر المتعطش للفيضان ومولعا بالحياة رغم قسوتها أحيانا.

* * *

كنا نرسم صورة فى الخيال للطالب الشاب وهو جالس على حافة النهر. يرتدى دائمًا الطربوش التركى الأنيق بدلال، ويميله قليلا نحو اليسار، موضع القلب، ويدفعه أيضا برفق ويخفضه فوق الجبين لستر الأحلام التى تنفذ من نظراته. بجواره، تدور الجاموسة معصوبة العينين لتدير عجلة الساقية الضخمة وتروى الحقول.

حب مستحيل

لم يكن ارتباط جرجس ووردة هو البداية.

وجدت سوسن فى يوم من الأيام داخل مكتب مهجور، حزمتين من الخطابات المصفرة من أثر القدم. لم تتمكن من قراءتها كلها قبل أن تحرقها. كانت بإمضاء فتاة أجنبية.

تعرفت منها على بعض المعلومات عن قصة حب والدها فى سن المراهقة.

* * *

كانت الفتاة الأجنبية تمر من أمام البيت الكبير فى طريقها إلى معبد الأقصر. ترتدى قبعة من القش وقميصا ذا ياقة ضباطى وصداراً مزينا بالدنتلا وتنورة طويلة بكرانيش.

تأنق هو خصيصا قبل أن يتوجه لمخاطبتها: زىّ إنجليزى، طربوش تركى، ياقة بيضاء منشاة، رباط عنق متدلٍّ مزين فى الوسط بلؤلؤة رقيقة وقيمة. وضع فى جيبه بحرص ساعته الذهبية المستديرة المعلقة فى عروة الصدار بسلسلة من الذهب. كانت الساعة تمثل حينذاك علامة من علامات التطور.

تبتسم سوسن لصورة أبيها : "حبة ليس لها مثيل". تمنت دائما أن تقابل شابا يشبهه. لو كانت تعرفه فى تلك الفترة لأعطته الثقة بالنفس التى كان يبحث عنها بنظرتها المحبة، كما تفعل الآن أمام الصورة. كان يعتمد هو على ساعته الذهبية وزيه الإنجليزى وطربوشه التركى ولؤلؤته الدقيقة القيمة.

دخلت الأجنبية المعبد. احتذى خطاها. تظاهر بالإعجاب مثلها بالأحجار الأثرية. كان يستطيع أن يتحدث معها باللغة الفرنسية أو الإنجليزية وإن كان بلكنة صعيدية. كان قريبا منها جدا. شعرها أسود ذو جدائل، عيناها السوداوان مشدودتا الأطراف. لو تكحلت لأشبهت عينى "حتحور" فوق أعمدة معبد "حتشبسوت".

قدم جرجس نفسه: سيد البيت الكبير الشاب. لو سمحت، يود أن يرافقها إلى"الكرنك" حيث يقوم "لوجران" بإزالة الأنقاض، حتى معبد "حتشبسوت" حيث يعمل فريق "نافيل".

كم عدد الشبان الذين حاولوا التقرب إلى الأجنبية بهذا الأسلوب؟ كم عدد الذين وبختهم؟ لكن جرجس مهذب وجذاب. لم تقاومه الأجنبية . سمحت له أن يقودها نحو الكرنك، إلى معبد " حتشبسوت "، مفتونة ومنتشية بروعة الجو المشمس. ستذهب أيضا فى المساء لتناول العشاء عند أسرة " عبد المسيح ".

* * *

يفتتح السجل الذهبى لـزوار البيت الكبير فى نهـاية قرن. أول من كتبت أسمـاؤهما فيه عـم وعمـة " جان كابار "، اللـذين عادا من " طيبة " وقصًا على الطفل البلجيكى الأصل، الذى سيصبح عـالم مصريات مشهور، قصصا عجيبة عن شـعب عظيـم زال. هل تحدثا إليه عن جرجس، هذا الشاب الذى كانت نظرته تبعث الحيـاة فى الأحجار الأثرية ؟

نجد فى السجل الذهبى أيضا إمضاء الفتاة الأجنبية. اسمها الأول " سوزان ".

جعلها تجلس إلى يمينه أمام مائدة والده الفخمة التى لا ينقصها شيء من مظاهر الأبهة الغربية: خزف "سيفر" من فرنسا وكريستال من تشيكوسلوفاكيا وفضيات من "شفيلد" بإنجلترا وثريات وشمعدان من زجاج "المورانو" جاءت من إيطاليا، أنواع فاخرة من الجبن ومن نبيذ "برجونيا"، والشمبانيا المعتقة. قدم لها كل ذلك حسب أصول الضيافة. يزداد الحديث حيوية. دار الحديث حول متحف بولاق، والأعمال الفنية التى عادت من باريس بفضل "ماسبيرو"، بعد أن عرضت هناك بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على الثورة الفرنسية. رغبت الإمبراطورة "أوجينى" أن تحتفظ بها. كان الخديو الكريم مستعدا أن يمنحها إياها من شدة ولعه بها. يروى جرجس قصة قطيع الحمير الذى يحجب الشمس ومع ذلك يجر مركبتها نحو النهار.

يقول للأجنبية:

– ممكن الشياطين تتحول لملايكة.

تخمن أنها فى نظره ملاك مثل "ماسبيرو" فتبتسم.

يتحدثان عن جزيرة " فيلة " حيث يوجد معبد الإلهة، الذى يُروى فيه كيف حاول الإلهان القزمان "بس" إغراء الإلهة القصية.

كانت جزيرة "فيلة" المجاورة لأولى شلالات النيل، مهددة حينئذ بسبب بناء خزان أسوان الذى كانت تغمره المياه طوال نصف العام. ومع ذلك كانوا يفكرون فى تعليته. جند الشعور بالخوف من فقد المعابد النوبية حشدا من المثقفين فراحوا يصورون وينقلون ويسجلون كل ما ستبتلعه المياه. كان من هؤلاء الكاتب وقبطان السفن الحربية "بيير لوتى" الذى كان يحضر لروايته "موت فيلة" وهو يتنزه حزينا فى أعالى الصعيد.

جرجس، سعيد بأسلوب الحديث. يشعر أنه نما أثناء وجوده بجوار فتاة شابة بهذا القدر من الجمال والمعرفة بالأحجار الأثرية. يريد أن يتفوق، أن يتحدث عما يعرفه عن النوبيين. تتزاحم فى ذهن جرجس ذكريات يتمنى أن يبوح بها. لقد لقنه النوبيون، الذين يملأون المطابخ ويجيدون الخدمة على الموائد، أسرار الحياة. ولقنها هو بدوره أخاه الصغير الذى كان يستوعبها بالكاد. عصروا له أوراق الخس التى كانت تفرز سائلاً أبيض خصبًا على حد قولهم، وهم يضحكون. أو قدموا له لحم الجمل كى يساعده على البلوغ. وضحكوا بسخرية لأن جرجس لم يكن يعرف بعد معنى البلوغ، وكان يشرح ذلك لأخيه بأسلوب طريف. جعلوه يتذوق البوظة، هذا المشروب المخمر الخثر ذو الرائحة النفاذة المكون من خليط من حبوب القمح والشعير. هل كان هذا المشروب يقوى طاقة الذكور ؟ استمتع معهم أيضا بتدخين الحشيش وهم ملتفون

حـول النار مـسـاء أحـد أيام الخـمـيس اسـتـعـدادا لمضـاجـعـة زوجـاتهم وإطالة فترة المتـعـة.

مـازال الحـديث يدور حـول جزيرة " فيلة ". لكن هناك يظهر الإلهان القزمان " بس " فى أوضـاع مثيرة لاستمالة الإلهة، عراة على الأحجار الأثرية، عـراة دون احـتـشـام، ولكن بمنتـهى الرجـولة، وبابتـسـامـة عـريضـة، يرقصـون حاملين القيثارة والطبلة.

كان يتوق إلى أن يتحدث مع الأجنبية عن المجون والثقافة فى آن واحد. لكن جرجس تلقى تربية أخلاقية محتشمة. يسلك باحترام ويهذب الحوار. جسده معذب. إنه يرتجف لقربه من فتاة بهذا القدر من الجمال.

لا يدرى إن كان ذلك من شدة المتعة أو من شدة الألم. لكنه يتمالك نفسه. تخفى رقته الفطرية مشاعره العاصفة.

* * *

عندمـا يحلـم بهـا فى الليل يمـتلك كل الجـسـارة. يخلـع مـلابسـهـا ويلبسـهـا غلالة شـفافة ويبـهر بجسـد المراهقة. يصـحو من رعـشـة اللذة. يتـوحـد مع إله الشـمس الذى يولد من جديد. يتوحـد مع إله النيل الذى يستعيد شبابه ويتدفق باندفاع.

يغنى أثناء الحلاقة. دفـعتـه جرأته فى ذلك اليوم، إلى فندق " ونتر بلاس " الذى تقيم فيه الفتاة. يطلب مقابلتها.

يتنزهان معا وسط هذه الأحجار الأثرية التى توحى بملذات الغرام. يتـخيلان قدرة جسـديهمـا مـعـا على الإثـارة ويضـحكان مـعـا دون خـجل.

لكنه لا يقدم على شيء سوى أن يقبل أطراف أصابعها ويمس كتفها. جسداهما يرتجان، الواحد مشدود للآخر.

يذهبان للاستراحة فى البيت الكبير على ضفاف النيل. يعرض عليها كتبه. يتحدثان ويتحدثان وتلتف الكلمات حولهما وتخلق عالما سحريا. حديثه معها لا ينتهى.

– لا وجود للحب فى بيوتنا. تجدينه فى النقوش على جدران المعابد التى تحكى عن آلهة تولد من جديد من حبهم للإلهات.

يقول لها :

– قديما، لم يكن لدينا إله بدون إلهته. كيف يستطيع أن يخلق الكون وحده. هل تقبلى أن تكونى إلهتى أنا ؟

يتجرأ ويكسر الحواجز.

– لو تزوجنا سننجب شمسا بحالها، تكبر وتكون جميلة مثل "حتشبسوت".

يشترى معها أول قطعة من مجموعاته الأثرية : تمثال أثرى لزوجين يقلدان الآلهة ويتعانقان أبديًا، ليولدا معًا من جديد.

لا يملان تأمل التمثال لفرط جماله. يمسك الزوج لفافة مكتوبة تسجل ممتلكاته، بينما تعانق الزوجة كتفيه لحمايته. ينظران أمامهما فى نفس الاتجاه. من شدة جمال التمثال، يتمنيان أن يتوحدا معه، كما لو كانا قرينى هذين المتوفيين النبيلين. يتأملانه طويلاً ثم ينظر كل منهما إلى الآخر ويتبادلان أول قبلة.

* * *

في يوم ما، بعد فترة طويلة من الزمن، كسر الخادم النوبى "دهب" تمثال الزوجين الأثرى.

– يا غبى! دى عمرها أربعتلاف سنة !

أجاب " دهب " :

– شىء عجيب. يبجى مقدر لها تموت بجى !

أصلح جرجس التمثال بعناية المحب وعيناه تسترجعان عالما من الصور؛ صورة حلم الغرام، صورة امرأة كان يمكن أن تشاركه حبا آخر، حب القطع الأثرية، حب الصحراء، حب الوادى والفيضان. كان اسمها " سوزان "، مثل " سوسن ".

* * *

لماذا لم يتزوجها ؟

* * *

كانت أمه تقول إن الأجنبيات سيئات السلوك:

– اعمل اللى يعجبك مع الأجنبيات لكن اتجوز بنت من بلدك.

* * *

حدثت الكارثة أثناء الدراسة فى القاهرة. صعق جرجس هزيم رعد، يشبه الدوى الذى سمعه من قبل فى الخريف، عندما تهاوت أعمدة معبد " الكرنك " العملاقة.

فى زمان الأجنبية، كانت الأحجار الأثرية ترتاح بعد الشتاء. كانت السلطانة " ملك " تسافر إلى القاهرة أو إلى أوروبا. تتوقف زيارات الأعيان القادمين من المدينة الكبيرة. تتحول الأقصر إلى ضيعة مرة أخرى محاطة بقرى صغيرة. تتلاشى الفنادق فى ظلام الليل. ينتظر الفلاحون اكتمال القمر بدرا لإقامة أفراحهم، وتنتظر الأقصر حدثا شعبيا للخروج من صمتها. فى الصيف، كان جرجس يساعد والده فى جنى القطن. ثم جاء الخريف.

كان الفيضان جيدا فى ذلك العام. لم تجتح المياهُ الممزوجة بالطمى الأرضَ. لا زادت ولا قلت. احتفلت أسرة جرجس مرة أخرى برأس السنة القبطية. ملأت الوالدة البيت بالبلح الزغلول الأحمر يابس القشرة، الذى يدر عصيرا، وقدمت البلح الأمْهات الأسمر لين القشرة. نزعت نوى البلح الأسمر وقامت بقليه بالزبدة وقدمته مع البيض المقلى. روعة ! لم يعانِ أحد من سوء الهضم.

فى ذلك العام أبحر جرجس على متن سفينة لاكتشاف أوروبا. عند عودته، وجد والده مريضًا. كما لو كان ينتظر، كى يفارق الحياة، ابنه البكر الذى عليه – حسب التقاليد – أن يدفن أباه..

فقد السند الذى كان يعتمد عليه . رأى الندابات اللاتى أحطنه وهن يمزقن وجوههن من شدة الألم. رأى والدته غارقة فى الحزن، وأهل المدينة بأكملها يسيرون خلف النعش. كان الابن البكر. قالوا له إنه يجب أن يحل محل الوالد. أقيم سرادق بجوار البيت الكبير وأقيم المأتم لمدة ثلاثة أيام : للرجال فى جانب، وللنساء فى جانب آخر. حضر الأعيان فى

كـل أيـام المـأتم. كلما صـافحـوه كـرروا له أن البقية فى حياته ولكنـه لم يشعر بالعزاء. كان يريد أن يوقظ الميت. الناس الذين لمسوا يـأسه حـاولوا أن يخففوا عنه بقولهم:

- آدى حال الدنيا .

لكن الموت غمر البيت. لم يكن يدرى أن النسوة اللاتى ترتدين فى العادة ثيابا سوداء، لهن أيضا القدرة على زيادة قتامة السواد. أحاطه الظلام من كل جانب. موائد المآتم الكئيبة التى لا ينقصها إلا النبيذ كى تتحول إلى وليمة من ولائم الماضى. الوجوم فى وجوه الرجال يعمق قتامة النساء. كان القسيس الذى يقيم القداس أثناء مراسم الدفن يتحدث دون ذكر مشاعر البهجة التى تصاحب يوم القيامة أو البعث فى لغة القدماء، و دون قرع الصنَّج.

دفن الوالد فى مدفن على مقربة من معبد الإلهة اللبؤة. اصطحبته الندابات إلى مثواه الأخير.

* * *

انقطعت دراسة جرجس فى القاهرة لإقامة مآتم أخرى، بعد مرور خمسة عشر يوما من الوفاة، و فى اليوم الأربعين. كان يستغرق فى حداد جماعى : الأعيان الذين يرتدون الأسود والطربوش التركى يصافحونه واحدا تلو الآخر ويعزونه بالكلمات التقليدية :

- البجية فى حياتك.

ثم يجلسون فى السرادق على كراس مذهبة، تؤجر لهذه المناسبات. شعر حينذاك بالحنين للفوضى، بالحنين إلى الصحراء.

الصحراء. سيجد هناك حبة الشعير التى تنتظر الماء كى تنبت. لماذا لا يكون والده مثل حبة الشعير؟

* * *

عندما انتهى من دراسة الحقوق، استقر نهائيًا فى الأقصر. كان عليه أن يدير ممتلكات والدته. والدته تحتاج إلى سند. فضل أخوه، الذى ورث أيضا من الفلاح الثرى، الإقامة فى القاهرة. لم يكن يعرف شيئًا عن حياة الريف سوى الزوار الذين يأتون إليه محملين بالبط المشمر، وقفف التمر والعيش الشمسى وكل خيرات الأرض ونعمها . أما جرجس فقد شرع فى توصيل المياه للرمال كى تزهر الصحراء.

عاش طوال الاثنى عشر شهراً من كل عام فى البيت الأبيض الكبير على ضفاف النيل. كانت الأيام متشابهة. يذهب فجرا إلى الحقول محاطًا بالسحابة الترابية التى تحدثها مواكب البهائم والفلاحين، وينتقل على ظهر حمار وسط المشاهد الريفية الأبدية: المحراث الذى يجره الثور، الفأس التى يستخدمها الفلاح لعزق الأرض، والشادوف والطنبور والساقية لرى الحقول. الجاموسة التى تدور معصوبة العينين كى توصل مياه النهر إلى القنوات بكميات بسيطة، تؤكد أن كل شىء يدور مثلها فى دائرة، وأن الحياة والموت ما هما إلا دائرة متصلة.

وفى الغروب، عندما يتوقف صرير الساقية، عليه أن يغادر الحقول محاطا بنفس السحابة الترابية التى تحدثها مواكب البهائم والفلاحين. عندئذ، كان يتوغل فى الصحراء، ويتناهى إلى سمعه من البعد عويل أبناء آوى.لم يكن يخاف. يتسلق مدفن " سيتى الأول " وينزل إلى معبد

"حتشبسوت " ويعثر على دروب الماعز التى كان يستكشفها وهو صغير. الحراس يعرفونه كما يعرفهم هو أيضا فرداً فرداً. كانوا يفتحون له الأبواب، حتى أبواب المدافن المكتشفة حديثا المليئة بخيوط العنكبوت والخفافيش. يظل ينظر إلى عالم الرسوم الجدارية الملونة فى مساكن الأموات حتى آخر وميض لشمس الغروب.

فى الليل كان يلتهم الكتب التى تتحدث عن الكتاب الكبير المعروض على ضفتى نهره. دخلت الكهرباء بيته وكانوا يشيرون إليه بالبنان ، إلى البيت الأبيض الكبير الذى بدا متألقا ينافس القمر. كان يقرأ حتى وقت متأخر بينما الأقصر والقرى المجاورة غارقة فى الظلام.

شغلته الكلمات التى ترددت كثيراً عند وفاة والده.

– البجنية فى حياتك.

بقية الحياة. كم يتبقى من الوقت ؟ لم يستنفد والده بقية حياة جده ولن يستنفد هو أبدا حياة والده. كان يلمح فى الكتب التى يقرأها سلسلة من الحيوات التى تشبه حيوات حبات الشعير، وتسلسل الشموس والنجوم، وفى كل حلقة من هذه السلسلة توجد إلهة، ويوجد إله ويوجد الفيضان والنيل، ويوجد أيضا موسيقيون عباقرة يشبهون "بس"، ويغوون الإلهة، بكل الوسائل الفنية لإقناعها بالرجوع إلى الإله، كى يعاد تجديد الخلق. كان يفكر :

– بدون الحب، لن تعود الحياة، مهما دارت الجاموسة.

كان عليه بصفته الجديدة كسيد للبيت الكبير فى الأقصر، أن يتزوج. كان لابد أن يتزوج كى ينجب ذرية تكون امتدادا لأبيه.

* * *

ينتظر الشتاء بفارغ الصبر كى يتذوق تلك اللذة المسكرة التى كانت تحول الموت إلى حياة، ذلك الشتاء الذى قد تعود فيه حبيبته.

كانا يتبادلان رسائل طويلة يكتشف من خلالها سحر الكلمات. كان إله الكلمة والكتابة يشفيه من الموت ويجعله يحلم بالحب. كان الإله القمر يعيش فى عالم الشعر الذى يعكس بدوره ومضة خافتة لشمس تتحدث عن الشمس، وتحمل رسائل كل الشموس الآفلة، وكل الأجداد الذين أصبح جرجس يمثل امتدادا طبيعيا لسلسلة حيواتهم. اسم هذا الإله " تحوت "، الملك الأعظم، الأعظم ثلاثا. كان يحب الإلهة، ويعرف كيف يغريها بكل الوسائل. قالوا إنه يحكم كل النفوس، وإنه المهندس الفعلى لكل المعابد وكل المدافن، وكل الأقنعة الإلهية، وصانع موقع "طيبة" العظيم.

كانت هناك ومضة خافتة كالهلال تنبع من كل الكتب التى تحيط بجرجس فى البيت الأبيض الكبير على ضفتى النيل، ومن كل الرسائل التى كان يكتبها ويتسلمها. هذه الكتب وهذه الرسائل، كانت تحمل فى ثناياها ما تبقى من سحر الإله القمر.

كان يستيقظ فجرا ليعود إلى الحقول فى نفس توقيت البهائم والفلاحين وليركب حماره الطيب الطاعن فى السن.

* * *

كان هواة القطع الأثرية يهلون عند بوادر الشتاء مصطحبين لصوص المومياوات. جذبت الضيعة الصغيرة مزيدا من الناس، ليس فقط القناصل والتجار لكن أيضا ممثلي المؤسسات والجامعات. وكانت الأسر الطيبية تكون ثروات من تجارة الآثار خلف جدران المعابد.

وصلت فى شتاء ما.

إنه شتاؤهما الأخير.

كم من المرات عبرا معا النيل من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، مثل الشمس فى مركب النهار ومركب الليل. كان القارب يهدهدهما، وهما يعبثان بأشرعته لتخطفهما الرياح أو تيارات النهر، يبحران من "الكرنك" إلى الأقصر كى يتزوجا مثل الآلهة. ويعودان إلى "الكرنك" كى يحكما مثل الآلهة، وإلى معبد " حتشبسوت " كى يولدا من جديد مثل الآلهة.

ها هما يركضان يدا بيد من "الكرنك" حتى الأقصر عبر طريق "الكباش". يتنزهان فى البر الغربى والبر الشرقى وفى جزيرة الموز. ويركبان حماراً عندما يذهبان إلى الحقول، أو إلى الصحراء، وهى مردفة خلفه كما كان أخوه الصغير يفعل من قبل. يستريحان على حافة المياه، والمارة يحسدون جرجس ، هذا الوريث الثرى الذى يمتلك امرأة بهذا القدر من الجمال.

فى "الكرنك"، يعيدون تثبيت الأعمدة، وتنسيق البهو الكبير المرتكز عليها على يد" لوجران" السحرية، وكأنهم يقلدون ورش البناء التاريخية.

ظهرت الأحجار الأولى لنصب تذكارى لـ "حتشبسوت" كان قد تهدم.فى الدير البحرى، بينما "نافيل" يعيد تأسيس جدار من معبد"حتشبسوت" مستخدما الأحجار التى وجدوها تحت أنقاض الدير القديم. برزت "حتشبسوت " مرة أخرى ببطء شديد من عالم النسيان ونهض معها عالم بأكمله. كانا ينظران معا إليه، مبهورين أنهما شاهدا عيان لتلك اللحظة التاريخية، ولتلك المعجزة.

* * *

كان ينتظر منها الحياة، الحياة بأكملها. لم يتزوجها . هل كانت تحمل بذور الموت مثل التى كانت تدعى "ليدى"؟ هل كانت شمس "طيبة" بالنسبة لها آخر أمل فى الحياة ؟ أم أنها تزوجت؟

تراسلا خلال فصول متتالية من الربيع والخريف والصيف. ثم حل الصمت التام. هل أبلغ زائر ما جرجس عن زواجها أو وفاتها ؟

أحس بيأس أعمق من يأسه عند وفاة والده. قضى ليلة كاملة فوق جرف البر الغربى، آملا فى أن يحدث انفجار مهول فى الشاطئ الصخرى الذى يجلس عليه، وأن يقع الجبل معه فوق معبد "حتشبسوت"، هو والصورة المحفورة فى قلبه، صورة امرأة من جنس "حتشبسوت" كما كان يعتقد رغم أنها أجنبية. هل تشبه حبة شعير ضلت عن موطنها الأصلى ؟

لم يحدث شىء. لم يقع الجبل فوق المعبد.

عند الفجر، أشرقت الشمس من وراء البيت الكبير، فوق الكنيسة القديمة. عاد إلى بيته وذهب مرة أخرى إلى الحقول وبدأ حياته من جديد.

* * *

لن يسمح لجرجس بأن يتزوج من أجنبية، كان عليه أن يحافظ على نقاء الجنس القبطى الحريص على حماية نفسه من أى اختلاط. لابد لأبناء جرجس أن يشبهوه مثلما تشبه حبة الشعير حبة شعير أخرى، مثلما تشبه الشمس الوليدة شمسًا غاربة. لابد أن يتزوج فتاة من البلد ذاته، كانت والدته حريصة على ذلك.

زواج جرجس الأول

كان عمره أربعة عشر عامًا عندما قرروا زواجه فى المرة الأولى. كان يذهب إلى مدرسة الخديو فى القاهرة،"الخديوية"، ويقضى إجازاته فى الأقصر، إجازة الصيف وإجازة الشتاء.

جده هو صاحب المشروع، المشروع الكئيب. لكن فى نظر الجد لهدف شريف: أن ينظم القبيلة قبل أن يفقد زمام الأمور. لذلك فكر أن يزوج أبناء العمومة فيما بينهم، رتب كل شىء لإقامة ستة عشر فرحًا فى عام واحد. لكن والدة جرجس اعترضت، رفضت أن تقدم ابنها المفضل لابنة العمة " شمعة ". يوم الفرح، حبست جرجس فى حمامات المنزل.

زوجوا "شمعة" لابن عم آخر.

توفيت "شمعة" عن عمر يناهز اثنين وتسعين عاما، ظل طوالها قلبها يحترق من ذلك الجرح القديم.

لم يعلم جرجس شيئا عن تلك المأساة إلا عندما تراكمت الإهانات والخداعات وتضاعفت الأحقاد، كان لابد من مصارحته والاعتراف بالأسباب الحقيقية لهذه المشاعر الدفينة.

ظلت هذه القضية القديمة تتوارثها أجيال الأمهات وبناتهن. تشاجرن بشراسة على غنائم المتوفين. كان الكل في النهاية خاسرا. ترك أبناء العم وبنات العم بيوتهم في "قوص" لملاحقة العدو حتى الأقصر. مع ذلك تقول الأسطورة إن كنزًا كان مخبأ في أحد البيوت هناك. لم تكف إحدى العمات، وهي الأخت الوحيدة لخمسة صبية، عن تكرار ذلك.

– تحت المشربية في كنوز ياما، جنيهات دهب بالزوفة.

كانت المشربية الخشبية تسمح للنساء بأن تطل على العالم الخارجي دون أن ينكشفن على أحد.

– دوروا عالكنز بدل ماتشدوا شواشي بعض.

لم يلتفت أحد لهذيان العمة المسنة، بل اتهموها بالرغبة في تغيير موضوع الصراع الحقيقي.

تكتلت القبيلة في الأقصر كي تتشاجر عن قرب بعنف أشد ضراوة.

اضطروا يومًا ما إلى أن يحكوا القصة لسوسن. كانت تمتحن في مادة الحقوق المدنية تحت إشراف المحامي الخصم.

سألها :

– آه، بتدرسي حجوج عشان تمسكي مشاكل العيله انتي كمان.

كانت تحلم بالحب كما حلم والدها من قبل. لكن كيف تبوح بذلك وهي تمتحن في مادة الحقوق المدنية، ويحمل الممتحن في قلبه آثار قضية تفجرت بسبب مشروع عملاق لعقد قران جماعي بُني على منطق المصلحة.

* * *

يحاول الكل أن يزوج شابا من نوعه، الآباء والأمهات، القساوسة والراهبات والوسطاء. كان الخبر ينتشر من قرية إلى قرية، من إقليم إلى إقليم، من كنيسة إلى كنيسة. كانت كل الفتيات تتمنى أن تقترن بعريس مثله. ثرى ومن أسرة عريقة والمستقبل أمامه. لم ينقص لاكتمال سعادته سوى الزوجة، المرأة التى ستنجب له ولدا.

كانت والدته تبحث عن الجوهرة النادرة، ليس فقط فتاة القلب، ولكن مالكة لحقول خصبة أيضا. يجب أن تفوح منها نكهة نقية ورائحة محلية طيبة، وكلما كانت من أعالى النيل صوب منابعه الأصلية، زاد عطرها. أهل الصعيد لا يقدرون أهل الدلتا بوجه عام. يبدو أن الله حرمهم من الحظوة: الدليل أنه كان يجب أن يمتلكوا عددا أكبر من الفدادين كى يكونوا جديرين أن تضعهم والدة جرجس فى اعتبارها.

كانت تقول بتعال عندما يتحدثون عن وريثة من هذه المنطقة :

– ألف فدان فى المنوفية ما يساووش ميت فدان عندنا.

مع أن وضع المنوفية فى وسط الدلتا بين مصدرين للمياه يعتبر أرضا ثرية. لكن لا يوجد منطق للتعصب. كانت والدة جرجس واثقة من تقديراتها ولا تهتم بتبرير منطقها. عندما كانت تذكر فتاة من عائلة "مشرقى" مثلا، أو فتاة من عائلة "لوزة" أو "بهمن" الذين يمتلكون أراضٍ فى "مير"، كانت تصمت احتراما لمكانة هذه الأراضى فى نفسها. أما الاعتبارات الأخرى، فكانت ثانوية.

– بنت عمدة "أبو جرجاص" لها عين جزار. شوفتوها ؟

كانوا يعلقون هكذا على "بهية" المسكينة التى لم تكن تمتلك أراضٍ كافية كى يغفروا لها هذا العيب الخلقى.

فى الواقع، لم تحمل أى فتاة من الصفات ما يكفى لتكون فى مكانة ابنها.

* * *

تزوج فتاة من "جرجا" فى المرة الأولى تحمل اسم عائلة جديرة بأن تقترن باسم عائلته: "عبد النور".

تظن سوسن أنه وضع مراسلاته على جنب فى ذلك التوقيت،وكومها فى رزمتين جميلتين مربوطتين بشريط وردى فى قاع الدرج السحرى.

دام هذا الزواج الأول ستة عشر عامًا على وجه التقريب، ثم ترمل جرجس، وتركت له زوجته ولدًا عمره خمسة عشر عامًا: ميخائيل، مفخرة أبيه، وبنتا عمرها أربعة عشر عامًا: "ميرى" التى نضجت فى سن مبكرة وأصبحت مؤهلة لأن تصبح أما.

لم يكن زواجا قائما على الحب ولكن على المصلحة. شاركته زوجته بعض همومه، وأعطته بعض الحنان، ولكن لم تكن تشاركه حديقته الخاصة، الحافلة بالزيجات الملكية والإلهية، والكاهنات المنشدات، حاملات القرابين... لم تكن تستطيع أن تقدر تذوقه لتمثال الزوجين الأثرى، الذى يرجع تاريخه إلى أربعة آلاف عام.

ثورة سنة ١٩١٩

عاصر جرجس سنوات الحرب العالمية الأولى وهو أرمل فى السابعة والثلاثين من عمره، محاطا بالثروات والألقاب : القنصل الفخرى لبلجيكا وإيطاليا وإسبانيا وروسيا القيصرية، مالك أراض شاسعة ومالك فنادق، وجامع التماثيل الأثرية، وعضو فى حلقة السلطة الإقطاعية.

كانت مصر التى احتلها الإنجليز جزءا من الإمبراطورية العثمانية. أعلن الإنجليز الحرب على الأتراك فى نوفمبر عام ١٩١٤، وأعلنوا بعدها بشهر الحماية البريطانية على مصر. خلعوا الخديو" عباس الثانى " المعادى لهم، ووضعوا مكانه "حسين كامل" وأعلنوه سلطانا، ثم جروا البلاد إلى حرب ضد الإمبراطورية العثمانية. لم يكن من المقرر أن يدخل المصريون حلبة القتال، لكن جُنِّد فلاحون للدفاع عن قناة السويس، وللذهاب فى حملة إلى فلسطين ضد الأتراك. استُخدمت جمالهم لنقل القوات، صودرت مؤنهم، وارتفعت أسعار ما تبقى من مؤن للشعب. زحف التضخم وانتابت الجماهير حالة من التذمر الغاضب.

* * *

كان جرجس والأعيان الآخرون الذين يرتدون الزى الإنجليزى، ويلبسون الطربوش التركى، ينتمون إلى القوى الإقطاعية، وينتظرون لحظة التحرر من تبعيتهم المزدوجة. وعد الإنجليز بالاستقلال بعد الحرب لكنهم كانوا يحاولون بث الفرقة بين المسلمين والمسيحيين.

أحبط سحر الأقصر تخطيطهم. يعتقد كل هؤلاء الأعيان المحاطون بالمعابد والمدافن الأثرية، على اختلاف جنسياتهم، حتى الأتراك ورؤساء قبائل البدو، أنهم أحفاد الفراعنة، وأن ثراءهم أو نفوذهم ما هو إلا حق طبيعى مكتسب، أقدم من الإسلام وأقدم من المسيحية. النظام الأبدى يدفعهم إلى الصعود فوق قمة هرمية. مشاهد الحياة اليومية التى كانت تكرر الصور المحفورة فى مدينة الموتى فى "طيبة" تؤكد ذلك. أسفل السلم الطبقى، الفلاحون الذين لا يملكون الأراضى الزراعية مكدسون فى بيوت صغيرة من الطوب النيئ، مجهولو الهوية، مثل "الأوشابتى "، هذه التماثيل المدفونة مع أسيادها، هذا الجيش من الخدم المصنوع من الخزف الذى يحيا من جديد لخدمتهم. كانوا يفلحون الأرض بالمحراث الخشبى القديم، يروون الحقول بالشادوف، يكرهون لحم الخنزير النجس، يعزفون بالناى والطبل والأجراس، ويتمسكون بتقاليد الختان. يليهم فى السلم الاجتماعى الكتاب والحرفيون والبائعون، ثم الموظفون وتجار الآثار، ثم يليهم صفوة المجتمع، هؤلاء الأعيان الذين يرتدون الزى الإنجليزى والطربوش التركى، وينتظرون فى شرفة "ونتر بلاس" أو فى فندق "سافوى"، أو فى غرف استقبال جرجس، عودة جنودهم الذين ذهبوا للحرب، ليستعيدوا مواقعهم فوق قمة الهرم، كما فى عصر الفراعنة والنبلاء.

* * *

عقب الحرب، تفككت الإمبراطورية العثمانية. ظل الاحتلال الإنجليزى الذى لم يف بوعوده، يفرق بين المسيحيين والمسلمين؛ ليضمن استمرار الحكم فى وقت السلم. لكن تضافرت جهود المسيحيين والمسلمين لتحقيق مستقبل أفضل. انتشر سحر الأقصر فى كل أرجاء البلاد.

كان جرجس يقول :

- زمان كان الفرعون رمز الوصل بين وجه جبلى ووجه بحرى، كان زى الجصبة الهوائية اللى بتربط الرئتين. اليوم المسيحيين والمسلمين هما رئتين البلد.

اصطدم الوفد المكلف بمطالبة استقلال مصر فى مؤتمر السلام فى باريس برفض الإنجليز. كان الوفد مكونا من مسيحيين ومسلمين وعلى رأسهم "سعد زغلول". والعلم، يرمز للوحدة بين الإسلام والمسيحية: الهلال والصليب، ويحفز الشعب بأكمله. احتلت الجماهير الحاشدة شوارع القاهرة تلوح بعلم الوحدة وهى تصرخ بشعارات معادية ضد الاحتلال. أبحر "سعد زغلول"، شيطان الإنجليز، إلى الصعيد لحشد المواطنين فى الأقاليم. عندئذ، أمر الإنجليز كل ضباط الشرطة بمنعه من الرسو.

- أطلقوا النار عليه إذا لزم الأمر.

" سعد زغلول " فوق باخرته يشبه الفرعون يوم تتويجه. لا يجسر أحد على أن يمسه ؛ فقد أصبح مقدسا. عند اقترابه من الأقصر، نقل ضابط قنا التعليمات الرسمية لجرجس.

– القاهرة تهدد بإرسال قوات مسلحة ومدافع لمن يعصى الأوامر.

تحدى جرجس الأوامر الرسمية.

قال بكبرياء :

– عندى رجالتى.

كان للبيت الكبير فى ذلك الوقت حراس مسلحون بالسياط ورصيف خاص. استعان جرجس برجاله. أمر بوضع بساط أحمر طويل من بابه إلى المرسى. رفع فوق سقف بيته رايات البلاد التى كان يمثلها إسبانيا وبلجيكا وإيطاليا. لم يعد لروسيا القيصرية وجود. استفاد "سعد زغلول" ليلة ما بالحصانة الدبلوماسية.

استُقبل "سعد" فى البيت الكبير كالملك. قابل أعيان المدينة وأكل ونام. فى اليوم التالى، ذهب إلى أعوان وأعيان آخرين.

لكن قبض عليه الإنجليز ونفى فى جزر "سيشل"، هو وزملاؤه مسلمون ومسيحيون. يقال إن "سينوت حنا" باع خاتمه السوليتير لتحاشى الجوع والعطش. فى حين انفجرت مشاعر الشعب بعنف مكبوت منذ أمد بعيد. نزلت النساء المحجبات إلى الشارع وعلى رأسهن زوجة سعد زغلول. كانوا يسمونها "أم المصريين". زادت مكانة المنفيين لم يرغب أحد فى تشكيل حكومة للتفاوض. كاد الشخص الذى جازف بذلك أن يفقد حياته. استقرت الرصاصة الموجهة إليه فى جذع شجرة استُخدم أسلوب القمع الذى ازداد دموية أكثر فأكثر، يمتلك الإنجليز المدافع، ويمتلك الشعب... القباقيب ! لكن المدافع لم تقهر الشعب.

اضطروا إلى إعادة المنفيين للوطن، وأن يتفاوضوا معهم لسنوات طويلة، بدون الوصول إلى تسوية نهائية.

* * *

في يوم ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢، أعلن الإنجليز استقلال البلاد وفرضوا شروطهم، احتفظوا بسيطرتهم على القوات المسلحة والسودان وقناة السويس. كان لابد أن يستمر النضال من أجل الاستقلال .

كانت مصر تجرب الديمقراطية. أصبح السلطان "فؤاد" المستبد ملكًا متواضعًا، ملكًا لنظام ملكي دستوري خاضع لأوامر البرلمان.

الملك فؤاد الذى كان يبحث عن لقب يفتخر به كوريث للرســول، هذه الخلافة التى ادعاها كثيرون، منح جرجس اللقب التركى "بك". فارتدى جرجس فى المناسبات الرسمية بزة تقارب فى روعتها بزة أبيه، مطرزة بالخيوط الذهبية بالقدر نفسه على وجه التقريب، فى الياقة والحزام، وأقل قليلا فوق الصِّدار، بما يكفى ليتميز هو "البك" ابن "الباشا" والده. والأوسمة المعلقة فوق البزة تكاد لا تعد أو تحصى.

زواج جرجس الثانى

فى يوم من الأيام، اتجهت أنظار جرجس نحو "أسيوط" بحثا عن الزواج مرة ثانية. كانت أمنية والدته القلبية تجاه ابنها . فهى ترى أن طمى الأقصر لا يضاهيه سوى طمى أسيوط وحده.

لم يتغير لفظ "أسيوط"، المديرية لأهم ولاية فى مصر، منذ العصور القديمة. كانوا يعبدون هنـــاك ابن آوى الذى يدعى "أوبواوت"؛ أى فاتح الطرق. يعتقد أعيان المدينة أنهم أيضا فاتحو طرق. يعتبرون أنفسهم يسيرون نحو قمة التقدم، بعد تلقيهم العلم على أيدى طائفة بروتستانتية جاءت من أمريكا. ينظرون إلى المستقبل ومع ذلك يتشبثون بجذورهم الأصيلة. فاحتفظوا بالطابع الصعيدى، وهم يتحدثون اللغة الإنجليزية باللهجة الأمريكية بتعطيش الجيم فى أن، مما كان يثير الضحك والسخرية عند الريفيين الآخرين. برر أهالى أسيوط هذه السخرية بقولهم إنهم يضحكون لأنهم فى أعماقهم يغارون منهم.

* * *

كانت مظاهر الزهو ترفرف على منازل أعيان أسيوط التى بنيت بذوق مهندس إيطالى، بخليط من قباب إيونية وكورنثيـــة. بالداخل،

الأثاث متنوع الطرز: "شبنديل"، "الملكة آن"، "نابليون الثالث"، أو طرز عربية بأرائك منخفضة ونافورات بالفسيفساء، وسواتر من الخشب المخروط. كان الاستقبال حافلا فى أسيوط. الخدم بزيهم الرسمى تحت الأمر فى كل ساعات النهار والليل. يقدمون عند الفجر الشاى فى السرير على صوانٍ فضية كبيرة، الوجبات الثلاث ، فى أطقم من الكريستال التشيكوسلوفاكى وأطقم بورسلان "سيفر" مدموغة على موائد تسع ٢٤ مدعوا. الثريات الضخمة تزين بأضوائها حى المدينة الأنيق ليلا و تضفى عليه المرح و البهجة.

* * *

غمر الفرح والدته المسنة عندما اختار عروسه الثانية. ابنة عمدة أسيوط الذى تملك عائلته الأرض منذ أيام "سعيد باشا"، قبل عائلة عبد المسيح بنصف قرن، وكان جده فى عصر"محمد على" يشغل منصباً محترما كملتزم، مكلف بجمع الضرائب لتدخل خزائن الوالى.

يرجح أن جرجس بهر فى المقام الأول باسم العروس واسم والدها أكثر مما بهر بالترف الذى وجده فى أسيوط و بكل أراضى والدها. "وردة بشرى". والأروع من ذلك أنها من ناحية أمها، كانت من عائلة "ويصا" وهو لقب قبطى محور من اسم "بس". كان "بس" النسخة الأخرى لشخصية أسطورية فى اليونان، ورفيق الملك "تحوت"، الذى يستطيع أن يغوى الإلهة القصية ويعيدها إلى الوطن. صدم مظهره القصير المربع الشبق، ذو البطن الممتلئ، والضحك الماجن، الكريم،

القبيح إلى درجة أن يفر من أمامه شياطين الشر، المسيحيين والمسلمين معا فى مصر لأنه فضح نفسه بعضوه الذكورى المتغطرس. كان جرجس يحب أن يروى أحداث اليوم الذى اكتشف فيه "مارييت" أحد هذه التماثيل. سبب تمثال "بس" ضجة كبيرة. جمع العمال بقية السكان الذين تجمعوا فى موكب غاضب، يملأه الفضول. بصق الرجال عليه، فر بعض النوبيين وهم يضحكون. كان القديس القبطى الذى يحمل اسمه المحور إلى "ويصا" أكثر احتشاما. كان جرجس يتخيل المبشر الإنجيلى "مرقس" وهو يعظ المصريين ويعنف التمثال " بس" بقوله :

- ألا تخجل أن تظهر عاريا هكذا ؟ ضع غطاء على جسدك أيها البائس. فارتدى" بس" فجأة ثوبا قدسيا.

لكن جرجس كان يحب "بس" العزيز بعضوه الذكورى المتغطرس، يرمز لقوة الطبيعة المطلقة، ويحرض على حب الأزواج من أجل الحفاظ على تجديد الحياة.

استمع جرجس بدون تركيز إلى التفاصيل التاريخية لوضع عائلة "ويصا" المدنى. كانت قوافلها تسافر عن طريق "درب الأربعين" الصحراوى إلى "كردفان" وتعود محملة بخشب الأبنوس والعاج، وربما- رغم أن لا أحد يجسر على تأكيد المعلومة- بالزنوج العبيد. ثم اشتروا الأرض بعد عائلة "عبد المسيح" بكثير، أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث كان شاب من عائلة " ويصا " يدرس الحقوق واشتهر فى مهنته. اكتفوا بزراعة محصول القطن وحده لخدمة الصناعة الإنجليزية، تاجروا فيه وبنوا بيتا ثانيا فى الإسكندرية ليكونوا على مقربة من بورصة القطن.

كان يرتاد صالون عائلة " ويصا " صفوة المجتمع الراقى. بالتأكيد، سيوسع هذا الزواج دائرة نفوذ عائلة عبد المسيح . مصاهرة ممتازة حقا.

كان تعليق الحكماء فى ذلك الحين :

- سيأتى الحب بعد الزواج.

قرر جرجس، الذى كان لا يزال يحلم بالحب، والذى كان أيضا طموحاً، أن يصدق الحكماء. فوافق على المقابلات العائلية التقليدية من أجل التعارف.

* * *

كانت وردة متعلمة. ذهبت إلى معهد " برسلى التذكارى " الأمريكى، أول معهد للبنات فى المنطقة. لم يوجد من قبل معهد للبنات سوى " مدرسة السنية" فى القاهرة "أم الدنيا". تجيد وردة المزج المتوازن بين الحداثة الغربية والحياء الشرقى. تتحدث الإنجليزية بلهجة صعيدية وتلعب التنس. كانت جميلة ولازال جمالها عالقا فى أذهان من يتذكرونها . ترتدى ملابس أنيقة، تعطر نفسها، تشترى قبعات من "شانيل"، مثل أجنبيات ذلك الزمن. تعتقد سوسن أن عمرها كان نفس عمر الحبيبة الراحلة عند وفاتها. كان الشبه بينهما واضحا. حفر الخزاف نفسه ملامحهما وفى ذهنه نموذج الإلهة فى معبد " حتشبسوت ". اسم واحدة " وردة " والأخرى "زهرة اللوتس ". بالنسبة لجرجس، كانت التجربة الثانية تمثل له عودة الروح.

كان " بشرى " والد وردة يعبد ابنته. لم يكن يريد أن يزوجها لأحد، لكنه لم يستطع أن يرفض شابا من عائلة ممتازة مثل عائلة جرجس.

سمح لجرجس أن يظهر مع وردة فى الصباح التالى للخطوبة التى يطلق عليها باللغة القبطية " جبنيوت ".

لم تكن وردة تضع الخمار.

كان المسلمون يقولون بازدراء " قبطية ". تأثرت أكثر بالتقاليد الغربية السيئة بالذهاب إلى مدرسة أمريكية.

لكن وردة التى كانت ترتدى ثياب " شانيل " الأنيقة على طراز ذلك الوقت، بهرت جرجس. فلينمّ الناس لكن سلوك وردة الأخلاقى فوق الشبهات رغم غياب الخمار. يتفهم الأهالى ازدواجية مشاعر هؤلاء الصعيديات المتفرنجات، المنجذبات نحو حرية الأجانب، ومع ذلك كانوا يخافون عليهن من تقليدهن. حرصوا طوال فترة الخطوبة على أن يرافق الخطيبين بصفة دائمة شقيق أو عم ، أو الاثنان معا فى بعض الأحيان.

* * *

تمتعت وردة بميزة أخرى، فقد قاومت تأثير المبشرين البروتستانتيين. كانت تلميذة فى معهدهم ولكنها شديدة التمسك بقبطيتها وأرثوذكسيتها المنشقة. لا تستسلم للاستعمار التبشيرى. تتمسك بمذهب الطبيعة الواحدة المنشق الذى يدل على روح وطنية متأججة. هؤلاء الأقباط الذين نصَّرهم القديس " مرقس "، كان عليهم أن يتميزوا عن مسيحيى بيزنطة.

كان جرجس يقول لمن يسأل عن مذهب الطبيعة الواحدة المنشق :

– خلينا مسيحنا فرعون اتولد فى مغارة بطبيعة واحدة، إلهية وبشرية، زى فرعون تمام.

قال ذلك بلهجة واثقة. لم يتصور أى مسيحى بآرائه التقليدية، أن يعرب جرجس عن ذلك الاعتقاد !

* * *

تزوج جرجس مرة ثانية حسب التقاليد القبطية فى الكنيسة بجوار المرتل الكفيف الذى كان يستعين بالمثلث والصنجين. التف البخور حول العروسين ورسم أحرفا تشكل كلمات سحرية، لتربطهما بكل زوجين من الأسلاف وبالآلهة أنفسهم. أنشد صبية الشمامسة بأصواتهم الحادة المصاحبة للصنوج عددا لا يحصى من ابتهالات الكرياليسون. بارك القس مرة أخرى الزواج المقدس. لم يعد جرجس ووردة يمثلان "حورس" و "حتحور" بل يرمزان للمسيح والكنيسة. توّجهما القس فارتدى جرجس تاج الملك الرب.

سافروا إلى الأقصر بالقطار. رافقهما أعيان " أسيوط " حتى رصيف المحطة. استقبلهما أعيان الأقصر عند الوصول. مندوبون لعائلات "طيبة"، عمدة المدينة ومدير قنا. يرتدون بزات وأربطة عنق سوداء وقمصان بيضاء وطرابيش حمراء . خمسة صفوف من الأعيان على رصيف محطة الأقصر. كان البيت الكبير مزينا من جديد كأنه ثوب من النجوم السماوية؛ الواجهة المطلة على النيل مغطاة بشرائط وأكاليل مضيئة،

فى كل الطوابق، وفى شرفة غرفة نومهما، تاج عملاق متلألئ كأنه مرصع بالماس، كأنه يقول إن هذه الملكة ستختلف عن الأخريات وسيكون بيتها معبدها. المعبد المجاور، معبد " العام الجديد "، المضاء بنور القمر المبهر، يؤكد أن الزواج هو بداية حياة وطاقة متجددة. غمرت السعادة جرجس كالفيضان.

فيض من الأنوار. كيف كان المكان عند غياب ضوء القمر والكهرباء ؟ قيل حينئذ إن الإلهة ابتعدت عن السماء فاختبأ الناس فى منازلهم خوفا من غول الظلام. ثم عادت الإلهة وأضاءت الليل فرقصوا وغنوا وعزفوا ألحانا على الناى والطبول، والبدر يطل عليهم. القمر إلهة أيضا مثل الفيضان، مثل وردة بشرى، الزهرة والنبأ السعيد.

استقبلت وردة بالأفراح فى بيتها الجديد بالأقصر الشديد القرب من المعبد، حيث كان يتم الزواج المقدس. أطلقت النساء الزغاريد، وارتجت أرض الأقصر من الرقص فى تلك الليلة، حتى مطلع الفجر. سيولد طفل من وردة التى هى أجمل الزهور.

* * *

وردة ، التى كانت تحب الضحك كثيرا ورواية القصص الماجنة انتظرت حتى استقرت فى فراش الزوجية كى تجرؤ أخيراً، وتقول كلمة خارجة. حملت بولد يشبه زهرة اللوتس، يشبه الشمس !

فى قديم الزمان، كانوا يعبدون اللوتس، فكان من الأشكال التى تمثل الإلهة. تتفتح زهرة اللوتس عند ظهور الخيوط الأولى من الفجر

كما لو كانت تلد الشمس من داخلها، وتغلق جسمها ليلا عند الغروب، كما لو كانت تبتلع الضوء، وتحميه حتى اليوم التالى، كى تلده من جديد.

أحبت هذا الابن حبا جما. كان شمسها، شمسها الوحيدة. وهى الوردة، أجمل وردة. شعر الابن من الزواج الأول بمرارة شديدة، لأنه كان شمسا لوردة أخرى ذبلت وماتت. شعرت أخته التى كانت فى سن الزواج وأصغر من ميخائيل بقليل، أن بولادة وردة لهذا الابن، سرقت حب والدها لها أكثر مما سرق الموت أمها. كانت تسكن مع أخيها الطابق الأخير في بيت الأقصر. تعجلت الزواج من شخص تقدم لوردة من قبل، ورفضه والدها لأن شقيقه قد تزوج أخت وردة الكبيرة .

– ما يصحش ناخد مغرفتين من نفس الحلة.

لكن " مارى "، شقيقة ميخائيل، خرجت من قدر آخر ولهذا تختلف عن وردة، الغريبة، الدخيلة. تزوجت الشخص الذى تقدم لوردة ورفضه والدها. وأصبحت وردة فى نظرها وردة مسمومة لا تريد بعد أن تراها.

* * *

فى زفاف وردة، تعرفت شقيقتها على شقيق جرجس، الطويل، الوسيم بشاربه المعقوف مثل الباشوات الأتراك.

قالت " جليلة " :

– عاوزه أتجوزه.

رفض الوالدان وقالا بدورهما :

– ما يصحش ناخد مغرفتين من نفس الحلة.

قالت " جليلة " ثائرة :

- جد جرجس ليه كان عاوز يجوّز اتنين وتلاتين من ولاد العم لبعضهم ؟

أجاب الجد الآخر :

- دا الجهل.

لم تقتنع " جليلة " بهذا المنطق. بكت وأضربت عن الزواج، لن تتزوج غير " منير ". وعدها بالقمر والنجوم والهناء على الأرض.

رضخوا فى النهاية لرغبة " جليلة " فى الزواج من " منير".

عاشا فى بيت مجاور ومشابه للبيت الكبير، ولو أنه يقل بطابق واحد، أثناء شهور الشتاء فقط و فى المواسم. كانا يفضلان الإقامة بقية العام فى القاهرة أو أوروبا.

وردة والأصنام

تربعت وردة على عرش بيت الأقصر كالملكة الإلهة، مما أثار تعجب الأجانب المعتادين على قصص الحرملك.

كانت وردة تجيب بترفع :

- إحنا مسيحيين والزواج عندنا مقدس.

هذا ليس صحيحا تماما. فى الواقع، ليس لذلك علاقة بالمسيحية. تنتمى وردة لشعب عبد منذ الأزل الإلهة، ثم مريم العذراء ثم السيدة زينب ثم السيدة نفيسة... عفوا... لا يجب أن نقول عبادة. فالعبادة لله، أو للمسيح، أو يهوه. لا توجد إلهات.

لكن يجب الاعتراف بأننا لا نجد فى أى بلد إسلامى آخر مثل هذه المشاعر القوية تجاه العذراء أو السيدة نفيسة.

تُعامل بعض النساء من معدن وردة بإجلال. ويحطن بكل روائع الدنيا حرصا عليهن من الابتعاد مثلما ابتعدت من قبل الإلهة القصية منذ قديم الزمان. كانت وردة واحدة من هؤلاء النساء.

تزوجت وردة الرجل الأكثر اقتدارا فى الأقصر.

* * *

يكفى النظر إلى مقر إقامتهما لتصديق ذلك. كما لو كانت أعمال الإزالة حول معبد الأقصر قد نفذت خصيصا لإبراز قيمة هذا البيت. هدمت منازل وقنصليات ومطاعم. فانفرد البيت وسط الطبيعة، وبدا فى الفجر كأنه يحمل شمسا مشرقة فوق قبة كنيسة.

كانوا يسمونه " القصر " أو " البيت الكبير "، " برعا " باللغة المصرية القديمة. الكلمة معناها " فرعون "، وهى تعبير عن الاحترام يقال لصاحب الجلالة الملك، وعندما يشار إلى "حورس "، أو كما كان يشار إلى " الباب العالى " فى الإمبراطورية العثمانية .

كان البيت الكبير فى فترة بهائه، بواجهته " النيو كلاسيكية " الجميلة المطلة على ضفاف النيل، يزين بالأكاليل المتلألئة، ويحيطه معبد "العام الجديد" الذى يبدو كأنه قطعة من حديقته، ويجواره مسجد "أبو الحجاج " كأنه حصنه الصغير، ويشبه حقا إطاراً مرئيا للأسطورة التى يجسدها " حورس" : "الفرعون".

أحس الشعب البسيط بذلك. كان الملاح يخفض شراعه أمام البيت الكبير، وينزل الفلاح من فوق حماره، كأنهما يكرران دعوات القدماء :

– ربنا يحمى البيت الكبير ويديم عليه الخير والعافية.

عندما شاهد الأجانب هذا القصر الجميل من الخارج تأكدوا أنه ملك لعلية القوم ذوى النفوذ. وطلبوا أن يتشرفوا بالزيارة من خلال المعارف، أو تركوا بطاقاتهم بعنوانهم المؤقت فى الفندق، على أمل أن تحظى ألقابهم بالتقدير الكافى، فيتجاسروا بالتعبير عن رغبتهم فى رؤية المجموعة الأثرية التى سمعوا أنها تحتوى على عجائب لا حصر لها.

لم تتوقف زيارات الشخصيات المهمة؛ علماء المصريات وعلماء الآثار، أمراء وأميرات وملوك سابقون. كل الشخصيات التى يحب أن يصورها الصحفيون لإثارة أحلام قرائهم، وقعوا أسماءهم فى دفتر الزيارات المذهب فى بيتهم الفاخر.

* * *

كان هناك جيش من الخدم لمساعدة وردة فى مهامها كربة منزل. يقود هذا الجيش "دهب" النوبى. تعنى كلمة النوبة باللغة المصرية القديمة بلد الذهب. " دهب " القادم من بلاد الذهب كاللؤلؤة النفيسة، تستطيع وردة أن تعتمد عليه تمامًا، يكفى أن تخبره بعدد المدعوين ونوعيتهم فيتولى الباقى ويمارس مهامه. لم يكن مطلوبا من وردة سوى الظهور بجمالها الباهر، وتلقى تحيات الرجال ومجاملات السيدات. بجوارها، كان " دهب " يبدو ملكا مجوسيا، عينان سوداوان، بشرة سوداء، مضاءة بالبياض المحيط بالقرنية، وبلون العمامة، بفخامة التطريز المذهب فوق قفطانه العميق الزرقة بلون البحر. من شدة ولائه وإخلاصه لها، يبدو كأن ذلك الخادم الشاب الجميل، القادم من بلد فقير كان فى الماضى بلاد الذهب، قد ترك كل شىء من أجل وردة، بلده على الجانب الآخر من سد أسوان، وزوجته وأولاده.

يشعر " دهب "، هذا الملك المجوسى المخلوع، بترفع حقيقى ليس فقط تجاه الخدم الآخرين لكن أيضا تجاه سادته، يعرف آداب السلوك على الطريقة الإنجليزية لدرجة أنه كان يحتقر كبار الزوار الذين لا يطبقونها. ويتفاخر بأنه لا ينقصه حسن التهذيب، حتى عندما يقدم الجبن

الذى يكره رائحته. كان ينتقل من المطبخ إلى قاعة الطعام بالصينية ممددة على حافة ذراعيه، كم كانت رائحة جبن " الكممبر " كريهة ! لكنه يقدمه أمام المدعوين كأنه يقدم باقة زهور إلى مائدة الملوك والملكات. وفى العودة يسد أنفه.

تصور " دهب " أنه خبير ماهر فى كل ما يتعلق بأمور المائدة والسُّفرة، لكنه لم يكن يشك أنه شديد الجهل بالأنواع المختلفة من النبيذ. لم يكن يفرق بين نبيذ " بوردو " ونبيذ "برجونيا " ، فيقدم الزجاجة التى يعطيها له جرجس، وعندما يسأله أحد المدعوين :

- إيه ده ؟

كان يجيب بازدراء الخبراء :

- نبيت يا سيدى.

يقدم أيضا بنفس الثقة بالنفس تمثال الزوجين الأثرى الذى اشتراه جرجس فيما مضى مع الأجنبية. حان أوان موت التمثال الذى عاش أربعة آلاف عام ، ويخفف عن سيده بقوله :

- فداك. خد الشر وراح .

هزت وردة كتفيها. ربما ابتسمت فى ذلك اليوم بانشراح. هل أحست بوجود غريمة فى ذلك التمثال ؟

كانت وردة تجد صعوبة فى تفسير عشق الأجانب وعشق زوجها للقطع الأثرية. هل بسبب تأثير المدرسة البروتستانتية الطائفية أم بتأثير

أمها المتدينة ؟ ومع ذلك فمن المؤكد أنها لو كانت من الذين اعتنقوا المسيحية عند بدايتها لما وافقت على تحطيم هذه الأحجار العتيقة كما فعلوا عندئذ. كانت تعتبر الآثار جزءا من تاريخها المجيد، حتى إنها كانت فخورة، بل شديدة الفخر، لاعتقادها بأنها تنحدر من صلب الفراعنة ، ولأنها تنتمى إلى أسرة تاريخية عريقة من " فاتحى الطرق "، وتزوجت الرجل الأكثر نفوذا واقتدارا فى الأقصر.

* * *

تزامنت فترات مجدها الأولى باكتشاف مقبرة " توت عنخ آمون " عام ١٩٢٣ . وسط الكنوز المتراكمة فى حيز جِد صغير، ولد فرعون من زهرة لوتس. وكانت وردة حينئذ أما لولد.

انتظروا وصول الملكة " إليزابث"، ملكة بلجيكا ،لافتتاح المقبرة رسميا. هكذا تحدث الأمور عند علية القوم.

فيما مضى، كتب مرة ابن عم " مارييت " وهو أحد النبلاء :

– سأذهب إلى " وادى الملوك ".

وكان " مارييت " فى انتظار حضور ابن عمه للإعلان عن اكتشافه.

انتظروا إذن الملكة " إليزابث ". هل انفعلت وردة مع جرجس لهذا الاكتشاف العظيم؟ لا نعرف. لكن لا شك أنها فى الطريق إلى " دندرة " فوق باخرة مدير قنا، غمرها شعور بالخلود لا يمكن أن تحس به كمسيحية، و من خلال تراثها الدينى المثقل بقصص الشهداء .

ربما اكتشفت أيضًا ما هو أكثر من الخلود؛ جمالها الخاص. فى المعبد الذى يحتفى بـ" حتحور " الجميلة وزواجها من "حورس" فى دندرة ، وقفت بجوار الملكة " إليزابث " والكونتيسة "كرمان – شيمى "، ترتدى ثوبا بخطوط مستقيمة، نصف طويل، وزهرة على صدرها وعقد من اللؤلؤ، وبيدها منشة، ملابسها من بيت أزياء " شانيل" لكن ملامحها تشبه الإلهة "حتحور ". أما جرجس، فكان فخورا باستقبال عظماء العالم ومعه امرأة بهذا القدر من الجمال وكان يتفجر من شدة السعادة، الاثنان مكللان بهالة من هذا النور الساحر، المنبعث من الصور الموروثة عن الأسلاف العظام.

لدى عودتهم من "دندرة" إلى الأقصر بالباخرة، قرروا إنشاء مؤسسة باسم الملكة "إليزابث ". كان جرجس أول نصير وتبرع بمائة جنيه، ثروة فى ذلك الحين. أبدت سعادتها بأن لها زوجًا قويا وكريمًا. هى، تلك المرأة الراقية التى تنتمى لوطن يتوهج جمالا، فى قلب الدنيا...

* * *

سرعان ما اكتسبا، جرجس ووردة، سلوك الأسلاف. يستقبل هو مدعويه فى صالونه الكبير، المصنوع من خشب الأبنوس والمنقوش بزخارف صينية والمكسو بالحرير الأحمر. كان يجلس على مقعد كبير تحت لوحتين لوالده ووالدته. أحيانا، كانت زوجته الشابة تجلس بجواره على مقعد مشابه، تحت لوحتين أخريين لوالدها " بشرى شنوده " عمدة " أسيوط "، وأمها من عائلة " ويصا ".

إنها اللوحات الأخيرة لمتحف الأسلاف وصرح من اللوحات التى تقلد جداريات "طيبة" القديمة.

* * *

هل كان جرجس ووردة يحبان بعضهما البعض حبا رقيقا أم حسيا أم مشتعلا ؟ سيظل الحياء يلقى ظلاله على الحقيقة.

لم يضبطهما أحد متلبسيْن فى وضع غير لائق. ربما وردة التى أحبت القصص الماجنة قد لعبت عند انفرادها به الدور الماجن المعتاد فى تاريخ البشرية. لكن عندما يباغتهما أحد، يجدون جرجس وهو يتفحص بإعجاب قطعا فنية جديدة اقتناها، بينما تشد وردة خيطا أثناء تطريز لوحة للقديس " جرجس " وهو يصارع التنين. يخيل للمرء أنهما سيصعدان يوم الحساب إلى السماء دون محاكمة. ومع ذلك، كانت تبدو عليهما من وقت لآخر مظاهر الطيش، نظرة خاطفة يلقيها جرجس إلى ردفى وردة المستديرين، أو غمزة عين ماكرة منها عندما تقرأ أفكاره، كأنها تقول له دون كلمات :

- خللى بالك واجعد زين. بيبصولنا.

كانا متحابين بدون أدنى شك.

* * *

لكن منذ أن اكتشفت سوسن تلك الخطابات، كانت واثقة بأن والدها يحتفظ فى أعماق قلبه بركن صغير، كأنه فناء خاص بذكرياته مع الفتاة الأجنبية.

منذ اليوم الذى اشترى معها تمثال الزوجين الأثرى، لم يتوقف عن اقتناء أشكال مختلفة لهذين الزوجين. كان يضع التماثيل أمامه ليتأملها بإعجاب، ويتساءل مع أية زوجة سيظهر أمام الخالق، وهل تعدد الزوجات أبعده عن نموذج الآلهة فى العصور القديمة. توفى حماره واستبدل به آخر ومع ذلك مازال يشعر تجاهه بالوفاء. لكنه لن يتقدم بحماره فى يوم الحساب! ماذا يفعل بثلاث زوجات ؟ أحب كل واحدة منهن، كل واحدة بطريقة خاصة، كل واحدة بعمق، لم يخنهن إلا بحبه للأعمال الفنية التاريخية.

لكن ارتسمت فى مخيلته صورة الفتاة الأجنبية على الأعمال الفنية الماضية وذكريات إعجابهما وحبهما لهذه الأعمال سويا.

* * *

كثيرا ما ينفرد بنفسه فى متحفه الصغير، يزيل الأتربة عن مقتنياته الأثرية ويقرأ الحروف الهيروغليفية، ويتأمل آلهته التى كانت تتضاعف فوق الرفوف المخصصة لها، بجوارها حاشية من تماثيل الأقزام " بس " والكهنة والكاهنات. كان يتفحص تفاصيل كل قطعة فنية؛ شفافيتها، ثنايا الثياب، طول السيقان، دقة الأصابع، وخط تجميل العيون. يمسك واحدة ويرجح بيده خفتها، قد تجده يلامسها، يلعقها. هل كان يحاول أن يخمن عمرها بالوزن والطعم، أم كان يبحث عن مذاق غرامياته المبكرة ؟

* * *

سرعان ما أدرك مهربو آثار المقابر أنهم سيجدون فى البيت الكبير مقتنيا هاويا أكثر كرما من الأجانب وخبيرا ليس له مثيل. باعوا له فى البداية تماثيل الزوجين، ثم الإلهين" بس " والكاهنات والعازفات والراقصات، وحاملات القرابين، ثم كل التحف الموجودة فى عالم الأموات.

لم يستطع أن يتحدث مع وردة عن هذه الأعمال الفنية بنفس الطريقة التى كان يتحدث بها مع الفتاة الأجنبية؛ لأن وردة كانت مسيحية متشددة، لا تستطيع أن تحب هذه الأصنام الوثنية التى ترتسم بجانبها صور الجحيم !

ومع ذلك، لم يمنع هذا جرجس من أن يعبد وردة، إلهته.

* * *

أخذ القديس " جرجس " وهو يصارع التنين حيزًا كبيرًا من وجدان وردة وعلى حوائط غرفة نومها، إذ إنه " مار جرجس " الأقباط. وعلى الأرجح من أجل زوجها، لإبرازه منتصرا انتصارا مجيدا على الشر ، بل انتصارا مضاعفا لأنها طرزت أيضا صورة الملاك "ميخائيل" الذى قتل الشر بنفس القدر من الثقة، سواء كان على هيئة التنين أو الثعبان أو التمساح. عبرت عن احترامها له بوضعه فوق جدران أخرى فى البيت، وتقديمه فى الكنائس القبطية، الأرثوذكسية، وعند اليونانيين الأرثوذكس غير المنشقين أيضا ...

كان جرجس منبهرا بجودة تطـريزها. يأخـذ يدها ليقبلها ويقول لها بحرارة :

– البركة فى صوابعك. لكن ليه بتتعبى عينيكى ؟

ثم يتحدث بلهجة ساخرة ويقول :

– تعرفى ؟ جديسك جرجس ما هو شبه حورس عاد .

فتجيب بمكر :

– ح تروح جهنم حدف .

جهنم لهذا الرجل التقي، بل الأكثر تقوى منها أيضا، الذى كان يصلى ويصوم ويساند الكنيسة بكل مكانته الاجتماعية ؟ لم تعتقد ذلك حقا. بل كانت تطرز صورة المـلاك"ميخائيل "أو القـديس " جرجس " فوق جـواد أبيض لتطرح الشـر صـريعا وتحـمى زوجـها منه بمعـاونة القديس العظيم !

الشـر ؟ تمسـاح، ثعبـان، تنين، ظلام يتـرصـد المؤمن، ذلك العـالم الوثنى الذى لم يعـرف بعـد نور الأناجـيل، الذى كـان يسـعـد زوجـهـا ويشعرها بالغيرة ؟

* * *

كانت أسباب مشاجراتهما تافهة ومؤثرة فى الوقت نفسه، يمثل كل واحد منهمـا دورالشخصية الحسـاسة سريعة التـأثر، كـأنهمـا وردتان مرهفتـان تنغلقان بمجرد اللمس. لا يعرف المرء أبدا من سيتسبب فى

تقطيب وجه الآخر أو إثارة دموعه. إنها على الأرجح تمثيلية مفتعلة ليتذوقا بعدها مباهج التصالح.

ما الفكرة وراء غضبها من تشبيه القديس "جرجس" بـ "حورس" المصريين القدماء ! هل كانت تمثل دور الإلهة القصية كى يغويها الإله "تحوت" وبصحبته الأقزام " بس " ؟

يضبط الأطفال الوالدين فجر الأيام التالية للمشاجرات، وهما متعانقان، كما لو كانا جسدا واحدا.

* * *

يحوم الشر فى قلب كل من يحقد على ثروتهما وأطفالهما. فى قلب أخت وردة المدللة والمغترة، المتزوجة من صهر متأنق.

ظل " منير " شقيق جرجس الوسيم المطارد من النساء فى القاهرة يعبث معهن ويخسر فى لعب القمار ويرهن أراضى العائلة.

كان يقول لجرجس :

– لو كنت انا اللى اتجوزت مراتك كان زمانى بقيت حاجة تانية.

كانت وردة ترد عليه وتقول :

– عمرى ما كنت حاستحملك.

كلما دفع جرجس ديون شقيقه، استدان من جديد.

كانت وردة تقول :

– مـا في شي يكره الناس فـيك أكـثـر من إنك تكون طيب وكـريم معاهم عاد. اتجي شر من أحسنت إليه.

وكانت تضيف :

– يا مار جرجس، احمينا من الشر !

– يا ملاك ميخائيل، ابعد عنه الحسد !

لكن بمجرد أن يغلق جرجس الباب على نفسه مع أصنامه، كانت تتوعده بجهنم مرة أخرى.

* * *

بالعكس، كـان جـرجس يكتـشف في هذه الأصنام مـصـدرا لقـوة سـاحرة وغير منظورة، قوة تفرض الهدنة بين الأخوين العدوين، وتؤدي إلى زواج الآلهة المقدس وإلى تجدد الخلق.

إنه زمن الحلم الأمريكي بنزع السلاح، والرخاء الاقتصادي. إنه زمن الرئيس "وودرو ولسن ".

كـان جـرجس يقـول لوردة إن تماثيل الأزواج، والأقـزام " بس "، والكاهنات العازفات، لديها القدرة على الانتصار على الشر.

لم تكن وردة تفهم ذلك. كانت ترفض أن تفهم، لكنها لم تؤمن حقا بصـحة توعـدها لجرجس بأنه قد يذهب إلى جـهنم. تصـوروا والموقف هكذا، يكفي لكي يكون الأمـر جليا حـين تسـتـمع إليـهـا، بعـد أن كـانت تهـدده باللهيب الأبدي وهي تتـحـدث عنه، وتردد أنه أفـضل وأنبل وأكـرم رجل. مليكها كالأسد !

* * *

لا شك أنها كانت على حق فى الشعور بالغيرة من " سيدة " أخرى عظيمة.

فى ذلك الحين، كانت أنظار العالم بأكمله متجهة نحو الأقصر. يزيلون عن أعمدة معبدها غبار السنين، ويصورون طقوس مولد " أبى الحجاج " لحفظها فى سجلات متحف نيويورك. كشفت عمليات التنقيب عن أسطورة ووجه المرأة الفرعون، "حتشبسوت".

بدأ ذلك فى الشتاء نفسه الذى كشفوا فيه عن كنز "توت عنخ آمون". وجد الفرنسيون أحجارا عديدة لنصب تذكارى لحتشبسوت، حطموه من قبل. كانت تستخدم كحشو لبوابة ضخمة فى الكرنك، يقولون إنها الثالثة من نوعها. تروى الأحجار الأحداث المهمة أثناء حكم المرأة الفرعون. بعد ذلك بقليل، نقب الأمريكيون فى معبد " الدير البحرى "، لحساب متحف "نيويورك " واكتشفوا فى محجر مهجور، ملىء بالوحل بسبب الفيضانات المتعددة، وبالقمامة التى خلفها الفرنسى " " نافيل "، حطام تماثيل تجسد قرين "حتشبسوت" الملكى. بعضها لا يتجاوز عقلة الإصبع، والبعض الآخر يزن أكثر من طن. وجدوا أجزاء من جسدها؛ أذرع، سيقان، ورءوسا كانوا قد حطموها ودفعوا بها إلى الجرف. أحد الرءوس، سليم ومجمل بألوان زاهية، لم يقع من الجرف بل ظل فى الموقع الذى اكتشفوه فيما بعد، الذى يؤدى إلى ممر طويل، نحو مقبرة الرجل الذى أحبته :" سنن موت ".

ظل جرجس لسنوات طويلة يتردد على مخازن علماء الآثار الفرنسيين والأمريكيين، للاطلاع على أحداث هذه الفترة العظيمة من الحكم.

كـان مـفـعـمـا بالعـاطـفـة. اسـتطاع أن يمـسك بيـديه الاثنتـين رأس "حتشبسوت"، وينظر إليها بعيني المحب، ويلمس ذراعيها وساقيها، ويعيد في مخيلته تركيب ملامح سيدة " الدير البحري " العظيمة، جارته على الجانب الآخر من ضفتي النيل. كان يريد أن ينقذ هذه المرأة الفرعون، التي ساهمت في تشكيل مسرح طيبة الكبير، من ورطتها.

فيما بعد، عندما روى لنا عن تلك السنوات السعيدة في هذا القرن، قال لنا إن حلمه حينئذ، ولا يزال حلمه الدائم مثل حلم "حتشبسوت"، أن يجعل من الأقصر بيت الحياة ومعبد الجمال ومبعثا لتجديد الطاقة للزعماء القادمين من جميع أنحاء العالم.

لكن وردة تصورت أن السيدة العظيمة في " الدير البحري" خطفت زوجها نهائيا.

الإلهة التى تحب ابنتها

نتج عن الزواج الثانى خمسة أطفال؛ ولدان وثلاث بنات.

عاشوا أولى مراحل حياتهم فى قلب الأقصر، ذلك الكتاب المرئى البديع. ينتقل الأطفال من صفحة إلى أخرى على حمار، أو قارب أو زورق، وعلى أقدامهم أحيانا . فى السن الذى يهدون فيه للأطفال أوراقا وأقلاما ملونة، علمهم جرجس كيف يرسمون الإلهة فى كل الأشكال التى تتخذها، ليس فقط كبقرة أو لبؤة، ولكن أيضا عندما تتلون فى صورة صل ينفث اللهب لتبديد الظلام، أو على هيئة نسر يلتهم الموتى ليحولهم إلى أجساد حية، أو هيئة امرأة جميلة تبتلع شمسا فى كهولتها لتلدها مرة ثانية طفلة من جديد، وهى تتفتح فجرا فى صورة زهرة اللوتس كى تفسح الطريق لصعود الفجر فى الأفق، وفى شكل شجرة الحياة، تمنح صدرها لفرعون.

علمهم كيف يرسمون الحروف الهيروغليفية لكلمة القرين : ثور بقرنين أو ذراعين ممدودتين إلى أعلى بحركة تعبد. ثم هناك من يعبر بألف شكل عن فلسفة البعث : الطائر "أخ"، "أبو منجل"، البلشون الأبيض الذى يصاحب المتوفى إلى حيث ينبعث الضوء ليبسر له أن يشع

مثل الشمس، الطائر " با "، ذو وجه رجل ولحية تقليدية مستعارة كلحية الفراعنة، الذى يمتلك قدرة لا نهائية على اتخاذ أشكال لا حصر لها.

كان الأطفال يحسون بتحولات الروح أفضل من الكبار. بالنسبة لهم، يستحيل أن يجدوا كتابا أجمل من الكتاب العريض المنبسط أمامهم على جانبى النيل فى الأقصر.

* * *

كان جرجس يعرف كيف يبعث الحياة فى تلك الصور.

– احكى لنا يا بابا. احكى.

حينئذ، كانت "طيبة" بآثارها تتحول إلى مسرح عظيم، تعرض فيه مشاهد من أساطير الآلهة والفراعنة. عندما يتحدث عن " حتشبسوت "، يخاطب البنات بوجه خاص.

– "حتشبسوت" كانت بنت إله وإلهة.

ويشير ناحية جدران المعبد إلى إله الشمس القديم " رع "، إله طيبة، وهو يمارس الحب مع الإلهة – الأم " أحميس ". نعم ! مشهد وقور للغاية. يجلسان بملابس فخمة فوق مقعدين منفصلين، يضعان الساق فوق الساق فى وضع محتشم. اتخذ " رع " شكل الفرعون "تحوتمس الأول " زوج " أحميس ". لكن "أحميس" كانت تعرف أنه " آمون رع " لأن الإله "تحوت" بشرها بذلك، مثلما فعل الملاك " جبريل " فيما بعد عندما بشر مريم العذراء بأنها ستكون أم الإله. فوق جانب آخر من الجدار،

ننتقل إلى المشهد التالى : تذهب "أحميس" إلى الولادة، يقودها إله الخزف "خنوم" وزوجته الضفدعة "حقات". يقوم "خنوم" بتشكيل "حتشبسوت" ثم قرينها بدوره، وتشرف الإلهة" حقات "على الولادة. ثم ترضع البقرةُ "حتحور" " حتشبسوت " وقرينها بالحليب.

كان جرجس يحكى لهم عن " سنن موت "، ليس بوصفه العشيق، لكن المهندس الذى تمكَّن من بناء معبد بهذا القدر من الجمال. ويشير إلى صورته فى الغرف العليا للدير البحرى، المموهة خلف الأبواب. هل لحمايته من الحسد، أو من الألسنة الشريرة، أم ليحتفظ بموقع مميز بجوار الآلهة وبجوار ملكته " حتشبسوت " ؟ وترك جرجس للأطفال أن يقرروا بأنفسهم الإجابة التى تحلو لهم. كانت وجنتا " سنن موت " مشرطتين حتى الأنف كما يتميز بذلك النوبيون. وكان جرجس يلفت أنظارهم للشبه الغريب بينه وبين الخادم " دهب " رغم أنه أقل وسامة. لم يقل لهم وخاصة للبنات، إن " سنن موت " كان مدفونا أسفل المعبد، وأن ممرا يربط مدفنه بالفرعونة ليستأنفا معا ممارسة غرامهما الخفى إلى الأبد. كانت البنات ماكرات وجنيات فوق العادة. من جهة أخرى لم تكن القصة كلها سوى أسطورة. كان جرجس يشعر فى داخله بالحياء تجاه بناته الثلاث. كن يسألن أسئلة محرجة، مثلا، أسئلة من هذا النوع :

– ليه حتشبسوت وجرينها ليهم حاجة كده زى لولاد ؟

لأن " خنوم " خلق عضو تذكير لحتشبسوت ولقرينها. كان جرجس يتبع أسلوب كل الآباء ويقول :

– ح جولكم لكن بعدين لما تكبروا .

كيف يشرح لثلاث بنات ما لم يفهمه هو إلا بالكاد رغم قراءته للنصوص ؟ فرعون مزدوج، أنثى وذكر، يقول إنه " حورس " و"حتحور"، ذكر وأنثى ؟

لكن إلحاح البنات الماكرات لم يتوقف. لابد أن يفكر فى إجابة.

ظن جرجس أن " رمسيس الثانى " قد أضاف عضو التذكير ثانية بعد الإصلاحات التى أدخلها ليقول إن المرأة لا تصلح أن تكون فرعونا. لم يكن يحب " رمسيس الثانى" حتما، ويرى أنه وحش شرس متعطش للحروب. ولولا ولعه بالأحجار الأثرية، لما تحمل حتى السكن قرب البوابة الضخمة لمعبد الأقصر المنقوش على واجهتها قصيدة لبنتاءور، مزينة بصور " لرمسيس الثانى " وهو منتصر ويسحق العدو فى مجزرة بشعة.

كان فى حاجة إلى الإيمان بالمرأة الفرعون وبأمها الإلهة البقرة الجميلة، جميلة مثل الحياة التى تنبثق من الصحراء والعدم. كان حكمهما أعظم حكم، شاع فيه الجمال والرخاء والسلام .

تعلم أطفال جرجس أن يؤمنوا بذلك، قبل أن أكتشف أنا وجود هذا العالم السحرى بكثير.

* * *

لم يبد غريبًا على بنات جرجس اللاتى كن يعشن فى ظل وردة، إلهة الخصوبة الحقة، أن تتخذ أم الإلهة " حتشبسوت " شكل الإلهة البقرة، أو شكل امرأة جميلة بأذنى بقرة.

كانت تتنافس مع وردة أيضا نساء أخريات فى الخصوبة. كانت مدام " مرقس " تقول لوردة :

– شوفى، شوفى، أربع عيال. دنا أجدر أخلف عيل كل سنة !

وكانت مدام جرجس تعلق :

– لكن الست مش أرنبة.

فيتردد صدى صوت مدام " مرقس " :

– و لا هى جطة.

ثم تقولان فى صوت واحد :

– لازم ننظم الخلفة.

كيف كانتا تضعان حدا للإنجاب ؟ بالرضاعة ؟ لا يستغرق الأمر أكثر من عامين، فى حالة الاعتماد على ذلك. ماذا كانتا تفرضان على الزوج لتحديد النسل ؟ لا نستطيع أن نتكهن حتى لو حاولنا .

كان فى استطاعة وردة وصديقاتها المزايدة فى الحوار. على كل حال، كن مثالا مجسدا لما أهدته إليهن الطبيعة، وأنجبن كما لو كانت آلام الولادة جزءا من المتعة، وأدررن اللبن بغزارة.

كانت السيدة " مرقس " تقول :

– لبن بالزوفة زى البجرة.

وتضيف مدام جرجس :

– يرضّع عشر عيال.

– غيرها يا عينى، بيعملولهم عمليات جيصرية ويعالجوهم، وبيتمنوا نجطة لبن طبيعية، لكن فى الآخر ما فيش جدامهم إلا الرضاعة الصناعية.

كانت أولئك النساء المتمتعات بخصوبة ربانية، تشفقن على بقية البشر، هن النماذج العصرية للإلهات اللاتى تلدن الشموس والأقمار، وكل ما يخضر مرة أخرى على وجه الأرض.

* * *

يخيل لسوسن أنها تتذكر شعورها بالامتلاء وهى ترضع من وردة، يتدفق سائل سحرى من صدرها إلى فمها، فتشبع من لبنها، ثم تضع يدها فى فتحة ردائها، وتمص السبابة. وتنظر إليها فى أعماق عينيها وفى أعماق قلبها وجسدها.

لكن لإنجاز هذا العمل الجليل، كانت وردة تختبئ عن الأنظار. مع ذلك، كانت الإلهات موجودات فوق كل جدران المعابد وفى متحف جرجس وهن يُرضعن أطفالهن. لم تكن نساء الشعب تخشين من الإرضاع علانية، كأن الكنيسة والشارع والأرض بأكملها هى معبدهن.

لكن وردة كانت ثرية فأتاحت لنفسها ترف الاحتشام، تختبئ فى غرفتها لإرضاع مولودتها الأخيرة، لم تفعل ذلك مطلقا فى غرف الاستقبال الفاخرة فى الدور الأول. تصعد السلم عند موعد الرضاعة؛ لا ينظر إليها وجها لوجه، ذلك الأسود البندقى الذى يحمل شعلة، حركة من باب الاحتشام كان سيفعلها فى الحقيقة، لو لم يكن تمثالا من الخشب الملون.

كانت تجلس على مهل فوق مقعدها الوثير، فوقها نجفة بلورية من زجاج الموزانو، فى غرفة نومها ذات الطراز القديم المنقوش بأكاليل من زهر "أذن الفأر"، ثم تكشف صدرها محاطة بخادماتها وأطفالها الذين يختبئون تحت ثنايا ردائها، يشعرون جميعا بالغيرة من الرضيعة سوسن، أصغرهم وآخر العنقود.

وردة، البقرة المعبودة التى تطعم بثديها، الشجرة المقدسة التى تمد صدرها، الوردة المانحة للحياة. انتشرت صورتها وتعددت أشكالها فوق جدران المعابد والمدافن؛ وأيضا فى الكنائس : تظهر فى صورة عذراء بسيطة، غامضة العذرية، تشبه تلك الأيقونات التى تملأ غرف نوم الأسر المسيحية : أمام كل أيقونة شعلة القنديل المضاءة ليل نهار؛ للتعبير عن قدسيتها. تسبح فتيلة فى الزيت لتصعد النار نحو الأعالى فى تضرع أبدى للسيدة العذراء.

كيف إذن لا يتميز أطفال وردة عن بقية البشر ؟

* * *

كبرت سوسن، وفطمت. راحت تكبر. أصبحت توقن أن أمها تفضل شقيقها الأكبر عليها، وكان هذا فطامًا جديدًا لها. وسوف تفطم أيضا مرات أخرى يتعذر عدها، حتى يوم وفاة أمها، وحتى بعد وفاة أمها.

لم يخفف عنها اهتمام والدها بها. عندما تتنزه مع جرجس، تنظر إلى الإلهة التى تلقم ثديها لمولود ذكر، وترى السيدة العذراء وهى تحتضن صبيا بين ذراعيها، فتشعر بأن شيئًا سُلب منها. لكنها كانت

تذهب مع والدها إلى الدير البحرى، وتتأمل مشاهد من الأسطورة التى يرويها والدها . كانت ترى حنان البقرة " حتحور " لابنتها "حتشبسوت". تقدم " حتحور " حلمتها للمرأة الفرعون ، وتلعق " حتحور " يد المرأة الفرعون !

لماذا لم تكن هى أيضا المفضلة فى نظر أمها، رغم أن وردة استمتعت بإرضاعها كما لو كانت ولدا . أحست بالنشوة، وجرجس الذى كان يراقبها، كان غيورا . الرجل المسكين مستبعد من هذه العلاقة الحميمة، الغرامية، التى كانت تربطها، ليس فقط بأمها، ولكن بالأرض ذاتها، بالحبل السرى المبتور الذى يرتجف أثناء متعة امتصاص اللبن .

* * *

كان على سوسن أن تتفهم الأمور، لم يكن من المستطاع أن تنافس ابن وردة البكر. ظل طفلها الوحيد طوال أربعة أعوام بأكملها . كان أيضا الحفيد المفضل لدى جده فى أسيوط، استقبله " بشرى شنوده " المتقدم فى السن كأنه الشمس التى أتت من الأقصر، كى يزيح الآخر عن العرش، ابن جرجس من زوجته الأولى.

لكن سوسن لم تكن تريد أن تفهم. كانت تحتاج لحب وردة الكامل التام؛ كى تخرج من البيضة وتتفتح.

* * *

بدون أن تدرى، قلدت سوسن سلوك الصبية. كانت تفكر فى اللاشعور أن ذلك قد يقربها أكثر من قلب أمها .

والدها، الذى لم يكف عن التحدث إليها عن "حتشبسوت"، المرأة التي تجسد حورس ، زاد حبه لها وهى تتقمص شخصية الذكر.

لم ينس أنها ولدت والسبابة فى فمها وأن الخادمة قد دفنت حبلها السرى فى حديقة المنزل.

عندما تلتقى مصر العليا ومصر السفلى

استأجر جرجس منزلا فى القاهرة حينما حان وقت تعليم الأطفال فى المدارس. ألحق الولدين بالمدارس الحكومية والبنات الثلاث بمدرسة الراهبات الداخلية " ميرد ديو ". كلفت راهبات المدرسة فى النصف الثانى من القرن بالتدريس لبنات العائلة المالكة، وكان من بين طالباتهن بنات الأرستقراطية التركية، والعائلات المصرية الكبيرة، المسلمة أو المسيحية، وأثرياء المشرق، وبنات الدبلوماسيين المكلفين بالعمل فى القاهرة. لم ينافسهن أحد فى احتواء مدرستهن لنخبة المجتمع سوى مدرسة الراهبات " الساكر - كير ". لكن أولئك الراهبات لم يكن يقبلن المسلمات. أما مدرسة " الليسيه فرانسيه" فلا يمكن أن توضع فى الاعتبار، إذ إنها تقدم تعليماً علمانيا.

تعلمن فى الأقصر الصلاة مثل الأرثوذكس المنشقين، وفى أسيوط، مثل البروتستانتيين الأمريكان. سوف يتعلمن أيضا الصلاة مثل الكاثوليك، أمام تمثال السيدة العذراء المغطى من الرأس إلى القدمين، الذى تحرص فيه العذراء التى لم يمسها بشر، على عدم كشف صدرها أثناء إرضاع الطفل.

فى ذهن وردة أن هذه الطقوس الكنائسية المختلفة، هى الحماية الحقة لبناتها من سحر ذلك الكتاب المصور المنبسط على جانبى النيل فى الأقصر من أعمال الوثنيين.

في المدارس الحكومية، لم يتعلم الولدان الصلاة وكانت المواد باللغة العربية.

* * *

رفضت البنتان الأكبر سنا، بروح الترابط الذى يميز أعضاء قبيلة واحدة، الذهاب إلى المدرسة بدون سوسن.

و هكذا استقبلت مدرسة الـ " ميرد ديو" بنات جرجس عبد المسيح الثلاث فى وقت واحد. كانت سوسن طريفة بشعرها المجعد ورأسها المستدير. كانت رياضية وتتفوق على زميلاتها الأكبر سنا فى لعبة كرة القدم. كانت واثقة بنفسها، تتخذ القرارات بخفة ظل و بحزم فى آن واحد ، وتشارك فى المناقشات. أثارت البهجة فى الجميع بضحكاتها الصريحة، الخالية من أى خجل مصطنع أو زائف. عيناها السوداوان تجتذبان الضوء أكثر من أعين القطط، وتفجران مشاعر الحنان فى قلوب كل من يحبون النور.

استعرضت الأختان الطفلة أمام زميلاتهن ممسكتين كل واحدة منهما بإحدى يديها، وهما تؤرجحانها وتأخذانها للتنزه معهما.

كان شهر مايو، شهر مريم العذراء.

* * *

وجدت البنات الثلاث أنفسهن محاطات براهبات متشحات بالسواد، كلهن زوجات الإله الذى نزل إلى البشر فى صورة السيد المسيح. لم يكن يعرفن سوى والدتهن فى دور الزوجة، والدة ماكرة ومتأنقة، تستاء وتعنف، ثم يجدنها فى فجر الأيام التالية للمشاجرات، فى حضن والدهن. شاهدن فوق جدران المعابد والمدافن، العابدات السماويات، الزوجات الدنيويات لإله "طيبة "، ممثلات الإلهة. أولئك يرتدين ملابس شفافة، وجلد النسر كغطاء للرأس، تصاحبهن الكاهنات الراقصات، المنشدات العازفات على المزهر والناى والطبول. قيل إنهن يسحرن الإله، ويوقظن حواسه الخاملة كى يشرق من جديد مثل الشمس.

كيف يمكن أن يكن زوجات المسيح ؟

لم يرد أحد على سؤال بنات جرجس الثلاث وتوقف السؤال عن إزعاجهن بعد وهلة قصيرة. تركن أنفسهن للافتتان بهؤلاء الراهبات المرتديات الملابس الصارمة، باللون الأسود من الرأس إلى القدمين، ماعدا الوشاح المنشى الأبيض. تعلمن أن يلاحظن الفرق بين الراهبات الأمهات والراهبات الأخوات حسب درجة التأهل، وشكل الوشاح وغطاء الرأس. ومع ذلك، كن جميعا زوجات للمسيح.

* * *

أمضين وقتا سعيدا فى المدرسة الداخلية، رغم ما وجدن من صعوبة فى التأقلم عند البداية.

منعت زوجات المسيح هؤلاء الأخوات الثلاث القادمات من الأقصر، من التحدث باللغة العربية. لم يكن يتحدثن اللغة الفرنسية، والذى تجاوز الحد فى عدم الانضباط، هو نطقهن اللغة العربية باللهجة الصعيدية. انتشر النبأ بمجرد أن تجرأن على التفوه باللغة الإنجليزية، بين ألسنة الناس من فم إلى فم، من أولياء الأمور إلى الأطفال. انتقلت ، فى كل أرجاء المدرسة الدعابات البلهاء حول لهجة أهل أسيوط الذين تعلموا فى مدارس الأمريكان البروتستانت.

كانت تلميذات جميع الفصول، " الكبيرات "و" الصغيرات "، حتى اللاتى ارتدين النياشين الرائعة المعلقة بشرائط لامعة من الحرير المتموج لحسن السير والسلوك، يذهبن لسماع الحديث باللغة العربية أو الإنجليزية باللهجة الصعيدية، وينفجرن فى الضحك بصوت مرتفع. خاصة حين تتحدث سوسن الأكثر طرافة بين البنات الثلاث.

كانت الأخوات الثلاث يعدن إلى البيت دامعات، ويروين بالتفصيل سخرية التلميذات منهن.

كانت وردة تقول بشيء من الاحتقار:

– كلهم " بزرميط ".

* * *

لا يعرف أحد أصل كلمة " بزرميط "، لا توجد الكلمة فى أى قاموس بأى لغة فى العالم. يستخدم هذا التعبير كسبة؛ "بزرميط" : الناس الذين ليس لهم جذور محددة فى أى مكان، خليط مهجن. إجمالا،

فى نظر أهل الصعيد، كل سكان الدلتا، الجاليات الأجنبية فى القاهرة والإسكندرية، وكل من يعيشون فى مصر، وليسوا مرتبطين ولو بصورة غامضة بقدماء "طيبة" و"منف". وضعت محظورات على الزواج لتفادى الوقوع فى حالة "البزرميط ". ممنوع الزواج من شخص " بزرميط ". يعتبر كل من يتجرأ على خرق المحظورات خائنا لأسلافه، ويضع نفسه على رأس قائمة طويلة من أجيال " بزرميط ".

كان محظورا على جرجس أن يتزوج الأجنبية. كانت هى أيضا "أصيلة النسب" على الأرجح، لكن زواجهما كان سيجعل منهما ومن أطفالهما " بزرميط ".

مثلا قيل عن " جرتى " المسكينة، التى غامرت ولعبت التنس مع شاب إنجليزى فأحبته وتزوجته، إنها " بزرميط " وكانوا يسمونها "جرتى القذرة" !

لذلك اكتسبت أجيال عبد المسيح الصغيرة شعورا بالنبالة. كانوا من الصعيد، لهم جذور قوية تمتد فى الطين، مع أنهم امتلكوا هذه الأطيان منذ وقت قصير. نخبة النخبة، من رقعة زراعية محلية رفيعة مكونة من أطيان أسيوط والأقصر. يندر الشك فى أن تكون جذورهم "بزرميط" مثل أهل مصر السفلى حيث تلتقى شعوب جاءت من بلاد إسلامية أخرى. لا يمكن أن يتخيلوا أن هناك جذورا أفضل من جذورهم.

كانت اللهجة الصعيدية هى العلامة الرفيعة، والطقوس القبطية، الأرثوذكسية والمنشقة، هى البرهان.

* * *

علمت فيما بعد ماذا قالت وردة لبناتها بخصوص لهجتهن.

- ما ترموش اللآلئ للخنازير.

احتفظت الأخوات الثلاث فيما بينهن بلهجة الصعيد، التى تغنى مع الشمس والقمر والنجوم. وتحدثن خلسة مع المصريات المسلمات والمسيحيات الأخريات بلهجة مصر السفلى الرتيبة. لم تنبس ببنت شفة عن أى شىء يتعلق بالأقصر.

فى يوم من الأيام، التحقت بالمدرسة مهرجة أخرى. كانت سمراء، شعرها مجعد، بذيل صغير وسط الرأس ملموم بشريط، وبشرة صعيدية سمراء. كانت تتحدث بالفرنسية بلثغة الراء، وبالعربية كذلك. قمة الكوميديا. وليس لها حتى لهجة صعيدية.

سخرت الأخوات الثلاث، أخواتى الثلاث اللاتى أتحدث عنهن، منى مثلما سخروا منهن من قبل.

بعد ذلك، بزمن طويل، عندما لمحتهن يتحدثن باللهجة الصعيدية مع بعضهن بعضا، قسنا معا المسافة الطويلة التى اجتزناها منذ أيام الطفولة.

الأحجار الأثرية وقارئة الطالع

كانت وردة تقيم وحدها فى القاهرة، بينما يظل جرجس فى الأقصر، ويبقى بها فى الشهور الحارة أيضا بينما تستمتع الأسرة كلها بالهواء على شواطئ الإسكندرية. تصادفت الإجازات الصيفية أحيانا وضرورة البقاء للعمل الشاق فى الحقول. كان جرجس يراقب دودة القطن وحصاده وبيعه. وردة وأولادها يتبعون التقويم الغربى. أما هو فيتبع التقويم الزراعى القديم، قدم مصر ذاتها. الهواء النقى على الشواطئ لوردة وأولادها. وله، التعرض لضربات الشمس.

كانت الفصول تنقضى، فصول مصر القديمة وكذلك التقويم القبطى والزراعى.

فصل الفيضان : توت، بابه، هاتور، كيهك.

الفصل الذى تظهر فيه الأرض بعد انحسار المياه : طوبة، أمشير، برمهات، برمودة.

فصل الإلهة القصية : بشنس، بئونة، أبيب، مسرى.

مسرى : الشهر الذى يظل الناس فيه على ضفاف النهر يحتفلون بوفائه، لأن النيل كان يعود ويتزوج الفيضان المتدفق، المتنكر فى هيئة

"عـروس" من الشـمـع الملون. لماذا لم تكن وردة تذهب إلى الأقـصـر مع أولادها بدلا من البقاء على شواطئ الإسكندرية، بعيدة إلى هذا الحد عن تلك الاحتفالات ؟

كانت احتفالات رأس السنة تعود في سبتمبر، النيروز. فيأكلون بلحا أحمـر وبلحا آخـر أسـمـر، ويتذوقون الجـوافة المعطـرة، ذات اللون الذهبي.

لماذا لم يحتفل جرجس بالنيروز مع أسرته ؟ خاصة أنه فصل الفيضان، وإمكانية الحصول على الراحة المستحقة بالفعل، حيث يبدأ العمل من جديد في شهر هاتور.

" هاتور يذهب إلى الحقول ويبذر البذور ".

" برمهات، يذهب إلى الحقول ويجني المحصول ".

لكن بين هاتور وبرمهات، لماذا لم يسترح ؟

لماذا لم يكن بجوار وردة أثناء زعابيب أمشير " التي لا يتحملها إلا الحمير "... أو أثناء صقيع طوبة " الذي يجعل العجوز جثة والفتاة الشابة قشة"... أو في اليوم التالي للحصاد، عندما "يفلق بؤونة الحجر"، أو بعد الفيضان، في كيهك عندما يحتفلون بالزواج المقدس بين الإله والإلهة ؟

* * *

فى القاهرة، كان الأخ الأكبر يمارس طغيانه. لم ترفع وردة حتى إصبعها الصغير فى وجه ابنها لمنعه من ذلك، فقد كان بالنسبة إليها كالشمس للزهرة. أمرت أبناءها الآخرين بطاعته، فهو يحل محل الأب فى غيابه. أما هو، فكان دائما يأمر بنقيض ما تتمناه الأخوات الثلاث وما يتمناه الأخ الصغير، عندما يقررون الذهاب نحو الشرق، يقرر الذهاب نحو الغرب. كانت الأسرة بأكملها تتجه نحو الغرب، لكن لو عاد يقرر لهم الذهاب نحو الشرق، تتجه الأسرة بأكملها نحو الشرق. عندما يتفقون على لون السماء، يختلف هو معهم. وكان دائما يعتبر على حق. كانت وردة تفرض ذلك، فيستسلمون لجميع تقلباته. هذه رغبة وردة. لم يكن جرجس حاضرا أبدا للقضاء على طغيانه.

* * *

ثم كان شهر ديسمبر يجىء على ظهر جواد فى التقويم الجريجورى بين هاتور وكيهك، فتسافر الأسرة إلى الأقصر. انتظار يوم السفر غير محتمل، الدقائق والثوانى كثيرة ويصعب قتلها، يتزايد عددها كلما اقترب الموعد المحدد كأنها تتكاثر إلى الأبد. عمليات الضرب والجمع والطرح، تحتوى الحسبة الواحدة منها على أرقام مهولة.

مرة، مرة واحدة فقط، ذهبت وردة لتأخذ بناتها من المدرسة بشكل مفاجئ، قبل الموعد المحدد. جاءت والسيارة محملة بالحقائب وحلويات العيد، مرتدية زيا كأنه الربيع، ياقة " كلودين " جيبور، وحذاء أسود نصف " بوت "، قبعة من القش من إيطاليا مكورة من أعلى، وحذاء بسيطًا من الجوخ سادة بدون زخارف، يحتل الورد الأزرق المختلط

بخضرة أوراقه خلفية الثوب الأبيض. كأنها تبشر التلميذات وهن فى زيهن الشتوى الموحد بشمس الأقصر الساطعة.

ذهبت أخواتى الثلاث للاحتفال بتجدد اللقاء بين وردة بشرى وجرجس ميخائيل.

* * *

كن يتعلمن فى الأقصر قراءة الخطوط الهيروغليفية مع والدهن، وينسين كل ما يدرسن فى المدرسة. التفكير المنهجى العقلانى والروح العلمية.

مثلا، إن الشمس ثابتة.

بل بالعكس ! فى الأقصر، تدور الشمس حول المنزل وتدور الأسرة حول الشمس، من شرفة إلى شرفة، من ناحية إلى ناحية أخرى فى السطح، للتمتع بدفئها أثناء البرودة، وتلافيها فى الأوقات الحارة.

مثلا، إن الشمس هى دائما كما هى وتحمل الاسم ذاته.

بل بالعكس ! فى الأقصر، يشيخ الإله الشمس كل يوم فى المساء، ويدخل مدينة الأموات، منحنيا من كثرة الإرهاق ويولد فى الفجر، إله شمس آخر. تتوالى دون انقطاع تبدلات الشمس فى أشكال عدة : جدْى فى المساء، جُعران فى الصباح، وأسد ثم قط كبير ثم عنقاء أثناء عبور ساعات الظلام الاثنى عشر. اسمه " رع " أو " أتون " أو " حورس " وكان اسمه يتحد مع "آمون"، إله طيبة المختبئ. تزوج إلهة وكانت أمها إلهة فأنجبت طفلتها إلهة أيضا....

كان القمر يتحول إلى الصل الذى ينفث اللهب ليضىء الظلام ويقتل العفاريت، ويتحول إلى " تحوت " فى هيئة أبى منجل الذى يحمل الشمس فى منقاره، كأنه زورق يسير عبر الليل.

كن تغرقن فى متاهة تحولات الشمس والقمر.

كن تغرقن فى متاهة الكلمات.

كان الأب يقول :

– دى كلمات سحرية.

ويقول أيضا :

– علشان يغرى الإلهة، عشان يغرى الحياة. "تحوت" كان بيحب الإلهة.

* * *

وفى البيت الكبير، تستقبلهن الحياة بشمسها . الشمس ! كانت تدخل عبر زجاج القبة الملون بأشعتها الحمراء والزرقاء والصفراء والفيروزية، وتكون بالنسبة لهن هرما مقلوبًا، فى قلب البيت الكبير.

* * *

فى الأقصر، كن تلعبن فى الهواء الطلق وفى الماء، وتتحدين دوامات النيل الخطرة، وتتزلجن على الماء، وتصطدن وتركبن المراكب الشراعية. فى الأقصر، تشعرن برياح الحرية. كان والدهن يحميهن من طغيان الأخ الكبير، ويجذبهن إلى عالم ساحر.

* * *

. . في الليالي التي تقام فيها حفلات، كن تختبئن وراء حواجز درابزين الدرج، وتلعبن تحت القبة المضيئة في الليل بأضواء تشبه ألوان قوس قزح. ترقبن والدهن ووالدتهن وهما يستقبلان المدعوين حسب أصول الضيافة، يتشاوران حول مجرى الأمور، يشعران كل ضيف بالراحة، يتقابلان ويفترقان ويتقابلان مرة أخرى وينفجران في الضحك، وجهان مشرقان يثيران حولهما القهقهات. كان المدعوون يمرون هم أيضا عبر تيجان الأعمدة الإيونية نحو غرفة الطعام أو نحو المكتب الذي يحتوي على متحف جرجس. كانت الأخوات الثلاث تنسجن روايات حول الضيوف. كن تشرن إلى رجل ممتلئ وتتخيلن أهمية مركزه، وإلى السيدة التي كانت تلاطفه من أجل أهميته هذه، وتكاد تقع بسبب ذيل ثوبها الطويل، وتشرن إلى الصحفي الذي يلاحق النجمة، والنجمة التي تلاحق الصحفي؛ وتنتقدن هندام المصريين غير المرتب الذين يتحدثون بصوت مرتفع مصحوب بإشارات الأيدي الكثيرة، وتشرن إلى أناقة الإنجليز، الذين بدلوا البزة الكاكي، والقبعة البيضاوية، والمنظار المكبر، وارتدوا البزة " السموكن " وربطة العنق القصيرة على هيئة الفراش، ونظارة بلا ماسكتين، يتحدثون بصوت منخفض، للابتعاد عن سوقية المصريين. تشفق البنات أيضا على الفتاة المسكينة التي كانت تتأمل جمال الأثاث كي تخفي شعورها بالوحدة، وعلى الشاب الخجول الذي يحاول الاختلاط بالآخرين. وتراهن أن السيدة الممتلئة التي تقبل فتاة مرشحة للزواج بابنها في فمها كي تتأكد من حسن رائحته. كن أيضا تنسجن قصص حب و تدبير المؤامرات . كانت البنات تحكمن على الضيوف من عل، كأنهن الإله الأب، وهن مختبئات وراء درابزين الدرج الكبير الذي يؤدي

إلى ثلاثة طوابق، حتى القبة ذات الزجاج الملون الذى كان يضفى عليهن ألوان قوس قزح. وكن تضحكن وتضحكن كأن الحياة عبارة عن ضحكة كبيرة مدوية وامتدادا لضحكات جرجس ووردة.

* * *

اكتشفت البنات يوما ما فى الأقصر أحد أسرار الحياة وأحد أسباب خصوبة والدتهن.

كان يوجد فى متحف والدهن دولاب يثير اهتمامهن ؛ لأنه دائما مغلق بمفتاح ولا يراه سوى الضيوف الرجال بعد تناول الطعام. فى ليلة ما، فى غياب الأبوين والأولاد، بحثن فى المتحف ووجدن المفتاح وفتحن الدولاب، وماذا رأين ؟ العضو الذكورى العملاق للإله "هربوقراط - حورس " الطفل، المحمول من الأقزام " بس "، وحوله تماثيل صغيرة لا تزيد عن حجم نصف الإصبع، تشكل وحدها مشهدا مضحكا، أقزام يمسكون عضوهم الذكورى كأنه رمز مرح للقوة، ويضعونه فوق الكتف، حول الرقبة أو الرأس، كذيل ثعلب جميل. يبدو أحدهم كأنه يختبئ من عضوه العملاق، والبعض الآخر يختفى تماما فى أعضاء ذكورية تحولت إلى ثعابين كبيرة، أو إلى ضفادع أو إلى أسماك مملحة. رأت البنات أيضا أعضاء ذكورية عملاقة دون رأس رجل، أحدهم يخترق ثدى امرأة، وآخر ممدد فوقها، كأنه يجسد تهديدا كالمدفع أو كأنها مداعبة الحب.

حملقت البنات فى هذه المجموعة التى أثارت اهتمامهن، وأغلقن الدولاب ثم وضعن المفتاح فى مخبئه كما كان.

بعد ذلك، كلما رأين فى الحقول عضو حمار مستثار، أو فى جدران المعابد، عـضـو إله الخصوبة، " مين "، يقهقهن ويتذكـرن ما شاهدنه فى الدولاب.

أزال الإخوة المسيحيون بالمطرقة عضو " مين " من كل مكان، لكن آثار الطرق حفظت الخطوط بدقة. وعندما نزعوه من التماثيل نتج عنه ثقب غير لائق.

لم تكن البنات تتوقفن عن الضحك.

* * *

لماذا يمثل الحمار الموت بدلا من الحياة ؟

كان السـؤال موجها من البنـات إلى جـرجس الذى كان يبتسم ولا يجيب على السؤال. طرح هو أيضا يوما ما السؤال نفسه.

سيجيب يوما ما بمنتهى الجدية أن الحياة تحتاج للموت لكى تولد من جديد، وأنهما مرتبطان ارتباطا وثيقا مثل الرجل والمرأة. كان ذلك يزيد قهقهة أخواتى الماكرات، و هو يؤكد كلماته بابتسامة جميلة هازئة حليمة حنون.

كانت الإجازات تنتهى وتعدن إلى المدرسة فى القاهرة للدراسة، وتنتظرن بفارغ الصبر إجازات أيام الأقصر، وجمع شمل جرجس ووردة مرة أخرى.

فى القاهرة، يصعب عليهن الضحك بنفس الروح المنطلقة.

* * *

كانت وردة تنتظر قدوم جرجس الذى لا يجيء ويجعلها تنتظر. فيؤثر ذلك على مزاجها وتفقد صبرها مع الأطفال، وتوبخهم على أمور تافهة.

فتتحول القاهرة إلى منفى. اكتشفت سوسن مخرجا لهذا المنفى: "الخيال".

كان كتاب الأقصر المصور العريض يتجسد فى أحلام سوسن ويلاحقها، فترى وردة وقد تحولت إلى لبؤة غاضبة مختبئة عندها، أو تتخيل فى أحلامها وردة وجرجس وهما يبحران عند الجسر العائم الذى يقود إلى البيت مباشرة، فينزعان قناعيهما ويرقدان معا على نفس الفراش، هو عار تماما كالإلهين " بس " تحت ناظريها، وتضحك وردة وتضحك لأنه يجعلها تفعل أشياء لا تروى للأطفال. وكان يهمس :

– يا وردة، يا وردة بشرى، أنت زهرة. أنت بشره زى الفيضان.

ثم يضيف :

– باحبك يا وردة. ضمينى فى حضنك يا وردة.

– باحبك يا وردة !

فتسكت هى، ولكنها تحتضنه بذراعيها.

* * *

كانت قارئة الطالع التى ترى المستقبل من خلال الأصداف تقول لوردة إن لها منافسة خطيرة.

- جولى لى مين هى وأنا أعمل لها عمل وأخلصك من شرها .

قالت لها وردة مرة :

- اسمها الجطن.

-إذا كانت هى دى اتمنيلها الصحة والسعادة.

كان مستحيلا أن تلقى قارئة الطالع أذى السحر على القطن الذى يصدر للإنجليز ويمثل بالنسبة لها مصدرا للرزق. كانت تطلب من وردة أن تبحث عن منافسة أكثر خطورة. فتتذكر وردة الأحجار الأثرية التى تعلم أطفالها الوثنية، والتى تنتزع زوجها منها. كان جرجس يأمل، مثل سكان مدينة الموتى الذين ظلوا هناك ، أن يقوم باكتشافات عظيمة، ويرقب في الصحراء آثار عالم مغمور، تعلم منه أن التراب يجف أسرع فى الأماكن القديمة كوسيلة للحماية. فكان ينتظر انحسار مياه النهر، أو يخرج فجرا، قبل أن يتبخر ندى الصباح، وينزع نفسه أحيانا من ذراعى زوجته، ثم يعود مبهورا، ساهيا، لا يلتفت حتى إلى وردته.

تذكرت وردة بمرارة أيام الفجر هذه، الخالية من الحب. عندما كان يتأخر فى شهر أغسطس، كانت تتصور أنه مازال ينتظر جفاف النيل وظهور معبد " فيلة "، أو أى آثار سجلت فيها أجزاء من تاريخ "حتشبسوت"، وكانت تشك أنه يفضل الجسد الحجرى لامرأة أخرى عظيمة على جسدها الحى.

* * *

كانت قـارئة الطالع قد قـالت لـوردة إن غريمتـها أكثر خـطـورة من القطن.

– جولى لى مين هى وانا أعمل لها عمل وأخلصك من شرها !

فأجابت وردة :

– اسمها حجارة الآثار.

لم تفـهم قارئة الطالع. لكنـها ألقت أذى السـحـر على كل الأحـجـار الأثرية التى لم تكن تحبها على كل الأحوال، والتى تجلب الشؤم.

من الحرب العالمية إلى الحرب المحدودة

شعر جرجس أنه سرق عندما ذهبت تماثيل " حتشبسوت " إلى نيويورك. "حتشبسوت" التى كان يحب ملامسة أيديها ورءوسها وأذرعها وسيقانها، وحتى أدق ذرات أجسادها.

كان رحيلها نذيرا بالأيام الصعبة للكساد الاقتصادى القادم وباقتراب الحرب العالمية الثانية، ونهاية الحلم الأمريكى.

* * *

شهدت مصر فى تلك الفترة تتويج الملك الشاب " فاروق "، كان وسيما ودرس فى أفضل المدارس الإنجليزية. تحلم به كل الفتيات الشابات وكل الفتيات الصغيرات. أراد أن يتحرر من سطوة الإنجليز، أعلن عن تعاطفه مع أعدائهم الإيطاليين والألمان، فقرر الإنجليز، كما فعلوا فى الحرب العالمية الأولى، أن يضعفوا سلطة حاكم يتحداهم. فى هذه المرة، ادعوا أنهم يدافعون عن الديمقراطية ضد الدكتاتورية الفاشية عند أعدائهم، ففرضوا على الملك بقوة السلاح جيل الوفديين الجديد بعد جيل ١٩١٩ ، مما أفقد الوفد هالته الثورية فى الوقت نفسه. وبدأ حكم الإنجليز وسيطرتهم على القناة والجيش... وكبر الملك الشاب وترهل، ولم يعد حلم الفتيات الشابات بل أثار الرعب فى قلوبهن.

لم تتأثر مصر بالحرب العالمية الثانية إذا استثنينا بضع غارات جوية ، لم تسفر عن خسائر خطيرة، واحتلال محدود تم صده سريعا فى معركة العلمين، و مؤامرة للانضمام إلى أعداء الإنجليز تم السيطرة عليها. أحست البلاد أكثر بحرب الإذاعات، أصوات آتية من هتلر وموسولينى، وأصوات الحلفاء، مما أدى إلى استقطاب الرأى العام، البعض ضد، والبعض مع... لكن إيقاع الحياة استمر كما هو فى الهواء الطلق بينما كان الظلام والموت يجتاحان العالم على الجانب الآخر من البحر.

فى الأقصر، حل العسكريون محل علماء الآثار، أفواج من الكتائب جاءت للشمس والملذات والرقص والحب. الحب بكل تصميم الذين يواجهون الموت فى أية لحظة، المستعدون لتجاهل كينونة زوجاتهم المهجورات، والغوص فى هذه المغامرات ربما للمرة الأخيرة. أصبح هؤلاء العسكريون بزيهم الجميل كل حلم الفتيات الشابات، كن تتحدين نواهى التربية المحافظة المتشددة وتذهبن للرقص، ولو صح الافتراض، ربما خضن قصة حب عظيمة كتلك التى تروى على شاشات السينما ! أما الفتيان، فانبهروا بالنساء العسكريات الجويات والبحريات. كم كن مدهشات، نساء البحرية بزيهن الأسود، بتنوراتهن القصيرة وستراتهن الأنيقة، وقبعاتهن المثلثة القرون التى تشبه قبعات جيوش "بونابرت"! قيل إنهن من الطبقات الإنجليزية العليا. ثم ظهرت الأمريكيات كأنهن خرجن فجأة من شاشات أفلام "هوليود"....

* * *

لم تكن أخواتى الثلاث فى سن يسمح لهن بالتجاسر والتحدى. لم تشعر سوسن برعشة الحب فى أحلامها إلا قرب نهاية الحرب العالمية الثانية.

ربما كانت فى الثانية عشرة من العمر عندما جاء قس إلى الدير للوعظ، مرتديا ثوبا من النسيج الأبيض، بمناسبة الاعتكاف لكل الفصول لمدة ثلاثة أيام. كان يقول :

- الرب هو الحب.

كان يقول :

- الرب هو الأب والأم.

كانت التلميذات تتأملن كلماته فى صمت الاعتكاف طوال الثلاثة أيام الطويلة. المسيحيات فقط لأن المسلمات بقين فى الفصل. بينما جمح خيال المعتكفات.

* * *

كان القس بزيه المنسوج باللون الأبيض يجمع الكشافات حول النار فى ليالى "كفر تيخ". مازال يتحدث عن الحب. الحب شعلة. حاولت الكشافات أن تتخيلن وجه الحب.

بالنسبة لأخواتى الثلاث، لم يكن الحب يرتدى زيا عسكريا، بل كان. مكسوا بصور وكلمات مستعارة من كتاب الأقصر الكبير. كان يشبه

جرجس ووردة وهما متعانقان، يشبه نظرة جرجس وهو يتأمل التحف الأثرية...

شهدن شجن جرجس عندما رحلت إلى" نيويورك " أذرع وسيقان وحتى أدق ذرات جسد " حتشبسوت ". فصبغ الشجن وجه الحب.

* * *

كانت أخواتي الثلاث تتمتعن بأصوات جميلة، وتغنين في كورال الكنيسة قداس موسيقى باخ وموزارت وبوتشيني. كانت سوسن تصاحب الراهبة " سانت أنييسى " في مقطوعات الغناء المنفرد.

تتذكر سوسن حلما تصلي فيه ليل نهار مصحوبة بالموسيقى، ومعها الراهبة " سانت أنييسى "، التي كانت تغني بصوت حريري ناعم ملائكي. لم ترتد ثوبها الأسود ووشاحها بل ثوبًا شفافًا كالذي يوجد على جدران المدافن. شعرها منساب يتموج ويطير حولها وهي ترقص، محاطة بالكاهنات يعزفن على الناي و يقرعن الطبول كي تشرق الشمس .

* * *

كن تتمتعن بحريّات غير معتادة في ذلك الوقت. طبعا استبعدت تماما فكرة الاختلاط بعسكريين يعدون مجهولي الهوية بالمقارنة ببنات كريمات النسب مثلهن. لكن جاء إلى الأقصر عدد كبير من الشبان المصاحبين لأهاليهم أثناء العطلة للاحتفال بعيد الميلاد، تجمع حولهن كل شتاء عالم صغير، وبدأن سلسلة من الصداقات تكونت أولى حلقاتها أثناء حفلات الاستقبال في البيت الكبير.

لم ترقصن فى القاهرة، فى الأقصر فقط فى ليالى عيد الميلاد.

* * *

لا يجب أن نسخر من مشاكل هذا الجيل الذى كان يحلم بالحب. كان مهما بالنسبة لبنات جرجس عبد المسيح - على سبيل المثال - البحث عن الوضع السليم أثناء رقص التانجو. كن تفكرن فى ذلك قبلها بشهور وهن تنتظرن هذا الحدث الكبير.

كن تسألن.

كانت الراهبة " مارى دكروسيفكس " التى كانت سيدة مجتمع قبل دخولها إلى الدير قد نصحت بالآتى :

- الإيد تكون دايما فوق كتف الشاب علشان تقدروا تبعدوه لو قرب زيادة عن اللزوم أثناء الرقص .

- طب نعمل إيه لو حب يبوسنا ؟

أرّق هذا السؤال بعض التلميذات وأخذن مشورة القس.

فكر القس طويلا ثم أجاب :

- مافيهاش حاجة.

ثم فكر مرة أخرى.

- بس تكون قبلة سريعة.

* * *

رقصت البنات تحت الأنظار القلقة لشقيقهن الكبير، المتحفز لهدم نواة أى حلم عاطفى، وتصور الشر أو العار قبل حدوثه، وتحت الأنظار الشاردة للشقيق الآخر، لكن متبعات بعناية نصائح الراهبة " مارى دكروسيفكس" ونصائح القس. رقصن التانجو والفالس بوضع أيديهن فوق كتف المرافق لإبعاده لو اقترب، والوجه متصلب خوفا من ملامسة وجنة أو شفة. فبالنسبة لهن، نصيحة القس تبيح حرية تفوق الحد و قد تنتشر الأقاويل المغرضة و تؤثر على سمعتهن.

* * *

فى الجانب الآخر من البحر، لم يتوقف القتال. كانت نهاية العالم، كأن الحياة والحب أصبحا من الممنوعات. نزل الحلفاء يوما ما فى "نورماندى" فى فرنسا. ثم قذف الأمريكان القنابل الذرية فوق مدن "نجازاكى" و "هيروشيما" فى اليابان. انتصر الحلفاء. تصاعُد البشاعة أنهى بشاعة الحرب.

* * *

بعد ويلات الحرب، دبت الحياة وبصيص من النور فى الجانب الآخر من البحر. استأنف الشباب الدراسة فى الخارج. تحرير المرأة أدى إلى سفر الفتيات الشابات أيضا. انتشر النور أكثر فأكثر فى الجانب الآخر من البحر. أحيت الأمم المتحدة أملا دفينا فى نظام عالمى جديد.

فإذا بمنطقة الشرق، حيث تشرق الشمس، تسلل إليها الظلام والحرب. قامت أولى الحروب المحدودة لإقامة دولة إسرائيل، أدت إلى الهزيمة بسبب بيع أسلحة فاسدة إلى جنود الملك. ارتدت الطلقات وعادت لتقتل من يطلقها. لكن من قام بتلك الصفقة ؟ كانت أصابع الاتهام موجهة إلى لواء فى الجيش وإلى الملك.

ماذا حدث للملك الشاب الذى تقدم فى السن ؟ لم يعد يسعد بشىء. الحرب العالمية أضفت عليه صفة الملك الدمية، والحرب الصغيرة كانت الضربة القاضية.

كان يقول :

– لن يتبقى في الأرض سوى الملوك فى لعبة الورق، البستونى، والسباتى والدينارى والقلب، وملوك إنجلترا.

لكن لماذا الحرب لشعب يكره الحرب، لا يريدها، ولا يعرف كيف يخوضها ؟!

شتاء ما قبل الثورة

أصبح جرجس فى ذروة نجاحه ويحمل لقب باشا. تكاثرت النياشين والخيوط الذهبية والزينات فى الاحتفالات الرسمية. ابنه ميخائيل، شمس زواجه الأول، أصبح مديرا للقسم الخارجى فى القصر، واكتسب نفس لقب والده. واحتلت صورته مكانها فى متحف الأسلاف. أما شمس زواجه الثانى، فهو يبشر باتباع خطى شقيقه فى السلك الدبلوماسى.

ساد حينئذ الوهم باستطاعة تحقيق إصلاحات ضرورية لتنمية البلاد. كانت سيدات الجيل القديم المتحررات تشتركن فى مشاريع الإصلاح، وتحافظن على القيم الأخلاقية وتسخطن من السلوك المعيب، وتطالبن بثورة ملائمة.

* * *

فى ذلك الشتاء، امتدت موجة غضب إلى جانب موجة السخط. كان الشبان الذين يذهبون للدراسة فى أوروبا وأمريكا يتزوجون من أجنبيات.

قررت سيدات المجتمع المسيحى ضبط النظام فى الطائفة القبطية. أقمن مآدب عشاء رسمية، حفلات كبيرة، حفلات فى الهواء الطلق،

. حفلات خيرية، حفلات رقص، بنيّة التعارف بين الشباب وخلق فرص للزواج. توددن إلى جرجس بصفة خاصة. كانت السيدات القبطيات تخترن لشمسيه أجمل الفتيات، الأكثر أناقة وتأثرا بالثقافة الغربية. وكانت السيدات اللاتى أنجبن أبناء، تعتمدن على قضاء الشتاء فى الأقصر لانتزاع البنات من الباشا.

* * *

لم تتعد وسائل السفر إلى الأقصر القطار أو السيارة. ثم ينسون وجود وسائل النقل هذه ويفضلون استخدام العربات التى تجرها الخيول أو القوارب العتيقة. حظى الزوار المميزون النادرون بإمكانية استخدام القارب الآلى الخاص بجرجس عبد المسيح. لم يكن يوجد مطار، فقط طائرة الملك التى كانت تهبط فوق طوف كبير وسط النهر أمام فندق "ونتر بلاس" وتختفى.

جاءت أفواج من كل الدروب البشرية، المولعون بالفن والمتاجرون به؛ أعيان مصريون، وقناصل وسفراء أجانب، وأدباء مختلفون، ونصابون أيضا ممن ارتدوا قناعا وجيها ومنحوا لأنفسهم أسماء رنانة. لم تكن هناك بعد عروض للصوت والضوء. الفنادق قليلة. للأثرياء، "ونتر بلاس" وللأقل ثراء " الأقصر" وفندق " سافوى "، المشروع العائلى لأسرة عبد المسيح . فى حقول الأقصر ، لا أثر لثورة الفلاحين القادمة ، عاشوا فى وهم استطاعة إيقاف الزمن والاستمرار فى إيقاع حياتهم إلى الأبد.

* * *

في ذلك الشتاء، تدافع الزائرون إلى مدخل البيت الكبير بمناسبة مشروع زواج بنت جرجس البكر. أسرع جمع كبير من الشبان فى طلب يد الثانية، والتفكير فى الثالثة. كلهن فى منتهى الجمال. " بسمة " المخطوبة النحيفة الرشيقة مثل الإلهة " سلكيت " التى تحمى مدفن "توت عنخ آمون ". " فردوس " المتفتحة مثل أمها وردة. " سوسن "، الملفوفة القوام مثل القمر، معطاءة مثل تدفق الفيضان فى أراض أصابها الجفاف.

سوسن. يكفي استحضار وجهها فى الخيال كى ينشرح القلب : أسنان ناصعة البياض، ابتسامة مشرقة، عيون وهاجة ، حيوية ونشاط.

لعبت شقيقتاها من الآن دور سيدات مجتمع، أما هى فمازالت تشارك ألعاب شقيقها الثاني، تمرن جسدها على مقاومة الماء والهواء، تذهب للصيد، تدير شراع القارب، ترسم على وجهها تعبيرات الجدية، مثل رجل يحسن الكلام و اتخاذ القرار والتصرف السليم والإدارة الرشيدة.

لن نجد أسماء المتقدمين للزواج فى ذلك الموسم مدونة فى قائمة دفتر الزيارات المذهب لجرجس ووردة. لكن تبقت صورة، يرجع تاريخها للأيام الأولى فى تلك الإجازة العذبة فى " ونتر بلاس "، فى سهرة عيد الميلاد. على مائدة الشرف : جرجس وبناته الثلاث وولداه، دبلوماسيان بولنديان، و مدام " مرقس" ، سيدة المجتمع القبطية مع ابنتها ليلى وسيت، الأمريكى الجنسية، المولع بمصر والمصريات فى العصور القديمة وبالمصريات المعاصرات اللاتى تشبهنهن.

في تلك الصورة، الكل يرتدى طواقى العيد تغطيها قصاصات من الورق الملون، والكل يقهقه.

جلست على المائدة المجاورة التى لم تكن مائدة شرف، سيدات من الأرستقراطية التركية العليا.

* * *

فى ذلك الشتاء، نبت فى قلب سيدة المجتمع القبطية، مدام "مرقس"، نواة مشروع : أن تزوج ابنيها بابنتى جرجس المتبقيات. كان ابنها البكر ضابطا لامعا فى الجيش المصرى، والأصغر سنا طبيب له مستقبل يدرس فى الخارج، فاتن حقا، كما كانت تقول عنه لمن يريد أن يصغى إليها.

استقبلها باشا الأقصر بحرارة خاصة، مما جعل مدام مرقس تنمى نواة مشروعها الذى ازدهر فى قلبها، و تتصور أنها مدينة لابنيها بحفاوة هذا الاستقبال. لم يكن يستطيع أحد أن يغير رأيها. فى الواقع، كان جرجس يقدر والدها وحتى زوجها الذى يرجع أصله من منطقة الإلهة الضفدعة "حقات"، والإله الخزاف " خنوم "، والإله القمر " تحوت "، وآباء وأمهات الشمس. يجب الاعتراف بأن جرجس كان أسيرا لسحر هذه السيدة القبطية اللطيفة.

* * *

كان " سيت " عالم الآثار الشاب يقوم برسم النقوش فى معبد الأقصر. يسكن على ضفاف النيل فى "الكرنك"، فى مقر معهد الدراسات

الشرقية المعروف بـ " شيكاجو هاوس "، لأنه يتبع جامعة شيكاجو. فى طريقه إلى معبد الأقصر، كان يمر أمام البيت الكبير ويعجب به، ويحاول التعرف على سكانه. رأته سوسن وهو معلق فوق " السقالة "، يرسم كاهنة بعشق شديد. كان مفتونا بالعازفات والراقصات والمنشدات، كل تلك الجوقة النسائية التى ترقص وتعزف على الناى والطبول، تماما كما كان جرجس مولعا بها. كان يبدو وهو يعمل أمام سوسن، التى كانت ترقبه، فخورا بجمال جسد عار ملفوف بالكاد بثوب شفاف.

كان يقول لها:

– لم تكن أولئك الوصيفات من أصول متواضعة لكن من أرقى طبقات المجتمع، وأحيانا أميرات من الأسرة المالكة.

طالما كانت سوسن ابنة باشا الأقصر، كان يمكن أن تكون من كاهنات آمون. لماذا كانت مقيدة بملابس لا معنى لها، مغطاة من الأقدام إلى الرأس، بينما كانت عيناها تبدوان كأنهما تنبثقان من تلك الصور التى يرسمها ؟ هل هو تأثير راهبات وزوجات الرب فى العصور المسيحية ؟

ابتسمت سوسن.

رأته مرة ثانية بعد الظهر فى " شيكاجو هاوس " بجوار شجرة عيد الميلاد. تناولت شايا إنجليزيا وذاقت بسكوتا أمريكيا لذيذا بزبد الفول السودانى، وقطعة حلوى بالموز لذيذة. كانت له طريقة خاصة فى وضع يده على كتف سوسن، والعبث بأصابعه المتوترة فوق ذراعها، والطواف بعينيه حول شفتى سوسن، فوق عنق سوسن الطويل، موحيا بآلاف

القبلات الملتهبة، المتوترة مثل حركة أصابعه. شهد جميع الحاضرين فى " شيكاجو هاوس " بجمال عينيها اللتين يعتقد أنهما اقتلعتا من وجوه كاهنات " آمون" و "مين ". قال إنه سيتحقق من ذلك بنفسه ويذهب ليرى إذا كانت قد سرقتها من مدفن " رعموزه " فى وادى النبلاء.

وعدته بأنها ستقدمه لوالدها، لكن بدون أن يتعلق بأى أمل. قالت له إنه من الأسهل عليه أن يذهب إلى متحف القاهرة لسرقة كاهنة جميلة من العصور القديمة ، أو إلى مدفن "نخت" فى الأقصر لملامسة راقصة مصرية، أو يأخذ معه إلى هناك، فى الولايات المتحدة، عازفة الناى أو الإلهة "حتحور"، على أن يحصل على قبلة منها أو يمسك يدها. قالت له ، على انفراد، ألا يفكر فى الزواج أو العشق الحر، وأن يعلم علم اليقين أنه فى أزمنة هذه السيدات الساحرات بثيابهن الشفافة، يحرص الآباء بشدة وعنف وكذلك الإخوة وأبناء الأعمام، بل وحتى الأمهات – على حماية الفتيات والدفاع عن شرفهن.

فى ليلة ما، جلس "سيت" لتناول العشاء عند جرجس باشا عبد المسيح. كان مبهورا وقال لنفسه إنه مكسب أن يتزوج من ابنة رجل ثرى وكريم، عاشق للإلهات والكاهنات الجميلات.

* * *

انبهرت أعين مدام " مرقس " أيضا عندما دخلت البيت الكبير فى الأقصر. وقفت أمام الأعمدة ذات التيجان الإيونية، تشعر بالدوار من ارتفاع قبته. بدت الأضواء القريبة من أقواس قزح و كأنها تعزف لها ، هى وحدها، قطعة موسيقية ساحرة.

* * *

وجد "سيت" نفسه على المائدة بجوار سوسن. قال لها إن عينيها تشبهان الإلهة "حتحور" المنحوتة فوق أعمدة معبد " حتشبسوت ". ورسم وجهها بدقة اليد المدربة على رسم الخطوط الهيروغليفية. أضاف إليها أذنى بقرة ومصلصلة. كانت " حتحور " تحب الموسيقى وكانت إلهة المرح، مثل سوسن.

* * *

كانت مدام مرقس تعبر عن إعجابها بالمائدة المزينة بثراء، وبالأكواب الزجاجية، والنجف الكريستال، والأطقم الفضية المدموغة، والخدم بزيهم المزركش بالذهب، وقفازاتهم البيضاء. كانت تقول لابنتها إنه بنفس ثراء منزل أبيها، وحفلات القصر فيما مضى. كانت تروى أدق تفاصيل ذكرياتها، نفس ذكريات صديقة طفولتها، سيدة المجتمع التركية.

- فاكرة يا " بطة " ؟

- فاكرة يا " مينى " ؟

- فاكرين حفلات القصر ؟ والأغوات اللى كانوا بيمشوا ويانا، بلبسهم اللى يهوس وجوانتياتهم البيضة. منتهى الأدب والذوق.

* * *

لاحظت سوسن البريق فى عينى العمة " مينى " وخمنت نواياها فى الزواج. تخيلت ابنها الذى لن يتحدث معها بنفس لغة الشاب الأمريكى. لكنه سيضع فى الاعتبار ثروة الوالد وشرف الابنة.

كانت سوسن تنفر من الزيجات التقليدية من خلال اختيار الأهل والأصدقاء ، وتثير استياء أسرتها كلما رفضت ذلك. ما كان يجب على العمة " مينى " اللطيفة الساحرة أن تغذى أطماعها الخبيثة.

* * *

كان جرجس يستمع إلى سيدة المجتمع القبطية وإلى سيدة المجتمع التركية وهما تتحدثان عن الماضى. ويشجعهن على الاستمرار فى الحوار. بدون شك، كان يريد أن يظهر مستواهما أمام ضيوفه، ويقول لهم إن التى تجلس على يمينه والتى تجلس على يساره، سيدتان ذاتا شأن. سمح لهما بالدخول إلى الحريم تحت حراسة الغلمان عند سادة البلاد.

* * *

قالت سوسن فى حوار صامت :

قولى لى يا عمتى " مينى "، كيف مازلت تتذكرين بكل هذا الانفعال صورة الغلمان الخصيان ؟ لم يكن عصر الحريم والخصيان عصرا جميلا. عجبا ! حتى وردة نفسها لا تستوعب ذلك، وتنظر إليك كأنك تتحدثين عن عالم آخر. فقد تلقت تعليمها فى مدرسة مبشرين أمريكيين فى أسيوط. أنصتى إليها. إنها تتحدث عن احتفال مدرستها بمرور ٧٥ عاما على تأسيسها. كان ذلك فى عام ١٩٤٥، العام نفسه الذى توفى فيه "روزفلت". تبتسمين وأنت تسمعينها بسخرية. لكنها تعاملت مع رجال يتحدثون الإنجليزية بلهجة ليست صعيدية. وابنة العم "جرتى" لعبت التنس مع مستر " ماك لين ". أنت أيضا لقبتها " بجرتى القذرة ".

لم يكن فى استطاعتك تصور امرأة عارية السيقان، تلعب مع سيد اسمه " ماك لين "، أنت التى لم تتعاملى، خارج نطاق رجال أسرتك، سوى مع الخصيان. ماذا يكون رد فعلك لو غازلت الشاب " سيت " ؟

تجرأ "سيت" وخشيت سوسن نظرة العمة " مينى ". لكن كانت مدام " مرقس " منشغلة بإعجابها بفن الرسم، تحسد من يجيده، لأنها كما تقول كان فى استطاعتها أن تجيده أيضا، لو أتيحت لها فرصة تعلمه.

قالت إن ابنها موهوب فى الرسم وإنه دون شك سرق مواهبها.

* * *

كان اليوم التالى يوم الأحد. ذهب ضيوف الأمس فى الصباح، لحضور القداس القبطى، ثم أخذوا قاربا للفسحة. تمدد " سيت " على ظهره كى يرى الشمس فى السماء بوضوح ، والإلهة التى تحيط بأعمدة المعبد. طلب من سوسن أن تتمدد بجواره. قالت لنفسها :

" هو ببساطة لا يدرى ماذا يفعل. هل يريد أن يشير إلينا الجميع، هو عالم الآثار، وأنا ابنة الباشا ؟ هنا، أى حركة تثير الأقاويل. خاصة العمة " مينى " التى تلتهمنى بنظراتها ! "

كان القارب يتمايل بجوار الأسماك الصغيرة التى تقفز من المياه حولهم وعصافير الجنة التى ضلت طريقها إلى الأرض.

كان "سيت" سعيدا. ربما تقبل " فردوس ". لكن كانت "فردوس" أكثر حساسية لنظرات الآخرين. حاولت أن تعيده إلى رشده :

– انت مجنون. عاوز الناس يشاوروا علينا . وكل واحد يجول للتانى شوفنا بنت الباشا فى المركب مع خواجة حليوة.

فيردد بسخرية :

– شوفوا، بنت الباشا بنت الحسب والنسب شفناها مع راجل غريب دينه غير ديننا، بيعبد إله حجر .

كانت سوسن وفردوس تضحكان ضحكات مكتومة، لا تشعران بالراحة وتتساءلان كيف تفكر العمة " مينى " فيهما. لاحظ " سيت " ارتباكهما وحاول إغراء " ليلى "، ابنة مدام مرقس. لكن " بشرى "، ابن جرجس الأصغر كان يغازل ليلى، فيمزح الجميع ويسمونه مجنون ليلى !

ذهبت زوجة الملحق الثقافى البولندى لتتمدد بجوار " سيت ". لم يسعد " سيت " بذلك فعبر عن انزعاجه بإيماءة. ضحكت مدام "مرقس" أكثر من بنات الباشا بصوت مرتفع والخبث فى عينيها. لماذا يرتابان فى مدام " مرقس " ؟ لأن ابنيها فى سن الزواج ؟

لم يكن الارتياب من نظرتها الخبيثة التى تفرض الرقابة عليهما. بل لهذا الصوت الخفى الذى لا يسمعه إلا سوسن وفردوس وحدهما، الذى يقول لكل واحدة منهما :

"البولندية حرة فى تصرفاتها. أما أنا المصرية، ابنة باشا الأقصر، فلست حرة. هناك تصرفات غير مسموح بها، قد تثير الأخ الأكبر وتؤدى إلى فضيحة. لا يجب إعطاء الفرصة لحدوث ذلك علنا".

قرر " سيت " أن يهاجم مدام " مرقس " ذاتها :

– انت ازاى تبقى شباب كده ؟

أجابت :

– ده سر من أسرار الفراعنة.

* * *

فى موعد تناول الشاى، أبدى رغبته لوردة فى الانضمام إلى أسرتهم. ابتسمت وردة. فاعتبرها إشارة موافقة لاحتضان سوسن من خصرها. تخلصت منه فورا. هل نسى أن ليس هناك أسوأ من الفلاحين والخدم فى نقل الأخبار من بيت إلى بيت، ومن سيد إلى سيد؟

* * *

حكى باشا الأقصر لـ "سيت" كيف ولدت سوسن والسبابة فى فمها، وأن الخادمة دفنت حبلها السرى تحت البيت الكبير، ويظن بوجود صلة بين " حتشبسوت " وسوسن، وتجمعهما رابطة عبر العصور. إلى جانب التشابه العجيب بينها وبين الإلهة " حتحور ". كان الباشا يضحك. كان الباشا يحلم.

* * *

وأخبر" سيت " سوسن عن عشيق " حتشبسوت "، مهندسها المعمارى، " سنن موت " الذى يؤدى قبره إلى قبر الملكة عبر ممرات تحت الأرض، كى يلتقى قريناهما فى حيوات أبدية، ويتحدا معا فى حضن الغرام. وقال لها كم يتمنى أن يكون مهندسها المعمارى.

ألم يعلم أن سوسن لم تكن من تلك البنات اللاتى تجلبن العار على أسرهن بالاستسلام لشهوات الغرام ؟

قال البولنديون إنهم سيقومون بحفريات واسعة المدى للتحقق من قصة حب "حتشبسوت" و " سنن موت " .

* * *

أبحروا بالقارب ليلا إلى جزيرة الموز. أخذت سوسن الأكورديون لتستعين به كحاجز بينها وبين "سيت " لو حدث وانتشى من منظر الغروب .

طفا عطر الحب. رسم "سيت" فى خياله كاهنات جميلات وإلهات. عطر الحب، فليكن. بدون تفاصيل تاريخية ، بدون مؤامرات. تنتمى أسطورة " حتشبسوت " و "سنن موت " للرومانسيين والأدباء.

تأكدت العمة " مينى " التى كانت تراقبهما من طرف العين أنهما فتيات محترمات. تحدثت إلى كل واحدة منهما على حدة. وأسرت لهما أن لها ابنين أكثر جاذبية من هذا الشاب الأمريكى. قالت لهما إن وردة عجنتهما بالعسل والمسك، وإنها لا ترى عروسين لولديها أفضل وأجمل منهما .

* * *

تنزهوا طوال الأسبوع. لم يرافقهم " سيت " . كان يعمل معلقا فوق "سقالة"، يحلم بالمصريات الجميلات، فى هذا العالم من الصور التى كان يجيد رسمها، وفى جميلات البيت الكبير على ضفاف النيل.

كان يستقبل البنات الثلاث بحفاوة عند زيارتهن له، ويتحدث عن حماقة الرجال والسماح للسائحين بأن يلمسوا كاهنات العصور الماضية، وتلويثهن بدخان سجائرهم ورائحتهم الكريهة، وعدم السماح لأمريكى صادق أن يسرق قبلة من فتاة مصرية جميلة على قيد الحياة.

لم تكن الأخوات الثلاث تأخذن كلامه على محمل الجد. فكان يدعى الاستسلام، فيعاود النظر بإعجاب إلى منحنيات الأجسام الرقيقة التى نقلها من المعبد، متمنيا أن يحضن جسدا مصريا نابضا بالحياة.

* * *

حكى جرجس باشا لمدام "مرقس" أساطير الآلهة والإلهات. انبهرت العمة " مينى " بالبقرة المقدسة، وبالملكة التى تجرأت وصعدت إلى مرتبة فرعون. قال لها إن " حتشبسوت " كانت تسمى نفسها أحيانا "حورس" وأحيانا " حتحور "، وإن هذه المسألة أرقته كثيرا، لكن وجد لها أخيرا تبريراً : لأن الفرعون يمثل القوة الإلهية والألوهية فهى إله وإلهة فى آن واحد. وحكى لها جرجس أيضا فى السر عن أحلامه عندما ولدت سوسن، والسبابة فى فمها، وعندما دفنت الخادمة الحبل السرى للطفلة تحت البيت.

حكى كيف أراد التاريخ أن يمحو ذكرى " حتشبسوت " من وعى الرجال. فكتب " تحوتمس الثالث " اسمه بدلا منها، ومسح رمسيس اسمها من قائمة الملوك. وأزالا صورها ونصبها.

ثم أضاف :

- لكن جـدرتها على العـودة للحياة كانت فـوج الوصـف. لها ٤١ قـرين.

استغرقت مدام " مرقس " فى عالمها الساحر. سيجد ابنها الذى يبشر بمستقبل باهر مثيلته لو استطاع فقط أن يقاوم المغريات فى الخارج. وتخيلت زواجا مقدسا بين إله وإلهة لذلك الابن العزيز.

قالت لباشا الأقصر :

- أنا متأكدة إن ابنى مش من الصنف اللى يجابل أى خواجايه ينهبل عليها ويجلنا بيها. هو عارف جيمة بناتنا اللى ما ليهم زى.

* * *

يجب ألا نسىء الفهم. كانت العـمـة " مينى " تحب الأجانب جدا. فى ذلك الشتاء، أخذت حتى على عاتقها أن تعرف البولنديين على الحياة اليومية المصرية. رافقتهم داخل المدينة المكدسة بمنازل أقل فخامة من البيوت التى على ضفاف النيل، حيث يعمل الباعة والحرفيون. عرفتهم على التوابل المستخدمة فى المطبخ المصرى. الزعتر، والكمون، والكزبرة، والقرفة، وورق اللورى، والمستكه، والحبهان، والزنجبيل، والنعناع، والفلفل الحار والفلفل الأسود. شرحت لهم محتويات الأكياس الضخمة الملفوفة من الفهوات كأنها شفاه غليظة : الكركديه، والحنة، والحلبة، والخروب، والتمر هندى، والعرق سوس. عرفتهم على اللوف الخشن الذى يستخدم فى الاستحمام، وفواكه أشجار النخل، والدوم، وطعام النوبيين اليابس مثل الخشب اللين، وعلى السقّاء الذى يضع المياه فى " قربة " مصنوعة من

جلد الماعز، والكوَّاء الذى يستخدم مكواة القدم، والخبَّاز الذى يغذى النار بخليط من القش والروث الجاف، وباعة الفول المتجولين بالقدر. "قزقز" البولنديون بعض البذور وفول السودانى، وأكلوا الذرة المشوية على الفحم. وتجاذبوا أطراف الحديث مع الفلاحة المسنة التى كانت تشوى كيزانا أخرى من الذرة، والتى كانت تعانى عيناها من كثرة التعرض للدخان. ثم عادوا بعربة تجرها الخيول عن طريق المناطق الريفية. شاهدوا حول الأكواخ، والدجاج يكاكى، والحمام الطائر، والأرانب التى تختفى تحت الأرض، وفى الحقول، كيف تنمو البذور وكيف تلد الأبقار. مثل الصور على جدران المعابد تماماً.

* * *

فى ذلك الشتاء، كانوا يستعدون لزواج آخر، زواج شقيق " غادة "، خادمة عائلة عبد المسيح، التى كانت قد دفنت حبل سوسن السرى. كانوا ينتظرون ظهور البدر لإقامة مراسم الزواج. كانت العروس قد وصلت وأهلها من " إسنا " بالفعل. كانت أسرة " غادة " تسكن فى البر الغربى، فى منزل متواضع من الطوب النيئ المطلى بالجير. استقبلت "غادة" ضيف عائلة عبد المسيح بكل الحفاوة الواجبة مع الأجنبى الذى قضى يومه فى وادى الملوك. سمح أيضا للرجال أن يصوروا العروس المراهقة التى لا يستطيع عريسها أن يراها بعد. جلس الضيوف على "عنجريب" يشبه رغم مظهره المتواضع، أسرَّة كنز" توت عنخ آمون"، بحصيره المشدود على إطار من الخشب، وتناولوا الشاى الصعيدى الأسود المسكر، وخبزاً شمسيا، خُبز بحرارة أشعة الشمس.

انزعج الضيوف من رائحة البقرة التى كانت تحتل قلب البيت. فنقلوا "العنجريب " عند الساحة أمام المنزل، أثناء الغروب. تجولوا فى مزارع القصب حتى وصلوا إلى ضفاف النيل. صوروا الأطفال الذين يستحمون، والنساء اللاتى تغسلن الثياب فى هذه المياه المباركة، والتى تجلب الحياة وتجلب الأمراض. ابتسموا للأطفال المبهورين بثرائهم ونعمهم التى تنعكس فى مظهرهم .

عادوا فى تلك الليلة التى اكتمل فيها البدر إلى بيت الخادمة لمشاهدة الفرح. كانت العروس جالسة كالملكة على " العنجريب "، قطعة الأساس الوحيدة فى هذا المسكن المتواضع، بعد أن قامت البلانة بنتفها وغسل جسمها وتزيينها . أحاط بالعروس أطفال ونساء ترتدين ثيابا سوداء. وبعد أن وقع العريس عقد القران مع صهره ، كان مطلوبا منه أن يمارس الجنس مع فتاة لم يرها من قبل فى نفس الليلة. حتى تحين هذه اللحظة كان يحتفل مع الرجال. يدخن الحشيش ويرقص مع الرجال رقصة التحطيب، ويشاهد معهم الراقصة الشرقية التى تهز جسدها بإيحاءات جنسية.

حتما لم يكن فى وعيه عندما أحضروا العروس إلى مسكنه. هل رآها حتى فى ليلة الفرح هذه ؟ لم يدخل التيار الكهربائى فى بيته بعد. لم يجد القمر نافذة لإضاءة فراشه وإضاءة هذا الوجه المجهول. لكن كيف يرى وجهها حتى لو كان ظاهرا وهو فى نشوة الحشيش ؟

الأجانب الجالسون على مائدة الرجال، والأجنبيات الجالسات على مائدة النساء، المعزولون عن بعضهم بعضًا، كأنهم قلعتان تفضلان شن

الحرب بدلا من الحب والسلام، لم يتخيلوا ذلك المشهد و هم يزورون المعابد ، وهم يتأملون جدرانها التى تصور الحياة اليومية. بل بالعكس، شاهدوا الأزواج يحتضنون بعضهم بعضًا وينظرون أمامهم نحو الحياة الأبدية.

سألت البولندية إن كان هؤلاء الفلاحون قد ورثوا بعض العادات والتقاليد الإسبرطية؛ ينام الرجال مع نسائهم فى الظلام، ولا يختلطون معهن فى وضح النهار، بل يقضون الوقت مع الرجال.

* * *

فى ذلك الشتاء، تزوجت " بسمة " يوم ٨ يناير، بعد عيد الميلاد القبطى بيوم. لا يتزوج الأقباط وهم فى فترة الصوم. اكتظت الأقصر بالأصدقاء والأقارب الذين أتوا من القاهرة وأسيوط والمنيا والإسكندرية.

تلألأ البيت الكبير مرة أخرى بزينات الأفراح وامتلأت الواجهة بأكملها بالأكاليل المضيئة. ظهرت العروس بثوبها الدانتيل الأبيض وغلالة من قماش شفاف على وجهها، ممسكة بذراع والدها، الذى ارتدى لباسا رسميا أسود وقميصا أبيض منشى، فخورا بأن له ابنة على هذا القدر من الجمال، ووراءهما موكب طويل. تحمل الوصيفات ذيل ثوب الفرح، تليهن الأسرة والأعيان، الرجال يرتدون بزات سوداء وطرابيش حمراء، والنساء مزينات بالجواهر والفراء. أقلت جرجس و " بسمة " أجمل عربة تجرها الخيل بالأقصر، وسار الآخرون على الأقدام فى موكب نحو الكرنك، حتى الكاتدرائية القبطية الكبيرة. كان فى انتظارهم

فى الصف الأول السلطانة " ملك " برفقة ملوك وملكات سابقين. أحاطت مقعدى العروسين زهور بيضاء، وصلت حتى حاجز مزدان بالأيقونات يفصل المذبح عن المصلين، وصعدت الزهور حتى ارتفاع صورة القديس جرجس الذى يصارع التنين، بل وارتفعت حتى بلغت صورة مريم العذراء وهى ترضع ابنها . تركت " بسمة " ذراع والدها . جلست بجوار رجل آخر. نظر جرجس ووردة إليها متأثرين ومنبهرين يسترجعان شريطا طويلا من الذكريات، ذكريات زواجهما هما الذى طال إلى أكثر من ربع قرن. سوف تتوج ابنتهما ، مثل وردة، بنفس الإكليل المستخدم عبر أجيال من الأزواج، ليتكرر الزواج المقدس الراسخ منذ القدم. ينظران إلى ابنتهما ذات العينين المنتفختين بدموع مكبوتة، جميلة أكثر من أية مرة سابقة، محاطة بسحابة من البخور، هذه المادة التى يقولون إنها مقدسة، مادة إلهية، تجسد كلمات سحرية، سحرا يحوى الجمال... والحب.

دونت اسمها بجوار زوجها فى سجل الكنيسة الضخم. شهد الأبوان والشهود على أبدية رباط الزواج. ألبس كل واحد الآخر الخاتم. كان خاتم " بسمة " مرصعا بالماس. قرأ القس، "أبونا"، التوصيات الشعائرية. كان صوته جميلا ورزينا .

– ستحبين زوجك. ستخضعين له.

كتمت " بسمة " ضحكة. حتى الزوج والأهل والأصدقاء وأبونا نفسه وجدوا صعوبة فى الحفاظ على جديتهم، لا أحد يخضع لأحد فى أسرة عبد المسيح. الكل يعرف ذلك. لكنها كانت مستعدة للخضوع من أجل الحب.

- ستكون رب الأسرة. ستحب زوجتك كما أحب المسيح الكنيسة.

أشفق الرجال على هذا الشاب الصغير لهذه المسئولية الكبيرة. لكن مسئولية الحب كانت بالنسبة له خفيفة للغاية !

ثم يقدم المبرون، وهو زيت حضر لأول مرة حسب وصفة قديمة، يقال إنه عرق المسيح المصلوب، ممزوج بعطور القديسات. أعيد تحضيرها مرة ثانية، ثم عدة مرات أخرى حسب نفس الوصفة، وأضافوا إليها عينة حفظت وأخذت من التحضير السابق : " خميرة " بها آثار عرق المسيح المصلوب والقديسات. بوركا الزوجان بـ "المبرون" وكأن المسيح قد لمسهما. فشعرا معا برحلة آلام المسيح و بيوم القيامة، واتحدا معا عبر سلسلة طويلة من الحيوات.

توّجهما القس. ارتدى هو عباءة الرب. أصبحا يرمزان للمسيح والكنيسة. تعهدا بإنجاب أبناء جدد من لحمهما ودمهما.

انحنيا معا لختام الصلاة. عزما على أن يصبحا جسدا واحدا. وتعهدا بوعدهما للمسيح.

فرح الجميع بهذا العهد. فى فندق " ونتر بلاس " أعدت وردة أفخم وأروع أنواع النبيذ المعتق الفوار، شمبانيا مستوردة من فرنسا. لا يضاهيها مشروب على وجه الأرض كما ترى وردة وتشعر وتحس من وجهة نظرها، ويذكرها بما فعله السيد المسيح حينما حول خمرا رخيصة إلى مشروب إلهى. أفرغت عددا مهولا من زجاجات النبيذ فى أكواب لا حصر لها كالأحجار التى بنيت بها الأهرامات. وعمت السعادة الجميع.

* * *

كان جرجس كريما، يدفع جيدا لمن يخدمونه، ويشترى بسعر مرتفع القطع الأثرية المأخوذة من المدافن والمعابد، ولم يحرم أبدا الفلاح من المياه المطلوبة لرى الأرض. لم ينتبه أحد لتسرب الحقد إلى قلب الموظف الصغير، أو شعور الفلاح بالإهانة.

من كان يقلق من العين الحسود ؟

ليست عائلة عبد المسيح بالطبع، لم يشاهدوا حولهم سوى علامات الاحترام. لكن الخادمة التى دفنت حبل سوسن السرى رأت الحسد. ليس فى أعين البسطاء، لكن فى أعين بنات العم الأربع فى البيت المجاور المبنى على الطراز نفسه. توفى والدهن، منير الوسيم منذ وقت قريب. أقمن له جنازة فخمة. لكن ازداد الفراغ حولهن. كان شقيقهن من الذين يختلطون بشباب يتزاحمون فى البيت الكبير. لابد أن الأخوات الأربع يعانين من شدة الغيرة.

كانت الخادمة متحفزة. كلما اقتربت إحدى بنات العم، كانت تنثر حبات الملح. أو تصنع دمية من ورق، وتخرق العينين بدبوس، وتقول :

– خلصتك من عين " بامبة "

خلصتك من عين " فايقة "

خلصتك من عين " فتحية "

خلصتك من عين " روحية "

ثم كانت تشعل النار فى الدمية، أو تشعل البخور وتهمهم بالكلام المكرر.

من عين " بامبة "

من عين " فايقة "

من عين " فتحية "

من عين " روحية "

كان البخور الذى تستخدمه يسمى " عين العفريت "، كانت ترى الشيطان فى كل مكان، وخاصة فى عين كل واحدة من الأخوات الأربع.

لكن فى ذلك الشتاء، عمت السعادة عائلة عبد المسيح بأكملها . لا يتحدثون سوى عن زواج " بسمة "، عن تفوق ابنى جرجس فى عملهما، عن مجد جرجس، عن جمال وردة .

سافرت " فردوس " مع مجموعة من الأصدقاء إلى البحر الأحمر، لمشاهدة انعكاسات القمر على المياه والأسماك الملونة بألوان قوس قزح. سافروا عن طريق وادى الحمامات، الطريق الذى سلكته قوافل أسلاف عائلة عبد المسيح. هناك قابلت " يحيى " الابن البكر للعمة " مينى "، الذى زاد عدد النجوم فوق كتف زيه العسكرى.

زى عسكرى فى عائلة جرجس! هذا الرجل الذى كان يكره الحرب! كان "يحيى" قد تفوق فى معركة العلمين، شىء لا يستحق التهنئة فى نظر جرجس. لكن جرجس استسلم لجاذبية " يحيى " التى كانت امتدادا لسحر سيدة المجتمع القبطية. قصة حب " فردوس " ويحيى قد بدأت ثم توجت بالزواج، حلم العمة " مينى "...

بقيت سوسن. كان جرجس يريد أن يحتفظ بها لنفسه لفترة أطول؛ لكى تكمل دراستها مثلما فعل "تحوتمس الأول" مع ابنته "حتشيسوت" ، كما كان يقول؛ ويريد أن يصحبها فى رحلة عبر مصر بأكملها، كى يعرفها على ماضيها، ولكى تخطط لنفسها مستقبلا أفضل، كما كان يقول.

كانت سوسن تتبع والدها. لكن الحب اكتسى بالنسبة لها ملامح وجه جديد.

* * *

رقصت مع " سيت " الفالس والتانجو، وتجولت معه فى حديقة فندق " ونتر بلاس "، فى جزيرة الموز، فى المعابد، على ضفاف النيل مساء لمشاهدة قمر " طيبة "، وفجرا لرؤية طلوع الشمس على واجهة أعمدة الكرنك، لكنها حرصت على أن تبعده عنها، كما نصحت الراهبة " مارى دى كروسيفكس "، دون أن تسمح له حتى بتلك القبلة الخاطفة التى وافق عليها القس بردائه الأبيض. لم تكن تنوى أبدا أن تقلد "جيرتى القذرة"، لكن كانت تفاجأ أمام المرآة بعينيها اللامعتين أكثر من المعتاد، بابتسامة أكثر إشراقًا، تستعيد بخيالها ملامح ابن العمة "مينى" الثانى، هذا الطبيب الشاب ذو المستقبل الباهر، الذى يرتدى نظارات لإخفاء وسامة عينيه، ويربى شاربا لإخفاء شفتيه الساحرتين، والذى يجيد الضحك بانطلاق يفوق انطلاق سوسن.

هكذا قدمت العمة " مينى " ابنها الثانى " ناجى ".

* * *

يوما ما، قابلت سوسن ناجى. تناولا معا الشاى فى حديقة مظللة فى القاهرة. راقبا معًا حياة الطيور. استعرضا معرفتهما بأسماء الطيور المختلفة؛ الذعرة الرمادية التى تنط فوق الرمل، والبلبل الذى يغنى عند الشرفة بصوت أجمل من صوت الراهبة " سانت أنييس ". رسما معا حروفا هيروغليفية : بومة وسمانة. مر سرب من الحدآت وتابعا خط سيره. إلى أين هو ذاهب ؟ تأملا عالم الزهور.

قالت :

– اسمى سوسن. معناه " سشن"، زهرة اللوتس. ووالدتى اسمها وردة.

فى ذلك اليوم، أضاءت وجه الشاب ابتسامة حفرت فى وجدان سوسن منفذًا عميقًا إلى قلبها.

أبو الحجَّاج

كان جرجس يحب القمر الذى يخرج الشموس القديمة من مدافنها. القمر، ذلك الضوء الضئيل الذى يحمل فى طياته ضوءًا أعظم. أحب كل الأقمار، لكنه كان يفضل واحدا عن الآخر، قمر أبى الحجَّاج. إنه ينتقل فى التقويم الزمنى، وتغير الفصول، مثل كل أعياد المسلمين التى ينظمها تقويم قمرى : الحج، رمضان، مولد النبى.

يعتبر مولد أبى الحجَّاج عيدًا كبيرا فى الأقصر. يبدو مسجده المعلق فوق المعبد، فوق ذلك الحائط الذى يمثل بالنقش البارز الآلهة ومراكب الشمس، كأنه حل منذ إنشائه محل الشمس فى الحلقة الدائرية بين الحياة والموت. كان أبو الحجاج يملك قاربه، مثل مراكب الشمس فى الماضى، كان أحد أعيان المدينة يحفظ هذا القارب فى زمن عبد المسيح. لم يكن مصنوعا من أجود الأخشاب مثل القارب الذى كان يستخدم فى عيد " أوبت "، لكن من ألواح عادية، مطلية وملونة مثل جدران بيت يستقبل حاجا عائدا من مكة. مثل قارب آمون، وضع فوق "مزلج " لتسهيل نقله. يحتفلون بذكرى أبى الحجَّاج فى أوائل شعبان، فى مدينة تمتلئ بالأضواء، والخيام الحمراء والخضراء والبيضاء. يمارسون "الذِّكْر" كل ليلة وهم يرددون اسم الله حتى تتحقق النشـــوة الروحية،

حتى تذوب النفس فى الخالق، يرقصون رقصات إيقاعية بالجلاجل، يتصارعون بالعصى، ذلك التحطيب الذى يقلد الحرب الأسطورية بين الأخوين العدوين والهدنة التى أنهت صراعهما، لتفادى فناء العالم، وتجدد الخلق، سباق الخيول : "المرمح "، ثياب جذابة، تهاليل مرحة. كأنهم يستقبلون القمر، الإلهة القصية التى عادت عند سماعها المزامير والطبول. في اليوم الثالث عشر من شعبان يقدمون الذبائح قربانا، ويضعون سارية القارب فى الميدان العام. ترمز السارية المرفوعة إلى تجدد الحياة. فى اليوم الرابع عشر تكون ذروة الاحتفال بالموكب الكبير: يقود الموكب ممثل لأسرة أبى الحجّاج، فوق جواد أبيض جميل، يتبعه فوق ظهور الجمال على هوادج مكشوفة عدد مهول من الأطفال، ثم عربة تجرها خيول مزينة، حيث تعرض تمثيلية تنكرية تجسد الزواج المقدس: يجلس الزوجان على مقعدين، أو يقفان ويرقصان وينشدان ثم يتعانقان ويقبلان بعضهما البعض - بالطبع، يقوم بدور الزوجة رجل - ثم يأتى ممثلو الحرف المختلفة؛ يستعرضون أدواتهم فوق عربات يجرونها، النقاش يدهن وجه زميله، السباك يعرض مجموعة من الصنابير والمواسير والأحواض والمغاطس، الحداد يشعل النار ويطرق الحديد، يتذوق الفكهانى بضاعته، هناك أيضا الأبواق والاستعراض العسكرى، جلس أحفاد الرجل المبارك فى القوارب المحملة بأفواج من البشر، بينما كانت قوارب "آمون - رع"، "موت" و "خونسو" تتقدم بنظام، محمولة على ثلاث عشرة دعامة، كل ستة حمالين يرفعون دعامة واحدة، تحمل كلها على البر، على بعد حوالى ألف متر فى ممر، على جانبيه صفان من تماثيل أبى الهول؛ أو تسافر بحرا مسحوبة من الكهنة بالحبال لتيسير انطلاقها.

تتقدم الأفواج البشرية حاملة مراكب أبى الحجّاج فى فوضى كما يحدث فى الأعياد الشعبية الآن. تطفو فوق جمع بشرى غفير. تجول المراكب فى المدينة بأسرها محاطة بطوابير من الراقصين المرحين، وحشد من المتسكعين، والسيارات ذات الأبواق المنفرة، وعربات مزدانة بالورود، مملوءة بالأحجبة للاحتماء من العين الحسود، والقوارب المزينة المزدحمة. تأكل البنات عرائس مصنوعة من الحلوى، والأولاد فرسانا مسكرة، لجلب البركة والخصب. فيما مضى، كان "آمون" يذهب إلى الكرنك لتجديد الزواج المقدس والسيطرة على الحياة : كانت الإلهة ترتدى وجوها عديدة؛ كان اسمها "موت" أو "يد الإله"، كانت ملكة وزوجة الإله، وكبيرة الكاهنات؛ تسعد الإله وتشاطره الغرام، والإله يولد من جديد من تلقاء نفسه ويجدد الفرعون سيطرته، فيتجدد الخلق. يذهب أبو الحجّاج للبدر كى يتزوجه ؟ هل يتزوج الجمال ؟ أو ليجدد زواجه من " ترزه "، المسيحية الثرية التى منحته السلطة، والتى كانت جميلة، فى غاية الجمال. يقولون جميلة مثل القمر فى يومه الرابع عشر حين يصبح بدرا مكتملا. يقولون إن الله جميل يحب الجمال. هل يرددون المكتوب على جدران مدفن " سيتى الأول "، بجوار البقرة السماوية "حتحور" هناك، فى مدينة الموتى لمعاكسة الفتيات ؟

وماذا يطلبون من أبى الحجاج: الحياة، الوفرة، الأرض الخصبة ؟ مكتوب على قارب :

– مدد يا أبو الحجاج !

ثم ينتهى العيد. كأنهم كانوا يستعدون لأحزان الليالى المظلمة، عندما ترحل الإلهة القصية وتترك الأرض للأحزان ، وهموم الحرب والفناء.

- مدد يا أبو الحجاج !

* * *

لم يفت جرجس أبدا حضور هذا الاحتفال، حتى عندما يكون فى شهر سبتمبر أو أكتوبر، اللذين كان يستطيع قضاءهما فى الإسكندرية أو القاهرة، لأن الأرض تحتاج للراحة بعد أن أغرقتها مياه الفيضان. كان عليه الاشتراك فى ذلك المولد، وزيارة أحفاد أبى الحجّاج وارثى المركب، كما هو العرف، وأن يشاركهم فى تناول كعك العيد وشرب السحلب فى خيمتهم، مثل مطارنة "قنا" والأقصر والضيعات المجاورة. كان واجبا عليه أيضا أن يظهر مع أسرته فى شرفة البيت الكبير، عند مرور الموكب.

حين يتوقف الحشد. أمام البيت ، يطلب جرجس من الخدم بثيابهم المزينة بالخيوط الذهبية أن يقدموا " شربات الورد " على صوانٍ فضية كبيرة.

ثم يمد يده كمن يرمى البذور، ينثر حفنة من المال تتدفق كالأمطار. كانت الحشود بأياديها الممدودة، كسنابل لا تحصى تغطى حقل قمح شاسع تعصف به الريح، تتموج، وتنثنى، وترتفع من ناحية إلى أخرى لالتقاط قطع الفضة التى تتطاير فى الهواء وتتدحرج عند السقوط. وكان الجميع يهتفون بصوت واحد تمجيدا للسيد النبيل.

رويت أساطير عديدة حول جرجس . قيل إنه كان يرمى أكياسًا مليئة بالنقود، وإن كرمه فاق الحد. ثم قالوا عكس ذلك، وصموه بشدة البخل، قالوا إنه يعطى الفتات، وإن جدران بيته محشوة بالذهب، إن القبة مكتظة، فيها تجاويف بين الأحجار والزجاج الملون المعشق بالجص. قيل إنه قد أعد مسدسات خصيصاً لتلك المناسبات يطلق منها نقودا زهيدة للجماهير ، وإنه كان يتمرن فى الواقع على إطلاق الرصاص يوما ما على الشعب نفسه.

كم تحاك من قصص وأقاويل حول رجل يودون تشويه صورته ؟

* * *

استمرت عمليات رفع الأنقاض. هدموا للتو كنيسة قديمة تتصدر المدينة كلها، وهدموا أيضا منزلاً مجاوراً للكنيسة، كان يقطن فيه فرع من عائلة أبى الحجاج. أما المسجد فلم يجرؤ أحد على لمسه . كان يجسد صلة فريدة بالماضى، صلة قام أحفاد أبى الحجّاج بالدفاع عنها بشراسة .

الجزء الثانى

سقوط أسرة مالكة

حديقة سوسن الخاصة

في نهاية ذلك الشتاء الجميل في الأقصر ، ابتكرت سوسن لنفسها شخصية خيالية لتشعر بصحبة مرافق حميم .

كثيراً ما حدثها والدها من قبل عن ذلك الحبل السرى المدفون في حديقة البيت الكبير في الأقصر، قرينها، أخوها التوأم كما يقول، الذي يحمل طاقة الحياة والبعث، والذى يربطها بأسلافها، وبالأخص بقرين "حتشبسوت" الملكى. قال لها إن حبلها السرى مغروس في أعماق الأرض. غذى خيالها أكثر مما ينبغي بهذا القرين، وعلمها كيف ترسمه، بأشكاله المتعددة في كتاب الأقصر المنبسط على ضفتي النهر. يكفي تصفحه فها هي صور القرين، هذا "الكا" يتحول إلى أشكال مختلفة: ذراعان تضمان في حضن واحد الأحياء والأموات؛ سلة القرابين، مثل تلك التى تحملها الخادمة إلى المدفن رحمة للمتوفين الأعزاء، الذين يظهرون في الأحلام، وضع تعبد يوحد البشر والآلهة، أخ توأم . صار القرين مقربا أكثر من الروح . فالروح كيان مجرد غير واضح الملامح. بينما يكفي أن تحيط نفسها بالسكون لتسمع قرينها وتراه أمامها بأشكاله المتجددة عبر مراحل التحول.

ابتكرت له، ذات يوم، اسمًا خاصا، مستمداً من لحظات الصمت أثناء الانفراد بالنفس ودعته "عزلة". اكتشفت سوسن خفايا الحياة فى لحظات السكون مع "عزلة". لا حاجة لها أن تكشف لى عما يدور فى داخلها لأرى كل الوجوه الأليفة التى تصحبها مع "رفيقها" الجديد.

هناك ملامح ناجى و ملامح "سيت"، ومشاهد "طيبة" العظيمة.

* * *

طلبت بناء كوخ فى جزيرة الموز من جذوع الأشجار وفروعها ليكون مقرا لها مع "عزلة". أقيم مقر آخر من شجر التنوب بركن الحديقة فى القاهرة تحت شجرة جميز. فى الأقصر، أحاطت بكوخ "عزلة"، أشجار الموز والنخيل والمانجو والبرتقال، وعصافير آتية من أماكن مجهولة؛ أما فى القاهرة، فقد أحاطت بالكوخ حديقة زهور: الياسمين، واللوف، وسيف الغراب، والمخملية بكل درجات الأصفر فى الشتاء، والورود طوال العام.

لتزيين الكوخ، اشترت فى أول رحلة لها إلى أوروبا وسائد مصممة على أشكال القلوب، وقرودا من القش، وأسطوانات، وأيضا أكورديون. غنت مع "عزلة" على أنغامه، تناجى معه الأشجار والزهور والقمر والشمس. تهمس للحب وتغنى للحب.

طغت على وجه "عزلة" ملامح الطبيب الشاب "ناجى" محاطة بهالة مبهجة من النور . من قال إنه زواج تقليدى؟ تتناغم ضحكاتهما وتخلق

مهرجانًا موسيقيا رائعًا. يعرفان بعضهما بعضًا منذ الأزل. تنبأ الخزاف "خنوم" بارتباطهما وهو يشكلهما.

فى بعض الأحيان تحتل ملامح "سيت" وجه "عزلة"، كأن نظراته المتأملة تسترجع صورا جميلة ليقارن بينها وبين الوجوه الفرعونية، ويرى فيها صورة حية لما يعشقه من رسوم على جدران المعابد. لكن "خنوم" لم يصنع "سيت" وحتى الآلهة لم تكن تتخيل أى رباط بينهما.

قال القس إن الرب هو المحبة. لا تعرف إن كانت تحب الحب أو الرب. عندما تعتكف مع قرينها "عزلة"، يكتسى الحب ملامح "ناجى"، التى تختلط أحيانا بملامح "سيت". لكن أين ملامح الرب؟

ربما لم تحب سوى الحب. فى أحلامها، تبتهل إلى القمر أو إلى "حتحور" الجميلة، دون أن تعترف بذلك علانية، حتى لا يكون جزاؤها لهيب جهنم كالوثنيين، كما كانت وردة بشرى تردد بصفة دائمة.

* * *

قرب ميناء الإسكندرية، فى ليلة غاب عنها القمر، رسخت فى حلمها الغائم ملامح ناجى. من الغروب حتى الفجر، انضمت مجموعة من الشباب لصيد السمك القاروص. وضعوا مصابيح حول القارب لجذب الأسماك، وألقوا بخيط الصنارة وأرخوها حتى تصل إلى درجات مختلفة فى العمق، بين ٢٤ ذراعًا، ٢٠ ذراعًا، ١٦ ذراعًا. كلما شعر أحدهم بجذبة خفيفة، سحب الصنارة على الفور حتى لا يفلت السمك الأسرع منه ويقطع الصنارة. كان طول خيط صنارة ناجى مناسبا فقلده الآخرون وانتظروا الضحية الجديدة.

جلس ناجي بجوار سوسن طوال الليل في صمت يراقبان صيدهما، ينظران إلى بعضهما بعضًا أحيانا بأعينهم المضاءة بأنوار المصابيح الخافتة. يقولان دون كلمات، إنه لشيء رائع أن تستمر الحال هكذا طوال العمر. ويضحكان فرحا دون إحداث ضجيج، حتى لا تتنبه الأسماك إلى وجودهما.

* * *

ظلت سوسن تحيط نفسها بالصمت لتستعيد هذه اللحظات الجميلة ودارت حولها الأحداث بدون أن تعيرها أى اهتمام. لم يستطع حريق القاهرة، وغضب الشعب والطبقات المتوسطة، أن يمنع عزف الموسيقى الداخلية التى ملأت وجدانها. حتى نفير الثورة، لم يسكت صوت "عزلة".

الثورة. قادها العسكريون الشبان، الذين زُوِّدوا بأسلحة فاسدة، بيعت لمصر فى حرب الشرق الأوسط الأولى.

فى شهر يوليو ١٩٥٢، أبحر الملك إلى منفاه فى باخرة فاخرة مصحوبا – كما هو المتبع مع الملوك – بإحدى وعشرين طلقة مدفعية. وفى انتظاره كنوز فى الجانب الآخر من البحر. لا شيء يدعو لإفساد الحلم. إنها ثورة بيضاء، دون إراقة دماء.

* * *

لكن سرعان ما تبين أن خطط الثورة ستؤثر بعد ذلك على أسرة سوسن. محو أثر الأتراك، كالألقاب وارتداء الطربوش. والأهم صدور قانون الإصلاح الزراعى، ثم مشروع السد العالى فى أسوان.

لم يترك جرجس الأقصر من قبل بهذه العجلة. ترك بدون تردد أحجاره الأثرية الغالية . أثار مشروع الإصلاح الزراعى ومشروع السد العالى هياجًا كبيرًا، أدى إلى تعبئة الرأى العام نحو اتجاهات متعارضة. اختلفت مصالح الأثرياء والفقراء. وافق بعض الأثرياء على التوزيع العادل للأراضى الزراعية لأسباب سياسية أو أيديولوچية، ورفض البعض الآخر الفكرة لأسباب عملية. قال الملاك الكبار وبعض الموظفين إن تقسيم الأرض سيضعف إنتاجها. أما فكرة السد العالى فقد أثارت المخاوف، وخلقت أيضا آمالا كبيرة. لابد أن يتشاور جرجس فى كل ذلك مع أصدقائه المقربين.

أذكر يوما فى شهر سبتمبر بعد الثورة بعدة أسابيع. تجمع أعيان عهد بات سابقا الآن على شاطئ سيدى بشر رقم ٢ الأنيق فى الإسكندرية. فقدوا لقب "بك" و"باشا". تجردوا من كل المظاهر التركية، لا يعرفون تماما ماذا سيستبدلون بالطربوش التركى: هل يرتدون القبعات الغربية أم يسيرون حاسرى الرءوس. لم يستقلوا بأى ثياب تحدد هويتهم لترسم الملامح الخاصة لهؤلاء الفلاحين الذين صاروا بكوات أو باشاوات. فقد غيروا مظهرهم مرارا عبر آلاف السنين حسب مشيئة الغزاة.

فى ذلك الشهر، قابل جرجس "ناجى" لأول مرة. كان ذلك فى كابينة "صادق باشا"، عم ناجى، المستأجرة على الشاطئ مباشرة . يخشى "ناجى" الأسئلة التقليدية المزعجة، الأقرب فى الواقع إلى تحقيق

تنقصه اللباقة كلما تقدم شاب لخطبة فتاة من عائلة عريقة. لحسن الحظ لم يتعرض لذلك. فبدا مسترخيا وسط هذين الباشاوين المسنين اللذين اعتبراه ممثلاً للشباب والمستقبل. استمعا إليه باهتمام وتقدير، بنظرات لا تختلف كثيراً فى رقتها وابتهاجها عن نظراتهما نحو سوسن أو نحوى. جلست النساء فى ركن آخر يتبادلن الاستعلام عنه.

ناجى طبيب يعمل فى الريف. عاد من الخارج لينضم إلى فريق من الخبراء الدوليين فى المنطقة نفسها التى يقيم فيها عيادة خاصة. عرف الفلاحين عن قرب. شاهد الفلاح المسكين يعيش مع بهائمه، وينقى دودة القطن، وينظف القنوات، ويموت مبكراً بسبب الأمراض التى يتعرض لها لكثرة ما غرس قدميه العاريتين فى الطين. إنه الأجدر بأن يذكر فى صلب الأحداث التاريخية.

من زاوية أخرى، رأى جرجس أن مواطن "طيبة" الفقير، لا يتردد فى بيع ممتلكات أسلافه فى المقابر إلى الأجانب. لابد أن يتعلم قبل أن يكون سيداً!

ومشروع السد العالى: ما مصيره؟

لم يشأ ناجى أن يختلف مع جرجس فى الرأى حتى لا ينزعج منه، فلم يعبر عن حماسه للثورة أو الإصلاح الزراعى أو مشروع السد العالى. غيَّر الموضوع بلباقة وتحدث عن الإله "تحوت"، راعى الأطباء والكتاب والسحرة. علق مازحاً على مدى سحر الكلمة فى مهنته:

– ممكن نستبدل المحلول الطبى بشوية مية فى الحجنة، وبكلمة حلوة المريض يخف.

كلما واتت جرجس الفرصة لسماع كلمة طيبة تصدر من ناجى، ربت على كتفه بقوة وضمه مثلما يضم الأب ابنه.

* * *

فى الجانب الآخر من الكابينة، جلست وردة وسط العمة "مينى" والعمة "مارجريت"، زوجة العم "صادق" وابنة عمة من أسيوط، من عائلة "ويصا"، تتأمل ناجى بطرف العين وتستفسر عنه. لاشك أنه نال إعجابها تماما فى ذلك اليوم، وعرفت من والدته ذاتها كل المعلومات اللازمة عن طبيعة ومساحة أراضيه، وعن دخله الهائل فى ذلك الحين، إذ كان يمتلك عيادة بالقرب من القاهرة فى بلدة تكثر فيها بيوت الأثرياء.

* * *

انتظر "ناجى" وسوسن بأدب الغداء القادم من شقة المصيف، يحمله الخدم بثيابهم الرسمية، فوق أطباق فضية جميلة، حفظ فيها الطعام ساخنًا تحت أغطية مستديرة منقوشة بدقة. ثم انسحبا من مجلس الكبار للنزهة معا فوق الرمال الناعمة على الشاطئ والسباحة بعيداً، بعيداً. تجاوزا البراميل الحمراء التى تحدد المنطقة الآمنة فى البحر، ووصلا إلى جزيرة معزولة لا يعرف لها اسم. غامرا بالذهاب أيضا حتى فجوة "عين الشيطان" التى تشق الصخر إلى نهاية الشاطئ. جلسا فوق الصخرة، يصطادان معًا حتى قرب الغروب.

انمحى العالم الخارجي حتى لا يفسد خلوتهما.

عند الغروب، عادا إلى مجلس الكبار.

بينما كانا يلعبان "السكرابل" على ضوء مصباح الغاز، لاحظت توجه نظرة جرجس الحنون نحوهما، مشحونة بصور مراسم الزيجات الخالدة.

الثورة

في خريف ذلك العام، عاد جرجس إلى الأقصر ليتنازل عن أملاكه.

كان يمتلك آلاف الأفدنة على ضفتي النيل، قيل إنه يمتلك نصف أراضي الأقصر. لم يسمح له بالاحتفاظ بغير مائتي فدان له ومائة أخرى لكل الورثة، ويوزع الباقي على الفلاحين.

يحق له في واقع الأمر أن يبيع ممتلكاته بأسعار رمزية كما فعل الخديو من قبل بأراضيه، لكن بتجزئة ممتلكاته الزراعية إلى ثلاثة أفدنة حسب القانون الجديد. الحل البديل أن يأخذ تعويضا من الحكومة، اقتُرح عليه أيضا أن يحرر عقودا مزورة بتواريخ سابقة مع من يثق بهم ليحصل كل فرد من التقسيم على ثلاثمائة فدان. جرجس رجل شريف، فضل فكرة التعويض من الحكومة.

* * *

السعادة غمرت الريف. وتحرك الفلاحون نحو التقدم بنفس الوسائل التي أوصلت جرجس وأسلافه إلى القمة، والتي داهمت عجلاته هؤلاء الفلاحين من قبل. آن الأوان لتقضي عجلات التقدم بدورها على جرجس.

تدفقوا من كل صوب للحصول على قطعة أرض، حتى الجندى ادعى أنه من أصل ريفى ليشارك فى اقتسام الغنيمة. بدا لجرجس أن الجميع، منذ لحظة ترقيهم، ينظرون إليه كنجم هوى من عليائه. ماذا سيرتدون وهم يندفعون نحو آفاق جديدة؟

وضع جرجس بزته التركية الرسمية ونياشينه وطربوشه جانبًا، لكنه تشبث بلقب باشا. شغلهم الشاغل الآن هو الإساءة إلى الصفحة السابقة فى تاريخ البلاد، التى ترتبط ببقايا من أثر الأتراك. رسموا صورة بلون سواد الليل لإزالة الشموس القديمة، تمهيداً لطلوع الشموس الحديثة. لا تضاء سماوات حديثة العهد بغير خلفية سماوية قاتمة.

كان ثمة حدث يستحق المشاهدة. اجتاحت الحقول ملايين من أجهزة "الترانزستور" و كأنها سحب من الجراد، رخيصة الثمن، يسهل على الفلاح شراؤها. أذاعوا النبأ السعيد، نبأ الإصلاح الزراعى. اتهموا الملاك الكبار بالفساد، هؤلاء الباشاوات الذين سقطوا، مثل جرجس والآخرين. أعلنوا استبدال تعاونيات زراعية بالملكية الخاصة الكبيرة حتى لا تتأثر الأرض بالتقسيم، وأيضا للقضاء على استغلال الإقطاعيين للفلاح المسكين.

تشبث جرجس باللقب. ظل "باشا" وسط حفلة تنكرية كبيرة!

* * *

لم تُعط فرصة للباشاوات وسط هذه الحفلة التنكرية الكبيرة للدفاع عن أنفسهم عبر الترانزستور، فكانوا يتحدثون مع بعضهم

بعضاً عن تاريخهم لطــرد الأرواح الشريرة التى تغلف الحاضر، بانتقاء الكلمات التى استعانت بها "غادة" للقضاء على حسد بنات العم. ليس ماضيهم بهذا القدر من القتامة كما يحاولون إقناع الشعب بذلك.

ولد جرجس فى "هوجة" عرابى، كأن هذه المصادفة إشارة قدرية لتأهيله كى يكون ثوريا. فى عام ١٩١٩ استقبل سعد زغلول ليصبح تحت حمايته عندما كان مضطهدا من السلطات.

ردد أصدقاؤه آراءه، وأقروا بأن عددا كبيرا من الأعيان ساند سعد زغلول وهو فى جولته التاريخية عبر نهر النيل.

كانت ثورة ١٩١٩ ثورة عظيمة. لماذا يحجبون الحقائق؟

* * *

هل نسوا إعلان الاستقلال، وإقامة نظام ملكى دستورى وانتصار النظام الديموقراطى؟ هل نسوا "ويصا واصف"؟

"ويصا واصف" الذى سمى "كاسر القيود"، هل نسوه؟

كان "ويصا واصف" رئيسا للبرلمان حينئذ، وقف فى وجه الإنجليز والملك؛ فأغلقوا أبواب البرلمان، وصدر قرار بأن يلتزم بالإقامة الجبرية فى منزله.

وقف الحراس أمام مدخل البيت، بيت جميل تصميماته الداخلية على الطراز العربى. يحيطه من الجانب الآخر، على حافة النيل سور الحديقة. كورنيش الجيزة لم يشيد بعد. أعطى أوامره لسائقه بإحضار

السيارة، وانتظاره في الضفة الأخرى من النهر بعد أن يرسل إليه بقارب صيد صغير. قفز "ويصا واصف" من النافذة فوق حائط الحديقة ثم صعد إلى قارب الصيد، قارب ضئيل لكنه يتحدى الدوامات، مما أثار رعب ابنته "سيريس"، الصغيرة في ذلك الحين. راقبته من الشرفة يبعد وينقلب، ثم ينهض. عندما وصل للشاطئ الآخر، سار وسط جنازة صادفته. تظاهر بأنه يبكي بحرارة ليتمكن من إخفاء وجهه تمامًا، وما إن وجد سائقه حتى طار إلى البرلمان ووصل في موعد بداية الجلسة. وقف النواب ينتظرونه أمام الباب المغلق بمزلاج. هو الرئيس، يجب إطاعة تعليماته. أمر بكسر السلاسل، فقاموا بنشرها. عقدت الجلسة رغم قرار الملك والإنجليز.

مضى تاريخ ثوراتهم، ثورات الباشاوات القدامى الذين يروونها لنا للحفاظ على بريقهم، رغم الظلام الذين يريدون إغراقهم فيه من كل ناحية. يحكون قصصهم ليحتموا من الجراد الذي يهددهم من كل جانب، والذي يحدث حولهم صريرًا مدويًا.

لكن أصوات تلك الأجهزة ظلت تصرخ بقوة، تصاعد الصراخ شيئًا فشيئًا حتى خنق أصواتهم، نزع صفحة من التاريخ، تاريخهم هم. حتى إن العبارات التي يتحدثون بها، والقصص التي يحكونها لنا، فقدت سحر كلمات الإله "تحوت"، وأيضا سحر الشعارات الصادرة من أجهزة "الترانزستور".

* * *

استمرت الأفراح فى الريف، بدون انقطاع، ابتهج الفلاحون بمكاسبهم التى وزعت عليهم من ثروات الملاك الكبار، هؤلاء الرأسماليين الأشرار. توافدوا بأعداد كبيرة، تدفقوا كالسيول. طفح الكيل بالنسبة لضباط الإصلاح الزراعى، طلبات الملكية تجاوزت مساحات الأراضى المتاحة. لم تحتل الأرض الزراعية، إلا مساحة صغيرة كالخيط الرفيع وسط صحراء شاسعة.

وعدوا من وصلوا متأخرين للحصول على حصصهم، بأنهم سيزرعون لهم الصحراء عن قريب، ويبنون سدا عاليًا سوف يغمر الأرض الرملية البور. لابد أن يحصل كل الفلاحين على أنصبتهم.

المجند العائد من تدريباته العسكرية، الذى ادعى أنه فلاح ليحصل على قطعة أرض، تنقصه الخبرة فى مجال الزراعة. نمت البذور فى الحقول المجاورة، فقال إن لعنة قد وقعت عليه لأن سنابله ليست بالقدر نفسه من الجمال والعافية. إنها العيون الحسود، عيون جرجس باشا، هذا الباشا المنحل.

* * *

محنة أخرى كانت فى انتظار جرجس.

ابنه من الزواج الأول، شمسه وفخره وفخر الطائفة الأرثوذكسية بأكملها، الذى أسموه "ميخائيل" على اسم والد جرجس، عمل سفيراً لمصر فى فرنسا؛ من ألمع السفراء الذين تولوا هذا المنصب فى ذلك الحين. لم تعجبه التغيرات التى أدخلتها الحكومة العسكرية، رفض إلغاء

الراية الملكية الخضراء، ورفع راية الثورة، المكونة من اللون الأسود والأبيض والأحمر، فوق الجناح المصرى فى معرض باريس.

وقال:

– دى بتفكر الواحد بألوان العلم الألمانى. الفرنسويين لسه بيعانوا من جروح الاحتلال النازى أثناء الحرب العالمية.

الحقيقة إنه متعلق باللون الأخضر الذى يرمز إلى خصوبة الوادى، الذى يتمثل فيه هلال الإسلام، ذلك هو نفسه الذى يرمز إلى الإله "تحوت"، ويتجمع النجوم الثلاثة كأنها تحدد أطراف هرم مثلث، و ترمز إلى مصر العليا و مصر السفلى والسودان. هذه النجوم الثلاثة التى استبدل بها فى ثورة ١٩١٩ الصليب مع الهلال، هى الثورة الوحيدة التى تعاطف معها.

لكن الملحق العسكرى قد أصدر التعليمات: يجب تنفيذ الأوامر، ورفع راية الثورة. فضل ميخائيل أن يستقيل من منصبه على أن يخضع للأوامر، فمن الذى خضع للأوامر أبدا فى عائلة عبد المسيح؟

شمسه من الزواج الأول غرق فى الظلام. لم يسمع دوى سقوطه بل خنق الدوى بصرير سحب الجراد.

* * *

أنجبت زوجة جرجس الثانية وردة شمسا أخرى. توارى منذ البداية فى ظلال أبيه وأخيه غير الشقيق. ليس من اليسير عليه أن يكون

ابن باشا الأقصر، وفى الوقت نفسه شقيق ميخائيل الذى يحمل على عاتقه - بصفته الابن البكر - مهمة المحافظة على تخليد اسم العائلة، ويصعب عليه كالأخ الأصغر أن يتبارى معهما.

يعتقد ابن وردة أن العالم بأسره خاضع لسلطته، بما فى ذلك رؤساؤه فى العمل. فى نوبة حنق، صفع موظفًا.

علق البعض:

- عنده حق.

قال آخرون:

- ده طايش.

ترك الابن الأصغر السلك الدبلوماسى يائسًا، ومع ذلك راضيًا عن نفسه لتركه العنان للتعبير عن غيظه.

الصدمة هزت الأسرة بأكملها. إنه بطبعه مستبد. عجز عن استرداد حقوقه فشعر بالذل و أصبح ممرورًا، شديد الانفعال، تضاعف استبداده، يتشاجر مع كل الناس، وأمعن فى البحث عن موضوعات تشعل غضب من حوله.

خضعت وردة لرغباته و أوامره على الدوام، لكنها وجدت نفسها تتجرد من أموالها أمام مطالبه الباهظة. كانت قد تضررت من قانون الإصلاح الزراعى. درست خطورة الموقف من جميع الزوايا، مازالت تملك حصتها الخاصة من الأراضى، حوالى ٢٠٠ فدان من أرض

أسيوط الخصبة، ليس هذا بالشيء القليل. أعطته ريعًا منتظمًا منها، طالب بالمزيد. أعطته مجوهراتها سرا دون علم أبنائها الآخرين، لم يظهر عليه الرضا أو الامتنان، بل طالب بالمزيد، ثم ابتعد عنها بعد نفاد ما لديها ، وذهب إلى أسيوط للاستعانة بأخواله هناك. ابتعد شمس عن وردة وظل يبتعد. أحست وردة بتضاعف حسرتها وراحت تنخرط فى نوبات من البكاء، لا نعرف بالضبط على ماذا، على فقدان أراضيها، أم على كارثة ابتعاد ابنها، أم على الكوارث التى ألمت بالأسرة كلها. حاولت أن تعيد ابنها فتعده بفراء ثمين أو بجوهرة أخرى. فى الخفاء، تجردت من كل شيء و تنازلت له عن كل ما تملك. عاتبوها على ضعفها الظالم، قالت إنها تحب أبناءها الخمسة كأصابعها الخمسة، بالقدر نفسه تمامًا. لا أحد يفهمها ويقدر شدة عذابها من الظلم الكبير الذى وقع عليها. ترفض أن تقيس ظروفها الحالية بظروف الفلاحين الفقراء، وإنما تقارن إمكانياتها المتواضعة الآن بمستوى ثراء الآخرين، وعجزها عن إعطاء المال لابنها ليتألق كالشمس، مرة أخرى . لم تنضب دموع وردة، وفاضت كأنها تغمر واديا بأسره.

* * *

قالت سوسن:

– كده ح تضرى عنيكى.

شكت وردة وهى تنتحب:

– ح نعيش كيف؟

قالت بسمة:

– زى كل الناس.

مثل كل الناس؟ لا! لم يتأثر كل الناس مثل عائلة عبد المسيح. تضاعفت دموع وردة احتجاجا على هذه المقارنة الظالمة.

ليست وردة مخطئة تمامًا. ظل ملاك العقارات يحصلون على إيرادات جيدة، صحيح أن جرجس يملك فندقًا، لكن بعد الثورة، انخفض عدد السائحين. شقيقة وردة حظها أفضل. ورثت زوجها قبل صدور قانون الإصلاح الزراعي. كل ابنة من بنات العم في البيت المماثل لبيتهم بالتقريب، على نفس مستوى ثرائها ومستوى ثراء الأسرة بأكملها، اعتبرت أيضًا موت والدهم ظلمًا مضاعفًا لها. أقيمت له جنازة فخمة تباهين بها أمامها؛ جنازة ضخمة لهذا الأخ "الغندور" الذى لم يحصل على لقب باشا. بدت مظاهر الحداد فى المدينة بأسرها. وضعوا ملاءات سوداء على واجهات البيوت. توقف البيع والشراء، نزل الأعيان إلى الشارع. الأرفع مقامًا، حملوا أمام النعش بساط الرحمة. تبعهم الآخرون، فى مسيرة طويلة ممتدة، محاطين بأهالى القرى المجاورة الذين جاءوا لحضور الجنازة. ساروا على الأقدام من معبد الأقصر حتى الكاتدرائية القبطية، أمواجًا بشرية كالتى نراها فى مولد سيدى أبى الحجّاج. أظهرت بناته اعتزازًا شديدًا بينما انهمرت دموع وردة المريرة. جرجس، جرجس الطيب، يتلقى ويلات القدر.

* * *

وردة، الزهرة الجميلة، تذوى.

كانت الوردة، البشرى، النبأ السعيد الذى يرحبون به كما يرحبون بقدوم الفيضان. أنجبت شمساً ألمع من أى نجم من النجوم، لا منافس له سوى ابن جرجس من زواجه السابق. لم تتحمل نظرات الإشفاق التى تبدو على الوجوه، فلم يعد اسمها يوحى برحيقه.

فقدت حماسها لتطريز صورة القديس جرجس، لكنها ظلت تصلى للقضاء على الشر. التنين الجديد والشر المحدق اسمه الثورة. توسلت إلى القديس جرجس أن ينتصر على ثورة أسعدت الفلاحين الذين أصبحوا ملاكًا للأراضى، ثورة سلبت ابنها الغالى حياة رغدة ، وسلبت رجلها وزوجها الحبيب سلطانه.

توسلاتها شلت القديس جرجس فى عليائه!

يرجح أن الشمسين اللذين أنجبتهما زوجتا جرجس قد قررا فى ذلك الوقت أن يصرفا النظر عن الزواج. اللقطة التى أظهرتهما بملابس السهرة الرسمية، أثناء تناول العشاء بصحبة أجمل فتيات المجتمع الراقى، تسجل نهاية عهد، نهاية أسرة مالكة، نهاية سلالة سوف تنقرض بدون أن تنجب شموساً أخرى.

لكن المصائب التى تكبدها شمس جرجس من زوجته الأولى لم تقلل من آلام وردة إزاء الشقاء الذى عانى منه فلذة كبدها. لم تعد تحتمل رؤية الزى العسكرى الذى يرتديه ابن مدام مرقس البكر، هذا الزى الكريه المسئول عن تعاستها. كيف تتجاسر فردوس وتقدمه للعائلة! اقتضى الأمر أيضا أن تصفح عن ناجى رغم أن شقيقه يعمل فى الجيش.

والدها كان محقا :

– ما يصحش ناخد مغرفتين من نفس الحله.

يكفى الطبيب فقط صهرا لها. لكن فردوس هى الأخت الأكبر سنا، حسب التقاليد، عليها أن تتزوج قبل سوسن. وقع النصيب على عريس فى الجيش! لو لم يكن هناك سوى الطبيب! لسار كل شىء على ما يرام.

حاولت فردوس أن تستوعب الموقف. غضبت سوسن . إنها الآن فى حاجة لأن تسترد الهدوء و البهجة مع "عزلة".

* * *

لم يتبق لعائلة عبد المسيح من الثراء سوى المظاهر والأعباء. تحمل جرجس مسئولية بيتين مفتوحين فى الأقصر والقاهرة، وأعباء عائلية تجاه أبنائه الذين مازالوا يعتمدون عليه، وأيضا تجاه الخدم، فهم جزء لا يتجزأ من العائلة منذ زمن بعيد. "دهب" النوبى وغادة، التى دفنت حبل سوسن السرى، إلى جانب الآخرين؛ أيضا المؤسسات التى اعتمدت دائما على كرمه فى التبرع، كذلك المدرسة والكنيسة والمستشفى ومؤسسات علوم المصريات. يصعب أن تعيش ببذخ بثلاثمائة فدان. وتعويضات الحكومة مقابل نزع الملكية لا تعود عليه بأى شىء. الفلاح الذى أدرك مدى استغلاله فى الماضى، انتقم ولم يعد يلتزم بدفع الإيجار البسيط الذى حدده المشرعون الجدد.

ضاعت امتيازات جرجس. وقف عاجزاً عن المطالبة بالعدالة كما يراها، ولا بعدالة الدولة التى تناصر الآن الفقراء.

الأسد الذى فقد هيبته لم يعد يثير الرعب. تلتهمه الفئران.

بقى البيت الكبير شاهدا على عصر بأكمله، ظل راسخا مثلما كان. لكن "المراكبى" توقف عن خفض شراعه، والفلاح توقف عن النزول من فوق حماره وهو يمر أمامه. لم يعد أحد يرغب فى أن يكرر الدعاء:

– الله يعلى مراتبك ويحفظك ويحميك من الشر.

كان "المراكبى" والفلاح واثقين تماما بأن زوال البيت الكبير سوف يحررهما، وأنهما سيحلقان نحو الشمس بعيدا عن الأكواخ المبنية بالطين النيئ.

* * *

يبدو أن تذمر وردة قد أثار هموم جرجس ومس كرامته. لم يشأ قط أن يبدى اضطرابه علنا.

رغم إحساسه أحيانا بأنه يفضل الموت. ربما كان ذلك فى فورة غضب. يوما ما، فى جلسة عائلية، بينما تواصل وردة الشكوى من حالها، قال لأبنائه:

– حظكم طين لأنى لسة جاعد لكم. لو كنت مت وشبعت موت جبل الثورة، كنتم زمانكم ورثتونى وبجيتم أغنيا زى ولاد عمكم.

حاولت وردة أن تتمالك نفسها وأن تحمد الله أن زوجها مازال على قيد الحياة، مع ذلك فإن القلق الحاد من حدوث مكروه أفدح، استولى عليها. ظل القلق يحفر فى جرحها و يعمقه يوما بعد يوم.

مؤكد إنه فعل العيون الحسود، عيون بنات العم كما قالت الخادمة الوفية.

وردة، الزهرة الجميلة، ذوت.

جرجس والتحف الفنية

رغم كل شىء، لم يكن جرجس بالرجل الذى يستسلم للهزيمة. فهو مثل والده، لديه تصوراته، ورأس مثقل بالعديد من الأفكار. كثيراً ما سافر إلى القاهرة والإسكندرية، يروى قصصًا عن زمانه وعن ماضيه، وهو يستشعر فى حلقه طعم الرماد. لابد له أن يلوذ بزمن آخر مختلف عن زمن اليوم، أن يلجأ إلى عصر آخر فى صفحات الكتاب العظيم المنبسط على ضفتى النهر فى " طيبة".

* * *

أغرق أحزانه بجوار المعابد والمدافن، اكتشف جانبًا طيبًا فى تطور الأحداث. لا تستطيع أسراب الجراد سوى مهاجمة قناع مستعار من الحكام الأتراك، قناع يرمز للتبعية. طرد "الريس" الذى نسق الحفلة التنكرية آخر ملك ينتسب إلى الأجانب الأتراك. إنه مثله، رجل من الصعيد. كان يمكن أن يربت على كتفه ويقول له "يا بلديات"! منذ آلاف السنين، لم يسبق أن حكم مصر مواطن من أبنائها. من جهة أخرى، كلف "الريس" المسئولين بنقل تمثال رمسيس الثانى إلى ميدان "باب الحديد" الذى سمى فيما بعد ميدان رمسيس. سوف تجدد الصلة بمصر الفرعونية. فرعون: نموذج للحاضر والمستقبل.

إنها بادرة مذهلة، لكن لجرجس تحفظات على اختيار النموذج. لو أتيح أن يستمع "الريس" إلى مشورته كما يفترض أن يحدث بين الأشقاء، لاختار النموذج الآخر، نموذج المرأة الفرعون، "حتشبسوت".

لماذا لا يستفيد العصر الحديث من حكمته ؟ إنه يعرف المعلومات الضرورية للاستنارة الثقافية والروحية مستنبطة من عهد الجمال والسلام، عهد السيدة العظيمة "حتشبسوت".

إلى أن يتحقق ذلك، ظل يعيش بجوار هذه السيدة العظيمة، جارته على الضفة الأخرى من النهر.

* * *

ترك سيارته وقاربه الآلى، اللذين يرمزان إلى ترف غير مقبول الآن. واستخدم عربة خيوله الخاصة، وقاربه المربوط أمام رصيفه الخاص، كذلك صديقه العزيز؛ حماره الطيب. فى المنطقة المنزرعة على مقربة من البيت، مازال يستطيع متابعة الحياة وفق إيقاع المواسم الذى يمليه سريان النهر: الفيضان، نثر البذور، والحصاد. عند الفجر، يشاهد البهائم والأطفال يذهبون إلى الحقول، والحمير التى تحمل الآباء والأبناء والطنابير، عائدين إلى منازلهم على ظهور الحمير، محاطين جميعا بسحب من الأتربة.

ازداد عشقه لفترات الغسق التى تسبق الفجر وتنبئ بالذهاب مجددا نحو عالم الحقول، ربما قد عشق الغسق لأنه شاب كالحياة منذ القدم، مثلما كان يقول.

هدأت أفراح الفلاحين، بينما يترقبون بناء السد العالى والمزيد من توزيع الأراضى عليهم.

* * *

مع قدوم الشتاء، عاد عشاق الأحجار الأثرية. يقدر هؤلاء الكهنة العصريون جرجس حق قدره، إنه فى الواقع يملك مفتاح أسرار عديدة، فهو يعرف كل العادات والتقاليد واللغة؛ أسماء علماء المصريات المشاهير، كأنهم ينتسبون إلى مجموعة لوحات أسلافه. تناول بعضهم العشاء على مائدته، رافقهم أثناء عمليات التنقيب؛ فهو ملم بأدق تفاصيلها. يستطيع أن يميز الأعمال المزيفة من طريقة صنعها. يتوقعون منه الخبرة، التعليق، المعلومة، أو تفصيلة الحياة اليومية التى قد تساعدهم على فهم الماضى. يقوم بهذا تطوعا ويعتبر كسبا لهم كلما رافقهم أثناء زياراتهم إلى المعابد والمدافن.

مضى الشتاء. مد الباحث "سيت" إقامته. لازال حتى الآن يدرس النقوش فى معبد الأقصر باحثا عن آثار "حتشبسوت".

ولذلك يقول جرجس، الحقيقة إن "سيت" ليس أمريكيا. لقد عاش بالتأكيد فى بلاط المرأة الفرعون، كما فعلت "أم سيتى" من قبل، وعاشت فى "أبيدوس" وأقامت مع "سيتى الأول" علاقة حب خالدة. إنه كرجل المباحث الذى يتحرى فيعود إلى مكان الحدث، لكن بعد مرور ثلاثة آلاف وخمسمائة عام، كما لو كان يتذكر ماضياً مبهماً. قال جرجس أيضا إن "سيت" يبعث الحياة فى النقوش فترقص وتغنى فى المعبد من جديد؛

وهو لا يكف عن الحديث عن عصر الجمال و السلام أثناء فترة حكم "حتشبسوت". هى التى نظمت فى معبد الأقصر الاحتفال بعيد "أوبت" العظيم: من أجل الزواج المقدس والولادة الإلهية لفرعون، رمزا لتجدد الخليقة كل عام.

حتما لا ينتسب "سيت" إلى أمريكا، إنه أتى من أعماق الزمن لإحياء الصور فى المعابد، لإيقاظ إله وإلهة من نوم عميق، إنه ذرّة من الذرات الخالدة. لولا المحظورات التى قيدته منذ الطفولة، لما اعترض على زواج "سيت" بسوسن.

تكونت صداقة وثيقة بين الأمريكى وباشا الأقصر القديم، الذى استمر الجميع بحكم العادة ينادونه " يا باشا". قالا إن صداقتهما تكونت منذ عصر "حتشبسوت" . انطلق كلاهما مفتونًا، يتحرى بعشق عن نفس الماضى و نفس العصر. ذلك هو برهان صداقتهما.

لكن "سيت" ذهب بدوره إلى أمريكا، هذه القارة التى تمتلك متاحفها الكثير من الذرات الخالدة. يعرف جرجس جميع القطع المصرية التى أخذت إلى كاليفورنيا، أو شيكاجو، أو بوسطن أو نيويورك. رأى صورها، نهبوا عدداً كبيراً من هذه القطع من مدينة "طيبة" أثناء حياته. وأثناء فصول الشتاء فى العقد الثالث من القرن العشرين، قام بمعاونة فريق "ونلوك" و "هيز" بإعادة تثبيت قطع من تماثيل "حتشبسوت"، التى تملأ قاعة كبيرة فى متحف نيويورك. كان قد أمسك رءوسها بين يديه، ولمس أذرعها، سيقانها، نظر بعين المحب الورع إلى كل تفصيلة فى أجسادها ... يتذكر ذلك كمن يتذكر قصة غرام.

بفكره، رافق "سيت" إلى بلده الجميل أمريكا. ربما يوما ما، سيذهب بنفسه إلى القارة الجديدة، ليشاهد الذرات الخالدة المتناثرة هناك.

أما الآن، فإنه سينظم التماثيل فى متحفه الخاص، يدرسها، يصنفها، يملأ بالصور فراغ الصيف وقسوته.

* * *

كان الجو حارا، بل شديد الحرارة. قرر أن يقوم بمهمته أثناء موسم جنى القطن فى الحقول.

تفضل وردة أن يكون بجانبها فى القاهرة خلال هذا الشهر القائظ. ترتاب فى هذه الأحجار الأثرية التى تسرق منها زوجها، حتى بعد أن انتهت حجة القطن. فما تبقى من الأراضى، تم تأجير قسم كبير منه للفلاحين، ولم يعد يستغل إلا مساحة ضئيلة لنفسه.

أخطأت وردة فى ارتيابها من التحف الأثرية. إنها لا تسرق زوجها. بل يحبها بنفس المقدار، حتى وهى متهالكة. ما زال يلمح فيها بريق جمال من ملامح القدماء، يكفى حتى تتأكد من ذلك أن تفاجئه وهو بمفرده، يتحدث إلى شخص ما، كأنه يقول لها:

- بحبك يا وردتى.

- وردة، وردة بشرى. إنتى أجمل زهرة، بشرة خير، زى خير الفيضانات. بحبك يا وردة. ضمينى فى حضنك.

لو باغتته وردة بشرى وهو محاط بأحجاره الأثرية، ويسبِّح بمسبحته، صلواته تلك، لاستعادت مظهرها المرح اللعوب.

سمعت سوسن تضرعاته فقفزت فى مخيلتها صورة لا تنسى لوردة فى ذلك الشتاء وهى تفاجئهن بالحضور إلى المدرسة قبل الميعاد، وتبشرهن بالسفر إلى الأقصر المشمسة، مرتدية ثوبًا ربيعيا مزينًا بالزهور، وقبعة من القش من إيطاليا. ظلت سوسن تأمل بأيام مشمسة جديدة، للاحتفاء بلقاءات متجددة بين وردة بشرى و جرجس ميخائيل. لكن وردة، الزهرة الذابلة الغارقة فى دموعها، هل فى وسعها الآن أن تتفتح لأيام مشمسة جديدة؟

* * *

يمارس جرجس فى متحفه طقوسًا خاصة.

يرتب حول تماثيلِ الزوجين تماثيلَ أخرى تحيطها؛ الكاهنات، العازفات، الراقصات، حاملات القرابين، والآلهة "بس"، كل هذه التحف التى توضع فى المقابر لرد الحياة إلى الأزواج والزوجات.

فيما مضى، فى شهر بؤونة، عند انتظار ليلة "القطرة"، الدمعة الأولى للإلهة، تكاد الرياح أن تدفن متحفه الغالى، هذه الرياح الساخنة القادمة من الصحراء، التى تعصف خلال الفترة ما بين عيد الفصح وعيد "الخمسين" – لمدة خمسين يوما كما يدل الاسم – تختفى التماثيل الأثرية تحت الأتربة وكأنها مكفنة، تنتظر عناية جرجس. لا يحق لأحد أن يزيل الأتربة غيره.

كان يطرد الخدم. فى قاعة الطعام الكبيرة التى لم يعد يدوى فيها صخب الدعوات الاجتماعية والأفراح، يحضرون وجبته، ينسقون فى أطباق صغيرة الجبنَ الأبيض، والزيتون، والخيار المخلل، وقطع الخبز الشمسى، وبعض الفواكه. ثم يغطون كله بأوان كبيرة، لحماية الطعام من الذباب. وينصرفون.

فى الخارج، تطير العصافير من غصن إلى غصن، تتحاور وتغرد بلغة آمرة، تندفع نحو السماء ثم تنزل نحو الأرض. لا تكون بهذا القدر من النشاط طوال اليوم. ماذا يحدث لها فى الليل ليجعلها تنطلق إلى هذا الحد قبل أن تستعد للنوم؟

فجأة تسكن العصافير. صمت تام، يقطعه أحيانا صرير عجلات عربة خيل، سوط سائق، حصان يخب فى سيره. خلف النوافذ المغلقة، يظل جرجس وحده.

إنه لا يحتاج للطعام البسيط الذى أعده الخدم، التماثيل التى تحيطه توفر غذاءً لبعث حيوات متجددة. حاملات القرابين يقدمن له الغذاء.

يأخذ إحداها ليزيل عنها الأتربة، الخزانة الزجاجية التى تخبئها لم تحمها من عواصف الصحراء. ذرات رمال الخماسين لا تحترم أية خصوصية، تزحف إلى كل مكان، كأنها الموت. كان يخلع عنها كفن الرمال ويجلو جمالها ويعيدها إلى الحياة. يلامس جسدها المراهق وانحناء الساقين المستطيلتين قليلاً لإبراز رشاقتهما، وكذلك ثدييها

المستديرين الرقيقين، بطنها الناعم، عينيها الجميلتين المكحلتين اللوزيتين. فهى قدمت من أسيوط، مدينة زوجته؛ جمالها يشبه جمال زوجته فى شبابها. إن أجمل النساء من أسيوط. مع حاملة القرابين، يستطيع أن يقضى الليل بطوله.

* * *

يوما ما، وصف لسوسن حلما تذكره:

كان سنبلة صغيرة، غضة، معتزة بنفسها ، متجهة صوب السماء. الرجال كالنمل يسعون حوله. ينحنون أمامه، يتوّجونه؛ لأنه يحظى بحب الإلهة التى تحتضنه بين ذراعيها، تحيطه بأمواج عالية من المياه، فيتكاثر ويتحول إلى ملايين السنابل المتوجة. هو وحده يمكنه أن يطعم الشعب كله بالخبز، و ينتج من البيرة ما يكفى لملايين السنين، بل أيضا "البوظة" التى يشربها النوبيون. اكتسح الصحراء بأكملها، ولأنه ينعم بحظوة الإلهة، أعادوا إليه أراضى الوادى. فاستدعى هو، السنبلة المتميزة، كل الكاهنات والراقصات والعازفات وأمطرهن بسيل من الذهب. فأشرقت شمس مبهرة .

أيقظته رعشة لذيذة. كان نائمًا فى مقعده الوثير، ممسكا بين يديه حاملة القرابين المفعمة بالشباب، القادمة من أسيوط موطن أجمل الفتيات. طغى عليه الواقع المرير الذى يحاول أن يبتعد عنه. شعر بأنه متعب، متعب جدا، كأنه يستيقظ بعد ليلة أفرط فيها فى الشراب. تقلب فى مقعده، غرق فى النوم من جديد، ليسترد الجنة التى عثر عليها فى ملاذ الحلم.

نهض مع بزوغ الشمس وشقشقة العصافير. ماذا رأت الطيور فى أحلامها؟ هل رأته فى حلمه وهو سنبلة تنبت من حبة شعير، تتكاثر بلا نهاية فى أحضان الإلهة؟ ما رأته العصافير رددته لبعضها، وهى تنشط من جديد كما كانت تفعل عند الغروب. العصافير شاعرات أيضا. يتكلم معها، كما يتكلم مع سوسن.

* * *

كيف يمكن لحبة شعير أن تنمو مرة أخرى من تلقاء نفسها، إنه سؤال طالما حير جرجس. يشعر بأنه يجهل تماماً هيام البذور ببعضها. مع ذلك كان يراها فى الحقول والبيوت فى أقداح، تنمو من تلقاء نفسها، هذه البذور العجيبة التى تتحول إلى سنابل.

فى كل عام، بمناسبة عيد الميلاد القبطى، نملأ أقداحًا مستديرة، أو بيضاوية، أو مربعة بحبات القمح، والشعير، والذرة، والفول، والحلبة.

نضعها على حواف النوافذ، فى الحدائق، لتتحول إلى سنابل فى عيد الميلاد، الذى يوافق يوم السابع من يناير. نكرر زراعة حدائق "أوزوريس"، الإله القديم الذى كان يرمز للموت والبعث، "أوزوريس"، الإله الذى كان حبة شعير. فى بيوتنا، نضع القطن المبلل بالماء فى قاع الأقداح الصغيرة، تنمو الحبة فى هذا الفراش الرطب. كان الفراش فيما مضى مكونا من ورقة جميز مبللة بالماء، فالماء والجميز يرمزان إلى الإلهة.

في فترة حداد جرجس على والده، تمنى أن يشبه حبة الشعير. وتساءل عما إذا كان يود بالفعل أن يكرر حياته مرات عديدة بلا نهاية، مثل حبة الشعير، وإذا كان والده يرغب في ذلك أيضاً.

استيقظ بعد الحلم فجرا فرواه لسوسن، واستحضر كل أحبائه. فجأة تبخرت الأحزان والأحداث التي مر بها في شيخوخته، هذه المآسي ما هي إلا هبة رياح طارئة. لو استطاع فقط أن يعيش مرة أخرى اللحظاتِ المزدهرة في حياته!

ما زال يمسك بيديه حاملة القرابين. أعد نفسه بتمهل لمواصلة اليوم الجديد، يطير قلبه فرحًا، فرحًا غريبًا. استشعر أن تلك الفرحة سريعة الزوال. يود أن يحافظ عليها، فتعهد لنفسه في هذا اليوم المشرق باجتناب صحبة البشر. إلى أن يعود الشتاء، ومع الشتاء علماء الآثار، كبار كهنة هذا القرن. سيذهب نهاراً إلى الصحراء، في الجانب الآخر من النيل. إنه ليس السنبلة التي تتكاثر وتزرع الصحراء كما في حلمه. ظلت الصحراء مكانًا للمعابد والمدافن، ومصدرا للأحلام. سوف يلاحق الحلم.

* *

إنها مهمة ملحة، عاجلة، لابد أن ينجزها. هو وحده الذي يعرف أصل كل أثر يحمل فنا، وإلى أي عصر يعود. يختزن في داخله ذاكرة علماء الآثار، وذاكرة أجداده وأبيه. سوف يورث تحفه التاريخية الغالية لأبنائه، ويقدم لهم مفاتيح التذوق كهدية قيمة حتى يستمتعوا حقا بجمال كل ذرة منها، جمال يزف بشرى فجر جديد.

حدد كل شىء فى مخيلته، منهج الترقيم ونقل المعلومات على بطاقات، بأسلوب غاية فى الدقة. أضاع معظم الوقت فى أعمال الزراعة واللقاءات الاجتماعية. لابد الآن أن يلتزم بدور المتقاعدين العظيم، توريث الخبرات النفسية عبر حياة طويلة حافلة بالأحداث، كأنها وصية روحية للأجيال التالية.

سيشرع أولا فى وصف النساء : حاملات القرابين والراقصات والعازفات والإلهات. بعض التماثيل من البرونز، والبعض الآخر من الحجر الجيرى، أو من الحجر الرملى. بعضها منحوت فى قطع من الخشب، أو العظم أو الجبس. بعد ذلك، سينتقل إلى الآلهة "بس" بقاماتهم الضئيلة، المغلق عليهم فى الخزانة السرية، التى أثارت فضول بناته الثلاث. يروق له عدم احتشام قدماء المصريين، رغم تربيته المحتشمة. لا يخافون أو يخجلون خجلاً مصطنعًا من العلاقات الجنسية، كما حدث فى ليلة زفافه مع وردة. فكر أن يضع هذه التماثيل على رأس القائمة، هذه التماثيل التى تثير الحواس الخاملة وتحث الرغبة.

* * *

توالت الأيام، تجلب معها نوعًا من الترضية بأن يكون بقية من بقايا مجرى حيوات ماضية.

اعترضت أسرته، وخاصة أبناؤه فى القاهرة، على بقائه فى الأقصر بمفرده.

لم يستجب. أخطرهم أن أمامه أعمالا كثيرة، تتعلق بتحفه الفنية القيمة. يحتاج لوقت كاف؛ لإنجاز ما بين يديه من مهام، ووعد بالعودة حالما يسير العمل وينال ما يستحق من عناية.

قضى وقتًا طويلاً، طويلاً جدا في دراسة حاملات القرابين، أثناء الليالى الصيفية من روعة جمالها.

سهر في الليل حتى وقت متأخر، والنوافذ مفتوحة عن آخرها. النسمة الخفيفة والقمر، ونجوم السماء، كلها شاهدة على مدى عشقه وولعه. وكذلك الأشجار التي تحتمي بها العصافير النائمة.

سوسن وناجى

لا تترك سوسن والدها وحده لأجل طويل.

حتى فى وقدة القيظ، تنزل إلى الأقصر.

هل وصفت له أول قبلة؟

* * *

لم يضبطهما أحد. أوقف ناجى السيارة على حافة النيل فى الزمالك، تحت ضوء مصباح خافت. عيونها المتقدة، تعبر عن الحب والسعادة الغامرة، ينظر إليها بخجل بعيونه العذبة المختبئة وراء نظارة يلبسها مثقف قصير النظر. حتى ارتباكه عذب عندما يكف عن الضحك.

كشفها جرجس. يشع الغرام فى عينيها؛ إنها محبوبة.

* * *

تعرفا على بعضهما منذ أكثر من عامين. شعرا خلالهما بارتجافات المتعة الرقيقة، حينما لمست شفاه خدًّا، ويدٌ يداً أخرى، وحينما تلامس الكتفان.

صبر جرجس حتى ليلة زفافه ليقبل وردة لأول مرة. لكن مدة خطوبتهما كانت قصيرة، لم تزد على عدة أشهر.

طال الحديث بينهما فى تلك الليلة، ليلة القبلة. تخللت الحديث لحظات صمت طويلة، يشردان عن الكلام فى بعض الأحيان، لا ينتبهان إلا لنبض جسميهما وبالشفاه الملتهبة المليئة بالوعود. اتفقا على القيام بمغامرات كثيرة. سيذهبان معًا فى رحلة شهر العسل إلى منابع النيل بسيارة "جيب"، عبر الصحراء، إلى السودان وإريتريا ثم إثيوبيا. سيقضيان العمر معا فى رحلة استكشاف عظيمة.

من شدة رغبته فى بناء حياة مشتركة، كان يود أن يسرع فى الزواج. لديه منحة إلى الولايات المتحدة لمدة عام واحد. لو أنها رضيت.

لماذا لا ترضى؟

إنه يعجبها. فى نظرها، ليس هناك اختيار أفضل. ووافق جرجس على زواجهما وبارك اختيارها.

* * *

هل وصفت القبلة الثانية لوالدها؟

تكررت فى عيد الربيع. فى شم النسيم. يوم اثنين فى عيد الفصح. تجمع الأصدقاء فجرا فى حديقة الزمالك للإفطار. وضعت البصل تحت الوسائد وعلى باب المنزل. ثم فركت أنف كل مدعو بالبصل، إنه رمز للبعث؛ يغوص فى الأرض و ينمو صاعداً نحو النور، إنه كنسمة الصباح فى أيام الربيع. غرس جرجس فى وجدانها حبا جما لرموز البعث. البصل فى ذلك اليوم هو الملك. يملأ الشوارع فى المدينة و القرى والبيوت والحدائق، إنه عنصر رئيسى فى الوجبات التقليدية مع عناصر أخرى

مثل البيض والفسيخ، السمك البورى المملح الذى يصطادونه فى مياه البحر المختلطة بمياه النهر، ويحضرونه بالملح المكثف فى صفائح مطلية، فوق زوارق الصيادين. تفوح منه رائحة عفن نفاذة للتعبير عن تجدد الطبيعة.

فى يوم العيد هذا تقاذف ناجى وسوسن البصل. وقضما معًا البصل، وقبلا بعضهما بشفاه تفوح منها رائحة البصل النفاذة.

* * *

كانت سوسن تأخذ معها الكتب والأسطوانات والأكورديون وهى ذاهبة إلى جزيرة الموز، فى كوخ "عزلة".

لم تر ناجى ثانية مرات كثيرة. مع ذلك، ترك كل لقاء أثر سحابة حالمة.

خرجت فى ساعات الفجر والغسق متجهة نحو الكوخ.

احتفظت بمذاق القبلات الأولى المختلطة بشارب حلو جذاب شائك. وبالرغبة فى إعادة احتكاك فمها بشاربه وشفتيه الساحرتين، لتتذوقها مرة أخرى، وأيضا مرات يتعذر عدها.

أرسل لها ناجى خطابات يشتاق فيها إلى نور عينيها المتقدة.

أتى الفلاحون لمساعدة سوسن فى إصلاح مبنى الكوخ الهش، ويحكون لها حكايات. انشغلت هى بالعزف على الأكورديون، أو تنظيف الكوخ، أو القراءة والكتابة لناجى.

في المساء، تنظر إلى والدها الذى ينظم متحفه، ويحضر قائمة الجرد. وتصغي إليه وهو يحكى قصصه السابقة عن القدماء وعن طفولتها، عن السيدة العظيمة "حتشبسوت" وعن الخادمة التى دفنت حبلها السرى فى حديقة البيت الكبير.

أحبت سوسن قيظ الأقصر تحت ظلال شجرة الجميز، عندما تأتى نسمة خفيفة، وأحبت لحظات الفجر والغسق الممتعة.

لم تصف قبلاتها الأولى مع ناجى لوالدها، بل تحدثت عن المشاكل التى تمر بها فردوس، وعن وردة والعقبات التى تضعها أمام زواج شقيقتها من رجل يرتدى بزة عسكرية ويصبح فرداً من عائلتها. تحدثت أيضا عن ليلى التى وقعت فى غرام شاب مسلم. ليلى المسكينة! صديقها شيوعى. لا تعرف سوسن بالضبط ما ندَّدت به الأوساط الاجتماعية حول ليلى وصديقها. هل لأنه مسلم أم لأنه شيوعى؟ إنها حقا فضيحة. كم تمنت العمة "مينى" أن تدخل ابنتها الدير وتترهبن بدلا من هذه الفضيحة!

أرجئ زواج فردوس بدون تعيين موعد محدد.

سوسن رزينة. تستوعب تماماً التقاليد التى تحتم أن تتزوج فردوس قبلها. ثم عليها أن تواصل دراستها. يهون انتظار يصاحبه تبادل حب عذب.

* * *

تخيل جرجس نفسه منذ الآن فى حفلى زفاف ابنتيه، متأبطا ذراع مدام "مرقس" اللطيفة الماكرة، الفخورة بما أنجزت.

خططت لزواج ابنيها قبل الثورة. هل مازالت تتصور أن هناك مكسبًا بارتباط مزدوج بباشا الأقصر السابق؟ لم تختف مظاهر الثراء تمامًا. حتى الآن يطمعون فى طلب يد واحدة وأخرى من البنتين علىٰ أمل واه بالاستفادة من ثروة الأب. مع ذلك، بدأوا نزع ملكية العائلة المالكة، حتى جرجس تصور أن مثل هـذه الأشياء لا تحدث إلا للآخرين. كنا نسمع العمة "مينى" تتفاخر:

– عيلة غنية ومحترمة. مش زى الأغنياء الجداد، إللى وصلوا السلطة. دول محدثين نعمة!

قالت عن سوسن أو فردوس:

– ده أبوها باشا!

ولمن لا يفهم:

– يعنى بنات ناس، مش بزرميط، ناس مجتدرة من عيلة كويسة.

أضافت مستاءة من مغامرات الشباب فى الخارج:

– ده جرجس باشا كان يجول عليهم آلهة "بس" مزيفين.

أو :

– لازم الواحد يكوِّن عيلة على أساس متين.

ترى العمة "مينى" العزيزة أن سوسن دعامة قوية حقا، جادة ومخلصة، أكثر من فردوس؛ هى العكاز الذى يستند عليه والداها فى

مرحلة الشيخوخة. عزز ذلك إحساسها بالسعادة بالانتساب إلى عائلة جرجس.

بعيونه الخبيثة الحنون، نظر جرجس بإعجاب إلى هذه السيدة التى استطاعت أن تدبر أمورها وترسم خططًا محكمة ناجحة لنجليها. فهو أيضا يحلم بمستقبل عظيم لابنته. لذلك يقدر طموح العمة "مينى".

سوف تتزوج. بعد فردوس.

كيف أدت الحرب الصغيرة فى الشرق الأوسط إلى خلق معسكرين فى الحرب الباردة ؟

لم تنته مواجهة الأحداث الجديدة فى عائلة جرجس على المستوى العام والخاص.

بدأت الحرب الباردة بُعيد الحرب العالمية الثانية. تقاسم الروس والأمريكان العالم فى يالطا. نظما معًا لعبة تسمى "تحريك الدمى"، شهيرة فى الدول الأنجلو - سكسونية، ولعبوها مع الدول الصغيرة التى يسيطرون عليها. يقولون من يأخذ "البرتقال" ومن "الليمون؟". سرعان ما تحولوا إلى معسكرين. اعتنق البعض المذهب الشيوعى واختار البعض الآخر الليبرالية الاقتصادية.

فضلت بعض الدول عدم الاشتراك فى هذه اللعبة البغيضة. تحالف "الريس" مع مجموعة من الدول. فى باندونج، كونوا تحالف دول عدم الانحياز، لكن للأسف ظهرت النبرة أو اللازمة المعهودة منذ قديم الزمن.

"من ليس معنا فهو علينا".

لو اخترنا أحد المعسكرين، سنختار الأمريكان دون أدنى شك. لا نعرف الروس، لكننا تعرفنا على الجنود الأمريكان أثناء الحرب العالمية الثانية، وجدناهم ظرفاء وفى منتهى الشجاعة.

كنا نفهمهم، فهم يتحدثون اللغة الإنجليزية، وهم ليسوا إنجليز. تعرفنا عليهم فى الأقصر فى مواقع التنقيب، رأيناهم وهم يصورون مولد سيدى أبى الحجاج لدار المحفوظات فى متحف نيويورك؛ يرممون قطع تماثيل "حتشبسوت" لإعادة المرأة الفرعون إلى الحياة. أثر نزلاء "بيت شيكاجو" الصغير، البسطاء والأثرياء معًا، بلهجتهم على حد قول أهل الأقصر، "المكسرة" اللذيذة. الأمريكان هم "سيت" على سقالته وهو يرسم بعشق تفاصيل الماضى. كلما قدمه جرجس لأصدقائه، سماه "ملك طيبة الحق". ينتظر الشتاء بفارغ الصبر ليلتقى به مرة أخرى... ماذا حدث فجأة فى تلك اللحظة التاريخية حتى يتحول وجه الأمريكان الباسم إلى قناع من أقنعة الشيطان؟

* * *

واجهت حكومة الثورة مشكلة تمويل بناء السد العالى. كان "الريس" يحلم بأن يحبس نزوات الفيضان المتقلبة، أن يغير وجه مصر القديم الثابت منذ آلاف السنين، هذه الطبيعة المكونة من الأموات ومن معجزات الأحياء .

أراد أن يضع المشروع القديم الذى ظل مركونا فى الأدراج موضع التنفيذ: تخزين مياه نهر النيل أثناء الفيضان وتوزيعها بتقطير على

المزارعين، والانتصار على الصحراء البور الميتة. حذر بونابرت من قبل من ضياع ولو قطرة ماء واحدة فى البحر. رغم تعلية خزان أسوان مرتين: عام ١٩١٢ و ١٩١٤ ، التى أقلقت عشاق جزيرة "فيلة"، فإن التعلية لم تمنع فقدان مياه غزيرة فى البحر. هدف البرنامج الطموح هو إحداث ثورة على الطبيعة ذاتها.

هناك أيضا مشكلة التسلح. فقد سبق أن حارب الجيش المصرى حربا مهينة أدت إلى الهزيمة بسبب الأسلحة الفاسدة فى الحرب المحدودة، بعد أن مر "الريس" بهذه التجربة وقتها، فكر بعد توليه الحكم أن يؤسس جيشا قويا يملك أسلحة جيدة الصنع.

لو طلب "الريس" مشورة جرجس، لسمع منه أن الكلمات أقوى من السلاح، كلمات كالتى تغنى بها "تحوت" عن جمال البلاد ليهدئ غضب الإلهة اللبؤة ، وليعيد تلك الإلهة القطية الجميلة الخصبة كالفيضان إلى مصر.

لكن "الريس" لم يطلب مشورة جرجس. حتى لو فعل، لن يستوعب اللغة التى يتحدث بها جرجس. كم من مرات، قال جرجس ليحيى إن سباق التسلح مرض العصر المخجل. ابتسم يحيى بالطبع لهذا المنطق، وخاصة أنه يدير أبحاثا فى الجيش لتحسين مستوى المدافع والبنادق. كيف يأخذ كلام جرجس على محمل الجد؟

ارتاب الأمريكان فى حيادية "الريس"، فهم مستعدون لتمويل بناء السد وتسليح جيش "الريس"، بشرط أن يتخلى عن سياسة عدم

الانحياز ويدخل فى تحالف مع إنجلترا وتركيا، غزاة مصر السابقين. رفض "الريس" واشترى أسلحة من تشيكوسلوفاكيا التى تنتمى إلى المعسكر الآخر، الروسى.

العلاقات الطيبة التى نشأت بين دول عدم الانحياز باءت بالفشل فى النهاية. اعتبر الأمريكان شراء أسلحة من تشيكوسلوفاكيا ميثاقا مع الشيطان؛ فرفضوا تمويل بناء السد العالى.

* * *

تنتشر الأنباء عاجلا بين تجار التحف الأثرية. أشاعوا أن بعض أصحاب المقتنيات الثمينة يستعدون للهجرة. إنهم كطيور شؤم متفرقين يتزايدون بسرعة مرعبة، معظمهم من الأجانب أو من بلاد المشرق، ونادرا من أصول مصرية. ينتمى هؤلاء إلى الطبقة التى حازت امتيازات خاصة منذ قرابة قرن بأكمله. توقعوا قدوم أيام صعبة بعد قيام حرب فلسطين الأولى. بعضهم باع أراضيه قبل صدور قانون الإصلاح الزراعى، وهرَّبوا أموالهم إلى الخارج، وفى المقدمة، مقتنياتهم الخاصة. ترك البعض الآخر مصر بعد الثورة، بدون بيع أراضيهم. استعانوا بالحقيبة الدبلوماسية للسفارات الأجنبية، وفيما بعد بمساعدة ضباط فى الجيش.

تضاعفت هذه الطيور المشئومة بسرعة مذهلة، كأنهم سرب من الحدآت تتنافس مع أرتال من الجراد، وتسود أفق تهيأت لاستقبال شمس جديدة.

* * *

قـرر جـرجس أن يقـضـى شـهـر يوليـو من ذلك العـام مـع أسـرته فى الإسكندرية. زاره شـخـصـان فى كابينة سـيدى بشر بدون مـوعـد مسبق. طلبا مـن جرجس شـراء تحفه الأثرية : أحدهمـا ألمـانى والآخـر إيطالى. تتذكر سوسن الحوار كأنه حدث بالأمس:

– اطلب فلوس كام؟

– سعرك هـو سعرنا . نحط الفلوس فى بنك سويسـرى ولا من شاف ولا من درى.

رفض جـرجس. كيف يقتـرحـان عليـه مـثل هذه الصـفـقة؟ إنه أمـر مشين! رفعا الثمن بإلحاح:

– قول أى سعر، ندفع.

لا يريد جـرجس أى ثمن مـهمـا كـان. هذه التـحف الأثرية تحـاوره وتحدثه عن عشق الشموس والأقمار وحبات الشعير، تنسيه حتى تـأميم أراضيه، تنسيه حتى مصير ابنيه، تهدهده بأحلام الشباب، تبشره بأيام الفجر الجديدة. لا يمكن أن يفارقها ولو بأى ثمن فى العالم.

ولد جرجس بروح لا تعرف الشؤم ، بل تثق فى المستقبل.

* * *

قال "الريس" فى احـتفـالات قيام الثورة، فى ذلك الشـهـر من يوليو الذى قضاه جرجس مع عائلته فى الإسكندرية، إنه لا يريد أموال الأمريكان. سـوف يمول بناء السد العـالى فى أسـوان من دخل قناة السـويس، التى تديرها شركة أجنبية وتستغل أرباحها. أعلن تأميم القناة.

فجّر هذا الخبر الرائع سعادة جماعية عارمة. لأول مرة، يرفع صوت مصر بقوة أمام عجرفة وتعاظم الدول المسيطرة على الشعوب الصغيرة، وتحبط خططهم لإعاقة تنمية البلاد. فلا استغلال بعد اليوم. بالنسبة لجرجس، كانت أخيرا الصحوة التى ينتظرها، الفجر الجديد. ليته قد حدث منذ زمن طويل، قبل ذهاب الكثير من التحف الأثرية إلى الخارج، وقبل الاستغلال الأجنبي لأقيم الموروثات، كنوز الأجداد، الأقيم بكثير من أموال القناة.

عبر أسلاك الهاتف، التى تربطهما، من طرف إلى آخر فى العالم، تحدث ناجى وسوسن عن المستقبل. لم يعد يريد أن ينشئ عيادة خاصة ويعالج الأغنياء فحسب، الشعب البسيط أولى بالرعاية من ذوى الامتيازات، والوقاية خير من العلاج. لكن الرعاية الطبية الاجتماعية لن تحقق دخلا كبيرا. النبرة ثورية. يضم ناجى وسوسن صوتيهما للنغمة الجماعية. أتمت دراسة الحقوق وستبحث عن عمل، سيتعاونان معا بدون اللجوء إلى موارد الأسرة الضعيفة.

قضى جرجس شهر أغسطس أيضا فى الإسكندرية. ابتهج لانتصار آخر: سحبت الإدارة الأجنبية خبراءها لشل حركة الملاحة. تم تبديلهم بالمصريين الذين تولوا العمل بيسر فائق. لم يثق أحد بمهارتهم وقيل مرارا إن المصريين ليست لديهم المقدرة على حكم أنفسهم أو إدارة المشاريع الكبرى.

لكنهم أثبتوا عكس ذلك، انتاب مصر شعور بالزهو الوطنى. بُعث شعب عظيم من جديد.

* * *

عاد جرجس إلى الأقصر فى موسم الفيضان وعيد النيروز ليستأنف عمله.

قامت الحرب التى سميت "العدوان الثلاثى الغاشم" أثناء انهماك جرجس بالآلهة "بس". تحالفت فرنسا وإنجلترا وإسرائيل لاحتلال البلاد، دفاعا عن المصالح الغربية فى المنطقة.

استدعى جرجس أسرته إلى مدينة الأقصر اعتقادا منه أنها أكثر أمانا. لم يدر بخلده أن وادى الحمامات يربط العاصمة القديمة بآسيا، فمن المحتمل أن تحلق الطائرات الإسرائيلية فوق البحر الأحمر والأقصر فى طريقها إلى القاهرة. تنتاب السكان الذين لم يذوقوا طعم الحرب من قبل حالة من الذعر، إثر مناورات جوية، أو إثر وميض مشتبه فيه. يصرخ هؤلاء المساكين:

- إكمش!

فينزوون فى ركنهم مرعوبين.

تصور فلاح أنها نهاية العالم، فرمى نفسه فى النيل هربا من هذا الواقع المؤلم.

حلم جرجس برؤى وكوابيس. ماذا لو اشتدت الحرب؟ لو قذفوا القنابل فوق مطار الأقصر مثلما يفعلون فى مطار القاهرة سوف تتأثر الأحجار الأثرية! سوف تنهار الأحجار الأثرية! رأى فى كابوسه الطائرات فى سماء الأقصر، تتضاعف، تتكاثر، تهدد روعة الأراضى الجميلة. التمس معونة "حتحور"، تضرع إليها حتى تهمس له فى أذنه بكلمات "تحوت" الشافية، التى تقضى على جنون الدمار.

* * *

أعلنوا منع التجول. وضع جرجس المتاريس على أبواب البيت الكبير، وسهر مع أسرته على أضواء الشموع.

قضوا معا أوقاتا جميلة على أضواء الشموع، رغم الاضطرابات الضخمة التى هزت البلاد. التفت العائلة كلها حول الأب، حتى الأخ الكبير الذى حضر من أسيوط. تأملوا معا كل قطعة من مقتنيات جرجس، تعمقوا فى دراسة رموزها وتاريخها، تعلموا فك رموز الخطوط الهيروغليفية المنحوتة عليها، وتفتحت أذهانهم كالزهور لسر افتتان جرجس بتحفه الفنية.

تتجدد سعادة سوسن وهى تروى لى هذه اللحظات المتميزة. ننبش معا فى ذكرياتها، وفى قلبينا أمل محال، أن نضع أيدينا على الكلمات السحرية التى قد تنقذ المستقبل وتحمى الجمال، وتجلب الحياة.

* * *

بدأت الهجرة، بسبب "العدوان الثلاثى الغاشم". اضطرت بعض الجاليات التى تحمل جوازات سفر إنجليزية وفرنسية، وبعضهم من اليهود، أن تترك كل ممتلكاتها، وتبيع كل شىء بأسعار رخيصة. يقتنى بعضهم تحفا فنية رائعة. لم يشعروا كغيرهم من قبل بالخطر القادم، فتخلصوا من كل ممتلكاتهم فى غضون ساعات، أو أيام، أو فى بحر أسبوع على الأكثر. فتحت أبواب الهجرة، هجرة يهود الشتات الذين سنلحق بهم أفواجًا متتالية، تقذفنا مثلهم عاصفة عنيفة إلى أقصى أرجاء الأرض.

نقل شاهدو عيان لجرجس ما رأوه بأنفسهم. عرضوا في الشوارع ومروا على المنازل في القاهرة والإسكندرية بالأوانى الصينية، والأكواب الفاطمية، بأكفان قدماء الأقباط، بوجوه الفيوم، بالآلهة، بالإلهات، بالنبلاء، وتماثيل الأوشبتى الأثرية، لبيعها بأبخس الأثمان. لا يعرف الرجل العادى قيمتها. يفضل طبق العدس على عجائب الماضى. لم تسمح ظروف جرجس المادية بالشراء، حتى بهذه الأسعار البخس، آثار هذا الماضى الذى يعشقه، الذى يدنّس فى الشوارع والبيوت، الذى يعرض كالنساء فى سوق الجوارى، للجهلاء الذين لا يقدرون هذه العجائب الأثرية. لم يشعر فى حياته كالآن بالفقر و العجز المطلق أمام حماقة البشر.

* * *

كان وادى الحمامات طريقًا تجاريا، وسيلة تبادل، همزة وصل مهمة، يمر به بحرية الآلهة والإلهات، فأصبح مجالا للحروب بين ثلاثة آلهة جدد، يدافع أحدهم عن اليهود، ويدافع الآخر عن المسيحيين، والثالث عن المسلمين، وتجيز هذه الآلهة أن يبصقوا على الوثنيين الذين يعبدون الأصنام.

* * *

أُنزل جنود إنجليز وفرنسيون وإسرائيليون بالمظلات فى بورسعيد. أعاد ذلك إلى ذاكرة بعض التجار المصريين أيام الانتعاش فى الحرب العالمية الثانية، فرحبوا بالغزاة أشد ترحيب. المغفلون! قتل قسيس قبطى

بسبب هذا الترحيب، فى الأقصر، هدد الثوار بأن ينتقموا منه لإساءات الغرب لهم. "ح ننسف بيتك.ح نفرجعه بقنبلة".

فى صباح أحد الأيام، وقف جرجس أمام الشرفة. رأى حماراً يمر أمام البيت، حاملاً فوق ظهره تابوت فلاح، وفى داخله صليب. بينما هتف وراءه موكب غفير من الرجال:

– لا إله إلا الله! يحيا الإسلام!

سار الحمار الذى يحمل التابوت بجانب الكورنيش عدة مرات، من فندق "ونتر بلاس" حتى معبد الكرنك.

رأى جرجس أيضا فلاحا يلوح بسكين.

دفن الصليب، صورة ساخرة لدفن المسيح، صورة ساخرة لدفن الغرب. لماذا يجمعون بين مسيحيى مصر والغرب؟ ألا يعلمون أنهم منشقون، وأنهم سيذهبون إلى الجحيم فى نظر المسيحيين الغربيين؟ من الذى يستغل جهل الشعب؟

عاش جرجس وهو على علاقة طيبة بالكل؛ قدمت السلطانة "ملك" لوردة يوم زفافها ياقوتة مرصعة بالماس، رئيس الإخوان المسلمين كان من بين أصدقائه... لا بد أنهم يعلمون ذلك ... جرجس غير مصدق،... يحلم بكلمات سماوية شافية... لكنه عاجز أمام تدفق أمواج الجهل التى تزحف نحونا كالعاصفة.

* * *

انتهت الحرب الثانية ضد إسرائيل عندما هدد الأمريكان الروس بالتدخل.

أقام جنود الأمم المتحدة فى مدينة الأقصر لحفظ الأمن. خلق تواجدهم نوبات غضب شعبية، خاصة قرب الاحتفالات بعيد الميلاد. ثارت التجهيزات لسهرة العيد صرخات الضغينة والتهديدات:

– عايزين يرجصوا وجثث أخواننا مالية شوارع بور سعيد؟!

نقل المسئولون فى الفنادق الوضع الحرج لجرجس، الذى طلب من رئيس الإخوان المسلمين التدخل فى هذا الشأن.

يشبه رئيس الإخوان المسلمين أستاذه القديم حسن البنا. إنه يجيد استخدام الكلمات الناعمة كالحرير والكلمات الأخرى المحرضة والمخدرة. تحدث مع جرجس بلهجة هادئة لأن جرجس رجل التفاهم والحوار.

قال جرجس لرئيس الإخوان المسلمين:

– دول رجالة بيجازفم بحياتهم عشان يحافظوا على الهدنة.

فأسكت رئيس الإخوان الكلمات المحرضة الموجهة للشعب. مرت أعياد رأس السنة وعيد الميلاد فى جو من الهدوء.

هكذا عرفت المدينة أن جرجس يعتبر هذا الرجل المبارك من أصدقائه المقربين. اختفى الحمار الذى كان يمر أمام البيت الكبير الذى سخر من المسيح ويدفن الصليب فى تابوت فلاح.

* * *

استؤنفت الدراسة فى المدارس فى اليوم التالى بعد الأعياد؛ فغادرت أسرة جرجس إلى القاهرة.

عاد ناجى من أمريكا أثناء القصف عن طريق السودان. مرت طائرته فوق بيت الأقصر دون أن يعلم بوجود سوسن هناك.

التقت سوسن وناجى فى القاهرة.

بقى جرجس فى البيت الكبير، محاطًا بأحجاره العتيقة، حارس أحجاره الغالية، الأحجار التى يقتنيها، وكذلك التى لم ترفع من الأنقاض بعد.

قال:

- الأرض لسه مخبية كنوز ياما!

كان وحده فى الأقصر عندما أعلنوا أن السد العالى سيموله الروس دون مقابل. هذا الكرم أنسانا غزوهم للمجر بالدبابات والمدافع الرشاشة، لخنق الأمل فى النفوس بقدوم ربيع جديد. انتهت الأوهام الجميلة أن تظل مصر من بين دول عدم الانحياز، وأن تركز على تنمية البلاد، ومن يعلم، ربما تهتم بإبراز جمالها المبهر.

دخلنا من أوسع الأبواب فى خضم الحرب الباردة بين المعسكرين إلى جانب الروس.

* * *

استمر العمل حول معبد الأقصر ببطء، كما لو كانوا يريدون إبراز قيمة البيت الكبير. هدموا المنشأة المتبقية شمال الصرح الضخم. اكتشفوا جزءا من طريق الكباش. تخلصوا من الردم الذى يوصل إلى جامع أبى الحجاج. يوما ما، تكسرت البوابة الضخمة التى تروى بالنقوش البارزة أحداث انتصار "رمسيس الثانى" فى "قادش". أثرت الفيضانات الثلاثة الأخيرة على التراب الذى يسند البوابة، فتزعزعت فجأة.

عالجوا البوابة علاجًا عاجلاً بحقنها بالأسمنت. لا يتوفر المال ولا الوقت لتفكيكها وإعادة تركيبها كما حدث من قبل بالنسبة للعمود الثالث فى الكرنك. الأهم الآن، هو إنقاذ المعابد النوبية التى ستغمرها قريبا مياه السد العالى.

تابع جرجس بدقة أعمال الإزالة حول معبد الأقصر، كما لو كان صاحب المشروع. لم يعد هناك شىء يفصل بين البيت الكبير ومعبد الأقصر. لا شىء سوى ظهر أبى الهول، مسلة، تمثالين ضخمين، بوابة رائعة، غاية فى الروعة، رغم أنها لم تعالج إلا سطحيا بحقنها بالأسمنت، ورغم أنها تمجد مآثر محارب...

زواج فـردوس

تدهورت صحة وردة. لا تستطيع ثنى ركبتيها. اتضح أنها تعانى من الرومـاتيـزم. تزايدت شكواها من آلامـهـا الجـسـدية، وقل تذمـرهـا من العسكريين. حينما تخف الآلام، تنتابها حـالة هدوء غير مألوفة. تصورت الأسرة فى أول الأمر أنه الهدوء المصاحب لسن الحكمة، ولم يتخيلوا أنها أصـيبت بضـعف ذهنى. تصـوروا أيضـا أنهـا تدعى عـدم تذكـر وظيـفـة يحيى، الذى حرص على ألا يظهر أمامها بالملابس الرسمية، احـتراما لمشاعرها. فى يوم من الأيام، عاد من الغردقة بعد رحلة صيد طويلة، عن طريق وادى الحـمـامـات، صـدره شـبـه عـار، قـمـيصـه وشـعـره مـهـوش. استقبلته وردة على أنه ضيف غريب، تقابله لأول مرة.

استـغـرقـوا وقـتًا طـويلاً حـتى أدركـوا الحـقـيقـة. أصـيبت وردة بتصلب الشرايين.

* * *

شمس الأقصر، تصنع المعجزات فى علاج الأمراض الروماتيزمية، لكنها رغبت فى أن تجرب شمسًا أخرى، شمس حلوان، ضـاحية أنيقة فى شمال القاهرة، يذهب كل المصابين من طبقتها الاجتماعية شتاء إلى نبع المياه الكبريتية فى عيون حلوان.

قالت لها العمة مينى:

– مش ح تخسرى حاجة، هناك ح تلاجى سر الفراعنة. الوصفة اللى ترجعك شباب من تانى.

يتناولون عادة الشاى على الطريقة الإنجليزية فى الرابعة بعد الظهر، وسط الزهور فى حديقة المنزل. يتجاذبون أطراف الحديث حول الإصلاح الزراعى والسد العالي. الملفت للنظر أن وردة لم تشترك معهم فى الحديث، بل تفكر فى الخبر الذى يقلقها. بعد أن وضعت كل آمالها فى العلاج السحرى الذى سمعت عنه بحلوان، الضاحية الجميلة التى تحتوى على نبع مياه لا مثيل له فى العالم، ستقام هناك المصانع، كل المصانع. بدأوا بإقامة مصنع الحديد والصلب العملاق الذى تستخدم فيه مادة أولية جاءت من مسافة تبعد عن "طيبة"، من مدينة أسوان. إنه المعدن الذى استخدمه رسامو الماضى فى تلوين النقوش البارزة باللون الأصفر الأوكر. سينتقل المعدن مقلدا الرجال الذين يتركون القرى بحثًا عن الرزق فى العاصمة. بدأت وردة تفقد الأمل فى الشفاء من آلامها المبرحة.

يأتى أولادها للزيارة فى موعد تناول الشاى. كنت أنضم إليهم فى بعض الأحيان، نجلس معًا فى الحديقة وسط الزهور حتى الغروب. لم تعد تتحدث عن الغائبين، وشككنا أنها ربما لا تتعرف تماما على الحاضرين. اشتكت من مصير نبع حلوان ومن آلامها الروماتيزمية التى تتضاعف حدتها، بلهجتها الصعيدية الجميلة التى تغنى مع الشمس.

* * *

في شتاء يوم من الأيام، عام ١٩٥٨، جلست العمة مينى مع وردة فى نفس الحديقة. تخلصت وردة فجأة من آلامها، وسألتها لماذا لم يتزوج الأولاد بعد. فانتهزت العمة مينى الفرصة، طارت بسيارة أجرة إلى البنك، أخذت خاتميها "السوليتير" من خزنتها وأعطتهما إلى ابنيها. ذهب كل واحد منهما على انفراد لتناول الشاى فى الساعة الرابعة بعد الظهر، فى حديقة حلوان. وضع يحيى الخاتم فى إصبع فردوس وسط الزهور.

أما ناجى فقال شارحا لسوسن:

– بلبسك الدبلة فى صباعك الصغير، لإنه واصل للجلب على طول. عرفت الحكاية دى وأنا باجرا فى طب الفراعنة.

أصبحت خطوبة ناجى وسوسن رسمية. وبدأت الاستعدادات لفرح فردوس.

* * *

كم كانت حفلة زواج فردوس غير عادية فى ضخامتها.

أقيمت فى عز الصيف، فى أواخر شهر يونيو، فوق سقف فندق سميراميس القديم، والسماء مرصعة بالنجوم، بعد إقامة طقوس الزواج المقدس فى الكاتدرائية المرقسية.

قرروا ألا تقل فخامة حفلة فردوس عن فخامة حفلة بسمة. أخرجت العمة مينى كل ما لديها من أموال فى الأدراج. قلب جرجس كل ما فى جيوبه.

وزعوا صحونا فضية مليئة بالملبِّس بسخاء على هيئة منافض سجائر فضية جميلة الصنع، مليئة بملبِّس أبيض ووردى وأزرق. فصلوا ثوب الزفاف عند أشهر خياطة في ذلك الوقت، بقماش حرير من "ليون" ودنتلا من "شانتيي". حضر على رأس القائمة أعيان الأسرتين؛ عما ناجي: مراد باشا بقرنفلة معلقة في العروة، وصادق باشا بشاربه المعقوف، وقد ارتدى كل منهما بزة بيضاء وطربوشا أحمر. لم يجدا بديلاً مناسباً للطربوش التركى عبر سنوات الثورة. مازال من المعالم المهمة في مظهرهما، مثل البزة الإنجليزية، مثل القرنفل الذى يوضع في العروة، القرنفل الذى يحصل به مراد باشا على الجائزة الأولى في جميع مسابقات الزهور. ارتدت زوجة صادق باشا، ابنة عم وردة من جانب عائلة ويصا، ثوبا طويلا من الحرير الأبيض، وإكليلا من الماس، ومسكت مروحة مصنوعة من ريش النعام؛ أنيقة على نفس درجة أناقة وردة في الماضى. نافستها العمة مينى في الأناقة بثوب ضيق أسود اللون مرصع بمجوهرات قيمة صنعت في مطلع القرن. تصدر عما ناجى وزوجتاهما مائدة الشرف الرئيسية، بجوار جرجس ووردة والعمة مينى. أصبحوا أسرة واحدة، يعلقون على أنجالهم بحنان، رغم أن هؤلاء الشباب يتوهمون أن في استطاعتهم إعادة تنظيم العالم. كانوا شباباً هم أيضا في يوم من الأيام. وصلت أخوات العمة مينى مع أزواجهن، خالات وأخوال وردة والعمة مينى. جاءوا خصيصاً من الأقصر، من حور، من الإسكندرية، من جميع أنحاء العالم، يرتدون المجوهرات الثمينة وملابس الحرير والدنتلا. اختلطوا بضباط الجيش، زملاء يحيى، وبزوجاتهم. تكلف الجميع مبالغ ضخمة ليظهروا بنفس القدر من الثراء أمام

البرجوازية القديمة، اشتروا مجوهرات خصيصا لهذه المناسبة، محملة بقطع ذهب ولؤلؤ ثقيلة. ينتسب بعض الضباط إلى إحدى العائلتين أو إلى الأخرى، أو جاءوا من نفس قرية أحد أبناء العم العديدين، فيكتشفون أنهم من نفس البلد، ويربتون على أكتاف بعضهم للتعبير عن سعادتهم بأنهم "بلديات"، هذا الرباط الأعمق من رباط النسب.

كانت مأدبة الطعام فخمة، مصاحبة بالموسيقى لمن يرغب فى الرقص. كعكة الزفاف متعددة الطوابق مزينة بطيور صغيرة مسكرة ومشبعة بالشمبانيا، مثل حلوى زفاف بسمة. جمعت شلالات من الضحك الأثرياء الجدد والفقراء الجدد، وطردت من الذاكرة أرتال الجراد، وسط فيض من الكرم والبهجة. وصل فى الساعات الأخيرة من الليل نجما الحفلة، لم نكن نتصور أننا سنراهما مرة ثانية: نجمة الرقص الشرقى تحية كاريوكا، وعملاق الأغنية العربية محمد عبد الوهاب. قارب عبد الوهاب الخمسين، صوته يثير الحنين فى النفوس وهو يغنى أنشوداته الرومانسية الطويلة. تحية؟ منتهى الشباب. جسدها وهو يرقص كالزوبعة التى تثير الدوار، تجذب المتفرج نحو حركة دائرية أبدية. مازال يتذكرها من شاهدها فى الماضى بإعجاب. ليس لها مثيل. أحس الأثرياء الجدد والفقراء الجدد بنفس القدر من الانتشاء أمام مستوى أداء تحية كاريوكا الجذاب، وأمام رقى فن عبد الوهاب، الذى يفجر فى النفس الحنين.

غادر آخر المدعوين فى الساعات الأولى من الفجر.

كم كان زواج فردوس ويحيى جميلاً!

الأيام الصعبة

حاولت سوسن وناجى التكيف مع الظروف الاقتصادية الجديدة.

عينت فى القسم القانونى بجريدة الأهرام، وعمل ناجى فى مشاريع التنمية الريفية. رغم ضعف المرتبات فى ذلك الوقت، فإنهما بالمرتبين نظما معًا الإنفاق على قدر المستطاع.

* * *

اتخذت الدولة سياسة جديدة على الصعيد العربى، قادت البلاد إلى طريق مسدود، إلى وهم كبير، توحيد الصفوف العربية تحت راية واحدة، راية الجمهورية العربية الخيالية. ظهرت نجمتان فى الراية الجديدة تمثلان مصر وسوريا. ولإغراء مزيد من الدول، وضم مزيد من النجوم، شرعوا فى كتابة دستور جديد، دون تحديد الدين للدولة، حتى يفسح الدستور مجالا لكل الديانات، مسيحية أو مسلمة أن تشترك.

تحمس الشباب لهذه السياسات الثورية.

حاول جرجس أيضا أن يبدو عصريا، قائلاً ببسمة هازئة إنه عربى. ومع ذلك يعجل بالتصحيح:

– أجصد أنى مصرى – عربى.

يقـول ذلك وهـو يذرف دمعـة صامتة من أعمـاق قلبـه لإلغاء اسم مـصـر من الوثـائق الرسـميـة، هـذا الاسـم العـزيز المحفـور فى الوجدان.

لم تتعجل سوسن وناجى الإقدام على الزواج. ربما لإعطاء الأسرتين مهلة قبل الشروع فى الإنفاق على حفلة زفاف جديدة، أو ربما لأن صحة وردة بدأت تتدهور رويداً.

انتظرا أكثر من اللازم. سرعان ما تبخر الافتتان بالثورة، وترسب الشعور بخيبة الأمل.

فى الساعات الأولى من رأس السنة، فى العقد السادس من القرن، تم القبض فجرا على الشيوعيين بعد سهرة مرحة للاحتفال بقدوم عام جديد. رحّلوا صديق ليلى إلى سجن "طرة". لاحقوا أخته "فخر النساء"، التى تمكنت من الاختفاء عن أعين الشرطة لمدة ثلاثة أشـهر متنكرة فى زى فـلاحـة، إلى أن بلغـوا عنهـا. يسـجنون امـرأة لأسـبـاب سـيـاسـيـة، ويرمونها فى سجن "طرة" مع مجرمين عاديين. إنها ظاهرة غير مسبوقة فى تاريخ مصر.

* * *

بدأ عصر الدكتاتورية والإرهاب. تحطمت الحماسة الثورية حتى لدى ناجى ذاته.

كتب ناجى تقريراً عن أبحاثه لينشره فى مجلة دولية. وصف فى التقرير الظروف المعيشية للفلاح المصرى، المحروم من المياه فى البيوت، الذى يستخدم الترعة لغسل الملابس، وللاستحمام، وأيضا كمرحاض، ويصاب بطفيل البلهارسيا فى باطن قدميه العاريتين؛ يؤثر انتشار الذباب والناموس على عينيه ويسبب أمراض العيون، وحالات الإسهال الحادة القاتلة، مع درجات حرارة لا تقل فى الخطورة عن الملاريا. كل ذلك، إلى جانب انتشار القمل والبق...

فى هذه القرية التى أنشأ عيادته الخاصة، حث الأعيان والفلاحين على تكوين حكومة محلية، لمطالبة الحكومة المركزية بتحسين ظروفهم المعيشية. اعتبرت حكومة الثورة أن هذه المطالب تشكل تهديدا لها، وأنها تمثل ثورة صغيرة على الأوضاع، وقد تتأثر بها القرى المنتشرة فى كل أنحاء الجمهورية. لا تقبل الحكومة أن يتجاوزها أحد، لا تقبل أن يخترق أى مخلوق سلطتها المطلقة.

لم يحصل ناجى على الموافقة من رقابة المصنفات على نشر تقريره عن الأبحاث التى أجراها. تقرير عن القمل والبق! للإساءة إلى سمعة مصر! ذلك التقرير، يهدد كرامة الوطن.

وُضع مشروع التنمية المحلية بعد أن أهملوه، فى دار المحفوظات. أصبح الطريق مسدودا أمام ناجى، ففكر كيف يخرج من المأزق.

* * *

قبل عقدا للعمل لمدة عام فى الخارج، مع المنظمة الدولية التى عمل معها فى مصر.. كان فى وسع سوسن أن تتزوجه وتسافر معه، لكن سوسن امرأة ذات منزلة رفيعة، لها خاصية فريدة، معجونة من طمى أسيوط وطمى الأقصر. يصعب عليها أن تبتعد عن نهر النيل، عن الأقصر، عن القاهرة، عن هذه الخاصية المميزة التى لن تجدها خارج مصر. فضلت الانتظار. عام، عام لا أكثر. قطعًا لن تدوم الأيام الصعبة إلى الأبد.

لكن الظروف الصعبة لم تتغير، بل تدهورت الأوضاع. جدد ناجى عقده عاما. لكن سوسن سوف تنتظر. عام، عام لا أكثر. لن تدوم الظروف الصعبة إلى الأبد.

* * *

تلقت الجمهورية العربية أكبر طعنة عندما رفضت البرجوازية السورية أن تخضع "للريس" المصرى، وأحبطت مشروع الوحدة. مع ذلك، استقبلت من قبل فكرة الوحدة العربية بفرح هستيرى. رقصوا الدبكة فى الشوارع. ارتجلت البرامج الإذاعية الأغانى الحماسية التى تنشد الوحدة والمجد للمستقبل.

رغم فشل مشروع الوحدة، ظلت النجمتان فى العلم الجديد فى المكان ذاته فوق الشريط الأبيض وسط الراية، كأنهما ينتظران أية مبادرة جديدة للمصالحة. كان "الريس" مصمما على تحدى العقبات.

لم يعد الريس فى نظر الأمريكان الصديق "جيمى"، بل عدوهم اللدود، شيطانهم الملعون. إنهم الآن يشكلون تهديدا خطيرا عليه. قد يدبرون مؤامرة ضده بالتعاون مع البرجوازية السورية أو المصرية. عليه أن يحمى نفسه من الباشاوات الذين ظلوا - رغم القضاء على هيبتهم - يحتفظون بمكانة خاصة. عليه أن يحمى نفسه من الأمريكان الذين أعلنوا عليه الحرب الباردة، وأظهروا وجههم الآخر، وجه الشيطان، حيث أصبح الأمريكان بالنسبة للريس ما يمثله هو فى نظرهم، عدوهم اللدود وشيطانهم الملعون.

من بين باشاوات آخرين، استهدفوا جرجس، استهدفوا بيت الأقصر الكبير، ذلك البيت الذى بنى على طراز مختلف، كأنه حصن شيطانى بارز، ومعقل للغرب فى قلب الصعيد.

وضعوا أملاك جرجس تحت الحراسة.

* * *

صدر قانون الإصلاح الزراعى الثانى عام ١٩٦١، وتم تنفيذه فى نفس العام. خفَّض القانون معدل حيازة الأراضى إلى مائة فدان، وللورثة المباشرين إلى خمسين فدانًا. لم يكن هناك فرق بالنسبة لجرجس. إنه تحت الوصاية كأنه قاصر، مكاتب الحراسة الحكومية تتولى هى إدارة أراضيه.

كل ما حصل عليه جرجس من ثرواته، هو عشرون جنيها شهريا، حصل كل ابن على عشرة جنيهات، والبنات حسب القانون على نصف

حصة الولدين. هذه الموارد مجتمعة، لا تسمح لجرجس أن يأكل اللحم في وجبته اليومية، مثله مثل أى موظف بسيط. بفضل مرتب سوسن الضعيف وإيرادات وردة المتواضعة، وبيع قطعة أثاث أو مجوهرات من حين لآخر، استطاعوا العيش بالكاد. يا لسخرية القدر. ظل جرجس، بحكم العادة، يحمل اللقب الرنان الذى ألغاه رجال الثورة. ظل الخدم الأوفياء ينادونه به ، ولم تتوقف وردة عن تكراره ، كأنه لم يلوث من تأثير الأصوات الراعدة التى تبثها أجهزة الترانزستور. بل أصرت وردة على استخدام هذا اللقب الذى لم يمحه المرض من ذاكرتها. تقول له "يا باشا"، تصف بسمة أو فردوس بأنها "بنت الباشا"، وتقول عن ابنها، "الباشا الصغير".

في كثير من الأحيان، يشبه طعام الباشا وجبة العامل: كوسة متبلة، غارقة فى صلصة الطماطم والدهن. لا يظهر الباشا وعائلته أمام الناس فى وضح النهار مثل العمال، وهم يغمسون معا وجبتهم الوحيدة. إنهم يختبئون عن الأنظار بحياء أثناء تناولهم طعام الفقراء.

تعرض جرجس لكل هذه المحن، بينما ارتفع صرير المذياع فى الشوارع، بصخب أشد مما كان، واستخدموا مكبرات الصوت التى أضيفت إلى عدد مهول من أجهزة الترانزستور.

– استغلال الفقراء أدى إلى ثراء الأغنياء.

– مص الأغنياء دماء الشعب.

سخروا جهرا من الباشاوات السابقين.

ألم يحصل جرجس على امتيازات أثناء تطبيق نظام الامتيازات الأجنبية، حيث يحاكم أكبر الأنذال فى محاكم خاصة ترأسها قناصلهم المنحازون؟ عليه أن يدفع الثمن الآن.

ألغيت المحاكم المختلطة منذ اتفاقية "مونترو"، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك، ذكروا الشعب بها مرة أخرى، وأشعلوا النار والمرارة فى النفوس. يهاجمون الشر، الذى جسدوه فى الطبقة البرجوازية المنحلة التى يجب تصفيتها.

وصلت إلينا حينئذ أغانى "جاك بريل" التى تبصق على البرجوازيين. من المفارقات العجيبة، لم تردد هذه الأغانى إلا فى الأوساط البرجوازية. أما فرنسا، فظلت مصدر ريبة لدى الحكومة كالبرجوازيين.

عانى جرجس من تقلبات الدهر.

* * *

ابن جرجس من زواجه الأول، فخره وفخر الطائفة القبطية بأسرها، الذى سمى ميخائيل على اسم جده، الذى استقال من منصبه كسفير، استطاع أن يبنى حياته من جديد وأصبح محاميًا ناجحًا مشهوراً.

حضرت إلى مصر لجنة فرنسية لاستئناف العلاقات الدبلوماسية التى انقطعت إثر الوضع المؤسف للغزو، الذى سمى "العدوان الثلاثى الغاشم". دعا ميخائيل أعضاء اللجنة إلى مكتبه. ألم يكن سفيرا لمصر فى باريس من قبل؟

اتهموه بالتجسس. قالوا إنه تواطأ مع الفرنسيين لإحداث انقلاب في الحكم. سجنوه. لم يفرجوا عنه إلا بعد ستة أعوام، بعد الضغوط التي بذلها قائد ثوري آخر على الحكومة المصرية؛ الرئيس الجزائري "بن بللا".

أفرجوا عنه بدون أن يستعيد حقه في ممارسة مهنته كمحام. فأصبح ميخائيل مفلسا.

اعترف "الريس" في حديث جانبي مع صحفي مصري أنه لم يأخذ هذه المؤامرة مأخذ الجد، ولكن انتهزها فرصة للانتقام من البرجوازيين المنحلين.

* * *

تورطنا في حرب اليمن، لا نعرف بالضبط لماذا. هل من أجل الوحدة العربية، أم الاشتراكية، أم لخدمة الروس ضد الأمريكان...؟ هذه الحروب الصغيرة، كانت في النهاية من مصلحة المعسكرين في الحرب الكبيرة، المسماة الحرب الباردة، أو الحرب العالمية الثالثة. كنا نستدين من أجل مزيد من التسليح.

حتى يحيى، تغيرت لهجته الحماسية.

* * *

تصورنا أن وردة في مأمن وهي مريضة وفاقدة الذاكرة.

لكن المصائب أثرت على عقل ابن جرجس الثانى، ابن وردة، شمسها المضىء، المفضل من دون كل أبنائها. كان هذا الطفل المدلل يعتبر أن والدته من ممتلكاته الخاصة، هى ومالها ومجوهراتها. ما زال يعرف كيف يلعب على عواطفها وعلى ما تبقى من قدرتها على اتخاذ قرارات. بعد مرضها تضاعف سلطانه عليها. أعطته أموالا و مجوهرات دون أن تتذكر ما هى بالضبط. استعان أيضا بأخواله فى أسيوط الذين لم تتعرض أموالهم للحراسة، الذين يحبونه مثل وردة ويدللونه بنفس القدر. الأخطر من ذلك، اتهم إخوته بسرقة ثروته وثروة أمه، بإهانته شخصيا، بينما كان هو الذى يسرق والدته، ويهين الآخرين فى معظم الأحيان.

يوما ما، سرقت منه مجوهرات كان قد أنكر أنه أخذها من والدته. لم يقدم بلاغا للشرطة خوفًا من أن تكتشف الأسرة الحقيقة. صعقه الحادث وأصيب بنوبة قلبية.

* * *

وردة، خلقها الله غير كل النساء؛ زهرة تتميز عن كل الزهور.

من يتذكر صورة وردة، السيدة الجميلة بالقبعة القش العريضة، وعقد اللؤلؤ الذى ينافس فى أناقته ملكة بلجيكا والكونتيسة "دو كرمان - شيمى". ربما جرجس، فى الأحلام، عندما يلمس حاملة قرابين آتية من أسيوط. اعتدنا الآن أن نرى وردة تهمل نفسها وترتدى ملابس لا تليق عليها من فرط السمنة. ذبلت قبل الأوان من شدة الحزن على فقدان مركزها فى الصدارة. جردها القدر من كل شىء، وعجلت طعنات الدهر

بظهور علامات الشيخوخة المبكرة. سقطت أسنانها الجميلة، وشعرها، وعضلاتها المفتولة القوية، لم يتبق سوى بصيص من الذكريات بعد تصلب الشرايين الذى أثر على مداركها. سرقت طعنات الدهر شبابها وحرمتها من حقوقها وثروتها وتميزها.

مع ذلك قاومت من أجل ابنها، نور عينيها، ثم رأته ينطفئ. اسودت أمامها الدنيا بخيالات الموت. فقدت الباعث على مواصلة الحياة.

أحيطت وردة فى أيامها الأخيرة بكل حنان. ترك جرجس تماثيله الأثرية وظل بجوار فراشها طوال الوقت. ظلت هى تميزه وتميز أولادها حتى آخر لحظة.

نازعت طوال ثلاثة أيام، طوال ثلاث ليال، بعد إصابتها بالبولة. مكثوا بجوارها إلى أن فارقت الحياة بهدوء، بعد عمر نالت فيه حب الجميع. كانت حقا إنسانة محبوبة.

توفيت وردة عام ١٩٦٣، العام الحادى عشر من حكم عبد الناصر.

مثل الشموس التى تعكس ضوءها على الكون وتخلق عالما من الصور المرئية عبر آلاف السنين، انحنى ظهر جرجس بحمل السنين، واستند على عصاه الضعيفة، ليواصل وحده، رحلة الشيخوخة.

* * *

أخفت سوسن دموعها أمام والدها. يوماً ما، ذهبت بالسيارة إلى الصحراء. توقفت فى "سقارة" ودخلت مقبرة "تى". تذكرها المقبرة

بمشاهد الطفولة. تأملت الصور على الجدران. تعود الماشية إلى القرية فى الغسق، كما كانت تراها فى الريف. عجل صغير يحمله فلاح، يلتفت إلى الوراء. تسير أمه خلفه، تنظر إليه بعينيها الواسعتين وتخور بحنان.

لم تكن سوسن طفلة وردة المفضلة. لكن الصلة بالأم أقوى من ترسب المرارة فى النفس، تشبه الصلة التى تجمع بين العجل والبقرة. تخيلت نفسها رضيعة من جديد، تتصل بالحياة للمرة الأولى، وتلتهم بفمها الحليب الغزير المتدفق من ثدى وردة.

لن تعود صغيرة مرة أخرى كهذا العجل الماثل أمامها. لن تشعر بأنفاس أمها الدافئة ولا بنظرتها الحنون.

لولا العمل لزادت حدة الألم. كانت سوسن قد أجلت موعد الزواج عبر السنين. أما الآن، تعقدت الأمور. عليها أن تتكفل باحتياجات البيت فى القاهرة والأقصر. غيرت الوظيفة مرات عديدة سعيا لتحسين المرتب، فى النهاية، تم تعيينها سكرتيرة فى سفارة أجنبية.

يجدد ناجى عقده فى الخارج لمدة عام واحد عند انتهائه. يتبادلان الرسائل ويأتى إلى مصر فى زيارات متقطعة، تنتهى بوعد، بوداع، بقبلة. لن تدوم الأيام القاسية إلى الأبد. عندما تقبله وتلامس شاربه، كأنها تذوق فى شفتيه طعم الغد المشرق. بات الغد كضوء خافت، يشبه نعومة شعاع القمر. من يعلم، ربما يتحول شعاع القمر إلى ضوء مبهر كالشمس.

في بعض الأحيان، تفلت رسائل ناجي من أيدي الرقابة. فتستعيد حبها المرهف للحياة. تقرأ ما يقوله ناجي بين السطور وترى نظرته الحنون خلف نظارات المثقف الخجول، الذي يرتبك عندما يتوقف عن الضحك، عندما يحاول أن يعبر عن كل الحب الذي يكنه لها، وعن تشوقه لسد الفراغ بعد رحيل وردة، عن آماله العريضة أن يملأ المستقبل بالبهجة والسعادة. إنه يغيثها بحبه لكن من مسافة بعيدة، جِد بعيدة!

تلمع ماسة الخطوبة في إصبعها، الماسة التي تربطها به، التي وضعها في الخنصر، الخط المباشر إلى القلب، كما قال لها يوماً ما.

أنعمت نظرها ببريق الماسة الجميل كلما واتتها فرصة، حتى ترى الحياة بوضوح، عبر الدموع.

العام الثانى عشر من حكم جديد

١

نشرت وسائل الإعلام الرسمية أنهم يفتتحون مدرسة كل يوم للبنات والبنين في كل المراحل، من مرحلة روضة الأطفال إلى المرحلة الجامعية. ماذا تعلمهم المدارس والجامعات، مجانًا؟ تعلمهم أن جرجس لا يختلف عن العدو الإسرائيلي، العدو الذى استولى على الأراضى الفلسطينية مثلما استولى الباشا على أراضى الفلاحين.

يمجدون فى تاريخ مصر الفرعونية الملك رمسيس الثانى، هذا الفرعون الذى نسف ذكرى الملكة العظيمة "حتشبسوت". نقلوا تمثاله العملاق بجوار جامعة القاهرة إلى ميدان باب الحديد، حتى يراه كل المواطنين، القادمين من مصر السفلى ومصر العليا، عند وصولهم إلى العاصمة. أراد "الريس" أن يكون كـ "رمسيس الثانى"، فرعون العصر الحديث. المرأة؟ إنها نموذج الفلاحة فى تمثال النهضة للنحات مختار، الذى وضع أمام الجامعة بدلا من تمثال الفرعون. إنها توقظ أبا الهول، رمز مصر، من نومه. علموهم ماذا يفعلون من أجل النهضة: أن يدينوا من أجهضها. جرجس، وعصر الباشاوات بأكمله.

* * *

انعزل جرجس بصحبة حماره الذى أصبح يرتاح لرفقته أكثر من أى وقت مضى، يتسكع معه فى الصحراء وسط المبانى الأثرية. لم يشعر من قبل بهذا القدر من التقارب بدابته مثلما يشعر الآن؛ فى زمن أثقلوه مثلما أثقلوا حماره بعبء كل هذه الشرور. جعلوه رمزا للشر، كما جعلوا حماره فى الماضى، قبل أن يصبح فيما بعد رمزا للغباء.

وحيدا فى الصحراء، كان يربت على ظهر صديقه بحنان، ويطرد الشجن من قلبه.

عندما يقترب من الدير البحرى، يرى خيال "نافيل" العزيز، ويتذكر صوته المدوى الذى كان يحذره من الاقتراب من حافة الجرف.

– جيش من ٧٧ حماراً يمنع الشمس تطلع.

إنه أصبح مثلهم. ابتسم لحماره المسكين. كم من الأحمال أثقلت ظهره! اتهامه بالشر! بالإضافة إلى جرجس الآن! يستحق فعلا سمعته الماضية؛ لأنه يحمل على أكتافه وزر الشر، يحمل على أكتافه جرجس ميخائيل. كان "نافيل" الطيب يرد اعتبار حماره، حتى لا يحزن وهو طفل صغير، ويقول له إن جيوش الحمير اشتركت معا فى مساعدة الشمس على الطلوع.

لكن أنت يا جرجس، من سيرد اعتبارك؟ لن يوجد "نافيل" طيب ليطمئنك اليوم.

أستطيع أن أشهد، أن أشهد مثل سوسن تمامًا، بمدى ذكائك، بمدى بصيرتك، برؤيتك الخاصة للعجائب التي لم يرها الآخرون، بقدرتك على معرفة القوة الحقة، قوة الجمال التي تفوق جميع القوى في العالم مجتمعة. اكتشفت مغزى التماثيل الأثرية؛ الإلهان "بس" اللذان يجذبان بفتنتهما الإلهة القصية من أجل عودة الفيضان، صلوات الكاهنات الجميلات الممزوجة بالرقص الرفيع والغناء، لإخصاب عالم الأموات بسحر الجمال لبث الحياة فيه من جديد. إنهم لا يعلّمون ذلك في المدارس. لا يعلمون حماية الجمال، حتى يعود الخير كالفيضان.

فقد الجمال دوره. من يملك القدرة على مصالحة الأخوين العدوين حتى يبزغ الفجر الجديد كما فعلت من قبل بجهد مشترك جيوش الحمير، لمساعدة الشمس على الطلوع؟

* * *

قالوا إن الفرعون الجديد هو المعرفة و النور، وإن جرجس هو الجهالة والظلام. سيجدد الفرعون الخلق، سيهدم العالم القديم و يخلق عالما جديدا . إنه سينتصر على جرجس.

* * *

في مايو ١٩٦٤، قام "خروتشوف" بزيارته التاريخية لمصر. أفرجوا في هذه المناسبة المهمة عن الأصدقاء الشيوعيين. هم أيضا، مثل جيوش الحمير، حملوهم وزر الشر. السلطة وحدها لها الحق في أن تختار الطريق نحو النور.

تزوجت ليلى رغم الجميع.

* * *

في مايو ١٩٦٤، في خضم الشتائم واللعنات ضد الاستعمار الغربي والطبقة البرجوازية المنحطة، ارتفعت أصوات "خروتشوف" و "ناصر" و"السادات"، وسط دوي انفجار مهول للإعلان عن انتصار عظيم. افتتحوا النفق الذي سيغير مجرى النهر.

قال خروتشوف:

– عاشت البحيرة.

انطلقت الألعاب النارية في كل مكان. صفقت الجماهير وهي تهتف:

– الله أكبر!

الله؟ أم "الريس"؟ إنه إنجاز عملاق، يفوق الأهرامات، يفوق هرم خوفو سبع عشرة مرة. من صنع الأحياء، من أجل دوام الحياة ... ستغرق المياه بلاد النوبة بأكملها لتتحول إلى بحيرة، بحيرة ناصر.

لا يهدم الريس فرعونا واحدا فحسب، بل يهدم ماضيًا بأسره، حياة أبدية تعتمد في تنظيمها على فيضان النيل. أراد أن يبتكر خلدا جديدا، بالقضاء على أهواء النهر المتمرد.

وصل عدد سكان البلاد إلى ٢٧ مليون نسمة، ويزداد كل عام بنسبة ثمانمائة ألف. لابد من إنقاذ تسع بليون جالون من المياه التي تصب في البحر؛ لزرع الصحراء؛ حتى يمتلك كل مولود قادم حقله.

قالوا لابد أن نقضي على الماضي لإنقاذ المستقبل.

* * *

هكذا هجرت إلهة الفيضان البلاد.

انتحب جرجس وتألم. كأن الأنين لحنا، يصدر من أصوات جماعية. ذرف الدمع على النيل، على اختفاء المواسم والفصول.

سينضب اندفاع إلهة الفيضان الوثاب في الجانب الآخر من بحيرة السد. لن نستعيد إلا ظل ماضيها الخصب بالواقع والخيال؛ سيظل النيل أعزب، لن يقترن بعد اليوم، أو يبعث بسيل الفيضان العرم عندما يتزوج الإلهة، فيولد من ذاته متجددا. سيتحول إلى شيخ هرم.

– سعادتك بتجول شعر!

– الفلاحين ما يفهموش الكلام ده. محتاجين يزرعوا وياكلوا.

– سعادتك بتجول كلام جميل، لكنه ما يوكل عيش.

يعلو صوت ناجي داخل البيت المهجور كأنه صدى أنين الباشا، حوارهما كأنه طباق موسيقي. يرن من بعيد يطغى في الذاكرة.

الضربة القاضية

لم تنته آلام جرجس بعد. لا زالت السلطة تخشاه و تمقت هالة القدسية التى تحيطه.

النية مبيتة للقضاء على هيبته، على أسرته، على بيته.

يقال فى الدعاء إلى الله ليقضى على حياة رجل:

- الله يخرب بيته!

* * *

ساءت الأمور فى بداية الثورة إثر انفجار أحداث "كمشيش".

فى ٨ سبتمبر ١٩٥٢، استولى صلاح حسين وخمسة من زملائه على مكبر صوت، أثناء مراسم دفن أحد كبار الملاك من عائلة الفقى، للإعلان عن صدور قانون الإصلاح الزراعى، والتبشير بعصر وفجر جديدين!

منذ ذلك الحين، نشب صراع مستتر بين الفلاحين والإقطاعيين. يتهم الفلاحون هؤلاء بقطع مياه الرى عليهم، وبتحرير عقود بيع مزورة. ردا على ذلك، استعانت أسرة الفقى برجال من قبائل البدو العرب لزرع

الرعب فى النفـــوس بإطلاق النار بلا هدف إلى أعلى فى شـــوارع كمشيش. لم تتردد أسرة الفقى فى اللجوء إلى جميع أنواع التهديد لحماية أراضيها. اختطفوا صلاح، احتجزوه فى بيت كمشيش الكبير، وجلدوه.

سرعان ما تحول الصراع إلى معركة حقيقية، وتحول قصر العمدة وأسرته إلى خندق محصن، يحميه رجال مسلحون، بينما دافع الفلاحون عن أنفسهم بتقديم الشكاوى والتظلمات وصب اللعانات على أسرة الفقى، إلى جانب بعض الاغتيالات من حين لآخر.

تصاعدت الأحداث بمقتل رجلين فى قبيلتين كبيرتين. خشيت السلطات من هذه التطورات وتوقعت غزوات من القبائل البدوية على الوادى كما كان يحدث قديما. تعرضت الشرطة أيضا لاتهامات من الجانبين، قال الإقطاعيون إنها تنحاز للفلاحين، وقال الفلاحون إن الشرطة تنحاز لكبار الملاك. فتحول العصيان إلى مولد، احتلوا مركز الشرطة واحتجزوا رهائن. طفح الكيل بالنسبة لضباط مركز كمشيش.

أرسلوا لهم ثلاثة آلاف جندى من قوات الأمن المركزى بسياراتهم المصفحة لتطبيق النظام. عند الغروب، جابت جنود الهجانة فوق الجمال شوارع القرية. أعلن مناد حظر التجول مهددا:

- الكل يفضل فى داره، ويضوى جنديل أحمر جدام بيته. يا ويل اللى ماينفذش الأوامر بالحرف الواحد. ح يشوف النجوم فى عز النهار. ح ينجر ع الحبس طوالى!

قبضوا على صلاح حسين بتهمة تحريض الجماهير.

بقيت قصة شاهنده، ابنة عمه.

* * *

عاش صلاح وشاهنده قصة حب تعرضت لعقبات كثيرة. فرضوا على شاهنده الزواج من رجل تقدم لخطبتها، بعد أن وضعوا صلاح في السجن. تم كتب الكتاب وتحدد موعد ليلة الزفاف. لكن شاهنده لم ترغب فى إتمام الزواج وهربت من منزل أسرتها ليلة زفافها. قالوا إنها ممسوسة، وطردوا الأرواح الشريرة. رفضت والدتها صلاح عريساً لابنتها، عريسا يسبب القلاقل، يحرض الشعب، يوضع فى السجون. وحذرت:

- ح جطعوا تجطيع وارميه للكلاب.

أصرت شاهنده على أن تتزوج من صلاح رغم الجميع.

ناضلت للحصول على حق المرأة فى الانتخابات، ورشحت نفسها فى انتخابات مجلس الشعب؛ اعتبروها بطلة من أبطال الثورة. هدأ الاهتمام بها حتى عام ١٩٦٦ عندما اغتيل صلاح بأمر من عائلة الفقى.

أثناء مراسم الدفن، حملها رجال القرية على أكتافهم وحولت شاهنده جنازة صلاح إلى مظاهرة شعبية.

خصصت لها السلطات العليا، ناصر شخصيا، معاش أرملة بطل من أبطال مصر، بمبلغ خمسين جنيها شهريا. قالوا إنها قادت المعركة

ضد الطبقة البرجوازية، التى مازالت قوية، رغم قيام الثورة وتطبيق قانون الإصلاح الزراعى.

أهانوا الأعيان فى ساحة كمشيش وألبسوا الرجال ثيابا نسائية والنساء تنكرن بملابس الرجال، وجلدوهم على الملأ. قادت شاهنده هذا الاستعراض الساخر.

قال الذين أحبوا شاهنده إنها امرأة فريدة من نوعها، هى تجسيد لتمثال النهضة الذى يستقبل الطلبة فى مدخل الجامعة، فلاحة متحررة، غير محجبة، أيقظت أبا الهول من نومه.

قال الذين يكرهونها إنها عاهرة، امرأة حقيرة تشرب الخمر ولا تأبه بالتقاليد الشرقية وقواعد الاحتشام.

* * *

رأس عبد الحكيم عامر الإدارة الرسمية التى أنشئت لمحاربة البرجوازية: لجنة تصفية الإقطاع. ادعوا أن بعض كبار الملاك دفعوا رشاوى للهروب من العدالة. وظيفة اللجنة تنفيذ العدالة. استهدفوا عائلات سراج الدين، وبدراوى وعائلات فى أسيوط...

وقع أخوال وأولاد أخوال سوسن جميعًا فى الشرك.

أما جرجس، فتعرض لصدمة قاسية؛ للضربة القاضية.

* * *

ترددت شائعات أن سكرتير الاتحاد الاشتراكى يبحث عن مقر وأنه يطمع فى الاستيلاء على بيت باشا الأقصر. فكر فى هذا المشروع أثناء غياب جرجس لرعاية زوجته المريضة، وازداد اقتناعا بالفكرة عندما بدأ جرجس يتغيب أكثر من المعتاد لزيارة أبنائه فى القاهرة، ويطول غيابه أحيانا لأسباب صحية، رغم أنه كان يفضل دائما الإقامة فى القاهرة مدة قصيرة.

حذر ضابط آخر أمين الاتحاد الاشتراكى أن تنفيذ مثل هذا المشروع أمر مستحيل:

- مش ممكن نطرد باشا الأقصر. ده ضد القانون. ما يملكش غير بيت واحد. ولاده مأجرين بيت فى القاهرة. ما نقدرش نصادر غير بيت تانى يكون ملكه هو الخاص.

حكم رجل فى السلطة بأنه فى هذه الحالة بالذات، القانون ليس له أية أهمية. وقع بالموافقة على طلب سكرتير الاتحاد الاشتراكى، وأضاف: "هام. ينفذ فوراً".

* * *

المهمات القذرة تنفذ دائما ليلا. توجهوا فى الثانية صباحا، فى عز الليل، إلى منزل سوسن حيث كان جرجس هناك.

سمعت دقات عنيفة على الباب، فتحت سوسن. طلبوا مقابلة جرجس باشا. جرجس نائم. يجب أن يستيقظ؛ الأمر عاجل.

نفـذت سـوسن الأوامـر. سـاعـدت والدها فى ارتداء ثوب البـيت المنسوج بالحـرير الدمـقـسى، الملون بالأحـمـر البنفسـجى، والطاقـيـة المصاحبة له، التى طرزت وردة عليها الحروف الأولى من اسمه، وزينتـها بالورد، وبصـورة مـار جـرجس وهو يقـتـل التنين. ابتـسم أثناء ارتداء الطاقية رغم الظرف المفاجئ الذى دعاه ليستيقظ، وفى خياله وردة فى صورتها المبهرة، تحيطه بذراعها، لحمايته من المـاضى والمستقبل.

قابل جرجس الضابط محتفظا بوقاره، كأنه محكوم عليه بالإعدام.

وجهوا إليـه الكلام بفظاظة، عليـهم اسـتـخدام هذا الأسلوب لتنفيذ المهام القذرة. قالوا:

- انت لك بيت فى لقصر وبيت هنا.

أجاب جرجس:

- هنا لأ. أنا هنا فى بيت ولادى.

- تبقى فى بيتـك برضـه. لازم تخـتـار مـحل إقامتك، وتاخـد قرار قبل الفجر.

فى ذلك الحين، كان جـرجس فـى الرابعـة والثـمانـين. يصـعب عليـه اتخاذ القرار بأن يعيش وحده فى الأقصر، و يصعب عليه كذلك أن يحرم من رؤية الأماكن التى يعشقها.

يشعر فى الأقصر بأن هناك ضرورة لوجوده. يراقب زوال الأحجار الأثرية، ملح البارود فوق الحوائط، الأبواب المغلقة التى تخفى خلفها السرقات،

المرشدين الجهلاء الذين يقتربون من الإلهات والكاهنات بمصابيح الغاز التى تلوث الآثار، للحصول على بقشيش من السياح. يعرف أيضا أولئك الذين يبحثون عن كيفية معالجة هذه الأحوال السيئة.

فقد البيت الكبير بهجة الأيام السعيدة. لم يتبق من الخدم سوى دهب وغادة.

مع ذلك، ظلت الذكريات تؤنسه فى بيت الأقصر، مقتنياته الأثرية الغالية غذاء للروح. فى البيت الكبير يستعرض جرجس عالماً من الصور، صور تبشر بالفجر، كصور المدافن فى سالف الزمان. هذه الصور، تمثل وجدانه، ماضيه، ماضى أسلافه، مستقبل أولاده. حرمانه من مقتنياته الأثرية، من جدران البيت الكبير، كحرمان الشاعر من قلمه، الرسام من ريشته، الميت من مقبرته.

كيف يتخذ قرارا قبل هذا الفجر الذى يشبه سواد الليل؟

* * *

لم يرجع باشا الأقصر إلى البيت الكبير. لم يمهلوه الوقت الكافى لتنظيم مخطوطاته ومستنداته. ما كاد يضع اللمسات الأخيرة فى إبداعاته، رغم تقدم العمل فى تبويب الفهرس. استغرق جرجس زمناً طويلاً وجهداً كبيراً فى وضع قائمة دقيقة. فجأة، توقف الزمن، وثبتت فيه صورة ملامحها الفوضى.

تألم من قطع صلته بمدينته الحبيبة ، أكثر مما تألم بعد وفاة والده وزوجته . كانت علاقته بالبيت وبالآثار كمن يعيش قصة

حب خالدة. طمــوحاته لـ "طيبــة" مثل طمــوحاته لامرأة مميزة يحبها. لا يريد أن تكون "طيبــة" مـركــزا للمتــاجرة بالأجــداد، بل يجب أن تكرر "طيبـة" مـجد الأســلاف، تكرر عـصــر "حتشبســوت"، عصر الجمال والسلام.

كل قطعة من هذه المجموعة الفنية التى جمعها عبر السنين هى شذرة من شذرات حياته. تمثال الزوجين الذى اشتراه مع الأجنبية الفاتنة، إنه هو والأجنبيــة الفاتنة. تماثيل الزوجين الآخرين، هم هو وزوجته الأولى، هم هو و وردة...

كثيراً ما انفرد بنفسه صامتا، يستعرض فى خياله هذه الصور الغالية؛ حاملات القرابين والكاهنات العازفات وهن يعزفن ويرقصن، تماثيل "بس" ، الأوشبتى وهم يعودون إلى الحياة، مراسم قران تماثيل الأزواج، هذه التمــاثيــل الحـجــرية أو المصنوعة من الجبس الملــون. إنها عالمه المصور، ينبوع حياته. قديما سرقت هذه الكنوز من الأموات، وها هى الآن تسرق منه. لا يتبقى سوى خيالها فى الذاكرة.

* * *

شعر بإحراج شديد، وخشى أن يطلع أحد على خطاباته وعلى مستندات تخص العائلة.

استطاعت سوسن، بتصريح من مكتب الحراسة ومصلحة الآثار، أن تذهب لوقت قـصــيـر إلى بيت الأقــصــر. رغم ذاكــرته التى بدأت تخونه، حاول مرتبكا أن يرشدها فى البحث عن عقود الزواج وشهادات

الوفاة، وعقود البيع أو الشراء، فى ذلك الرف، أو فى ذلك الدرج، فى الصالون، أو فى غرفة النوم. طلب منها صورا لمقتنياته، بعض الكتب، بعض المدونات.

ذهبت سوسن لتقوم بهذه المهمة على عجل. التصريح مدته قصيرة. أخذت أكواما من المستندات، اختارت أهمها، وأحرقت الباقى دون أن تقرأه لضيق الوقت. هناك ما هو أهم: قراءة مخطوطات هيروغليفية، توضيح بعض المعلومات، تحديد ألوان معينة بدقة، حيث إن جرجس صمم على أن يكمل العمل الذى بدأه. مازالت خيالات الصور حاضرة فى ذهنه وقلبه. من فرط ما شاهد موكب القرابين، والكاهنات العازفات، من كثرة ما رأى الآلهة "بس" وهم يرقصون، والأوشبتى الذين يبعثون من جديد، ومراسم زواج تماثيل الزوجين الحجرية أو المصنوعة من الجبس الملون، تجسدت هذه الصور فى وجدانه قلبًا وقالبًا. لكنه لا يتذكر تفصيلة معينة، كوزن التمثال مثلا. هو الوحيد الذى يستطيع أن يحدد لو كان مزيفًا من وزنه. حيث إنه لا يستطيع الذهاب، قامت سوسن بالمهمة نيابة عنه.

* * *

فى أثناء إحدى هذه الرحلات ، وجدت سوسن حزمتين من الخطابات التى اصفرت من القدم ، يفوح منها عطر قديم مستحضر من مسحوق الأرز . تصفحت الرسائل المكتوبة بخط نسائى ، مستقيم وواضح ، يشبه الحروف التى كانت تكتب قديماً بريشة الإوز. لاحظت بعض الدموع على ظرف أحد الرسائل. كل حزمة مربوطة على حدة

بشريط جميل. يبدو أنها فتحت كثيراً لإعادة قراءتها. لا علاقة لها بوالدتها. ربما كانت رسائل امرأة أجنبية جميلة؟ من النوعية التى لا يتزوجها رجل شرقى؟

بعد إلقاء نظرة سريعة لإشباع فضولها، أحرقت هذه الخطابات بإمضاء "سوزان"، مع باقى المستندات غير اللازمة.

عليها الآن إنجاز مهام كثيرة. بالنيابة عن والدها، عليها أن تسجل فى ذاكرتها ثروات البيت الكبير، وتنقلها بدقة لصاحبها، من خلال عينيها التى حلت محل عينى والدها.

لم يسأل جرجس عن هذه الخطابات إلا فيما بعد، بعد ذلك بكثير:

- فتحتى خزنة مكتبى، صح؟ كان فيه درج سرى. الدرج، كان فيه رزمتين ورج، جوابات يعنى. عملتى فيها إيه؟

قالت سوسن:

- حرجتها.

- حرجتيها؟ إنتى حرجتيها؟

«عندئذ، شحب وجهك. نظرت فى أعماقك، فى أعماق الماضى السحيق. استرجعت أيام شبابك. لم يتبق من هذه الأيام شىء، ولا حتى رماد الرزمتين المحروقتين.

أمسكت طاقية النوم بين يديك، وابتسمت لصورة وردة فى خيالك، وهى تطرزه بالورود وبمار جرجس وهو يصارع التنين.

مرت لحظة كأنها دهر، وأنت تبدو مستغرقًا فى الماضى. ثم نظرت إلى سوسن، طفلتك المفضلة التى سميت على اسم الأجنبية الفاتنة، وأشرق وجهك بابتسامة عريضة، كما لو كان الظلام الذى يحيطك يتلاشى ويفسح الطريق أمام نور مبهر».

* * *

«ستلحق بأى من محبوباتك بعد الموت يا جرجس؟ ستحتفى مع من يا جرجس بزواج الآلهة المقدس، الزواج الذى يجدد الخليقة ويبعث الحياة فى الكون؟».

لصوص المقابر

لاستكمال تنظيم المنطقة المحيطة بمعبد الأقصر، أصدرت مصلحة لآثار قراراً بإزالة البيت الكبير.

يقال إنه نشب نزاع بين أمين الاتحاد الاشتراكى ونائبه حول قتسام البيت الكبير. طال النزاع فظل البيت مغلقاً.

لم يلبث دهب وغادة أن غادرا المنزل. حصل دهب على أرض صحراوية لزراعتها بمياه السد بجوار كوم أمبو. وعادت غادة إلى اسرتها بصفة مؤقتة إلى أن يُقرَّر مصيرها. بدأ الاثنان حياة جديدة بإقدام وشجاعة رغم شعورهما بقليل من الحسرة.

* * *

اقتحم اللصوص البيت المهجور. كسروا الزجاج والشبابيك ودخلوا لسرقة بعض تماثيل جرجس الأثرية.

تغافل الحارس أثناء عملية السطو ليحصل على مبالغ لا بأس بها.

قال باشا الأقصر إن الفقر أكبر عيب.

* * *

تتطلب الإجراءات الرسمية معاينة محتويات المنزل بحضور أفراد الأسرة. فذهب بشرى وسوسن إلى الأقصر بالقطار "المجرى". حجزا مقصورة بها سريرين ضيقين منصوبين على عجل ضخم. ظل القطار يهتز ويترجرج طوال الليل.

عند الوصول، وجدا مندوب الحراسة ومندوب الآثار فى الانتظار. بدا عليهما السرور بالسلطة الجديدة التى تمكنهما الآن من إذلال السادة السابقين.

حاول السادة السابقون التذكر أين قابلا هذين الرجلين، لكن بدون جدوى.

أرشد الموظفان سوسن وبشرى إلى موقع الجريمة، بعد نزع الأختام عن باب الغرفة التى بها الآثار. ثم جلسا فى منتصف الغرفة، وعلى المائدة نسختان من قائمة الجرد. وقفت سوسن وبشرى أمامهما كأنهما أمام محكمة الآلهة، لا يعرفان دورهما على وجه التحديد، لصوص أم مُلاَّك؟ هل سيحكمان عليهما بالبراءة أم بالإدانة؟ اتهم الموظفان سوسن وبشرى بالاتفاق على السطو مع اللصوص الذين اقتحموا البيت. أما الشقيقان فقد أقرا منذ زمن بعيد أن من يحكمون عليهما هم اللصوص.

ثم قاما بقراءة محتويات قائمة الجرد.

بعد مطابقة كل رقم فى القائمة بالنموذج الذى يمثله من التحف الأثرية، يتم نقله إلى الخارج. وضعا علامة الصليب على التحف الناقصة

فى القائمة، وعلامة أخرى على النماذج المستدل عليها. نقلت التحف الثمينة بواسطة الرجال تحت الأنظار الفضولية لبعض المتسكعين الذين دخلوا لمشاهدة ما يحدث فى هذا البيت الذى ظل مغلقا فترة طويلة.

قال مندوب الحراسة مشمئزا من باشا الأقصر الرأسمالى وأولاده:

– جولولهم يبطلوا سرجة.

ثم استأنف عمله مدققا فى قائمة الجرد. وجد جعرانا ومفتاح الحياة فاعتبر أنهما بدون قيمة وأهداهما لسائح دخل مع المتسكعين. قد يفعل "إدوار نافيل" نفس الشىء. يقال إنه لم يقدر سوى التحف الفرعونية الضخمة. لكن مندوب الحراسة لم يكن "إدوار نافيل". لا يوجد مبرر لكرمه.

ثارت سوسن وبشرى رغم محاولة السيطرة على الانفعالات. اشمأزًا من مشهد هذين الرجلين اللذين يلمسان بيديهما المشعرة تحفًا فنية لا يقدران جمالها ويتصرفان بمقتنيات والدهما الغالية كما يشاءان.

طلب مندوب الحراسة من زميله التعامل بحذر، تفاديًا للمشاحنات العاصفة التى توقعها آلاف المرات. إلى أن انفجر الموقف بحادث تمثال فرعونى ضخم لقرين وزير الزراعة فى ذلك العصر، الـ "كا". تمثال الكا معد خصيصًا ببراعة ليحفز الميت على أن يعود إلى الحياة. تعجل مندوب الحراسة إنهاء العمل . اشترك مع زميله فى نقل التمثال، فوقع وتحطم.

صرخ بشرى دون أن يتمالك نفسه:

- يا حيوان! يا ابن الكلب! ده تمثال عمره تلتلاف سنة!

أجاب المندوب بنفس برود دهب من قبل:

- يبجى مجدر لها تموت بجى.

مع ذلك، أمروا بترميمه. عالجته أيدى قليلة الخبرة والمهارة.

* * *

أثناء الجرد أحس بشرى وسوسن باختناق. بلغ الاشمئزاز والغضب الذروة عندما فتح الرجلان دولاب جرجس السرى، ومدوا أيديهما ليتفحصوا التحف الصغيرة، يقلبانها بين أصابعهما: أعضاء ذكورية خصبة، عدوانية، لا يزيد حجمها عن "عقلة" الإصبع. تفحصاها بنظرة ماكرة، تحولت إلى نظرة فاجرة، ثم إلى نظرة احتقار. أصيب الرجلان بحالة هياج قد تشبه حالة المسيحيين الأوائل عندما شاهدوا لأول مرة تماثيل "مين" و "بس"، و صاحا:

- أهم يا سيدى باشاوات زمان. ناس منحلة. بيهتموا بحاجات زى دى!

ثم أصدرا أمرا بالبصق على ما يمتلكه الباشا، وألقى الرجلان التماثيل الصغيرة منبطحة فى ركن بجوار تمثال راقصة وقحة، فى منتهى الوقاحة، ترتدى ثوبًا شفافًا، للقضاء على فجور الوثنيين.

غضبت سوسن إلى حد لا يطاق. كذلك بشرى.

* * *

توقف الموظفان عن العمل عند اقتراب الليل. احتجزا سوسن وبشرى داخل البيت.

وأغلقا عليهما جميع الأبواب. تركا خبزا طازجا وإبريق مياه للعشاء. عليهما الاكتفاء بذلك.

كأنهما دفنا أحياء لأول مرة.

أنارت سوسن وبشرى كل مصابيح البيت، لعلها تزيل الغمة. القبة، قبتها الجميلة، ذات الأضواء التى تشبه ألوان قوس قزح، انكسرت فى بعض الجوانب، وانطفأ جزء كبير منها. ربما بحث اللصوص عن كنز فى سقف لم يحتو سوى على كنز من الأنوار المبهرة. سارا فى البيت تائهين، كما لو كانا قرينين لأموات من قدماء الفراعنة، يتجولان معا فى مقبرتهما، يقلدان وضع تمثال زوجين مصنوعين من الجير، ليواجه بشرى الحياة بشجاعة، تحت حماية شقيقته الصغيرة، التى تضم كتفيه بذراعها. تتناثر حولهما كل التحف الجنائزية التى توضع بجوار المتوفَّى. إنها وسائل المعيشة الضرورية ليستخدمها عندما يبعث من جديد . وسادة للرأس من المرمر المصقول، إبريق فى حوض لتنظيف الأيدى بالمياه المعطرة، أدوات تجميل ومراهم للقرين، مرآة نحاسية حتى لا يقال إن المتوفية جارية لا تستطيع أن ترى نفسها إلا من خلال انعكاس وجهها فى مياه النهر. فى الركن، وجدا صندوقا مكتظا بتماثيل الأوشبتى، الذين يخدمون المتوفى. توضع تماثيل هؤلاء الخدم فى المدافن بعدد أيام السنة. لو عرفت سوسن وبشرى العبارات السحرية لاستيقظت تماثيل الأوشبتى لتلبية رغباتهما. أحد التماثيل المصنوع من الصلصال

الصيني والمطلي بدهن لامع أصفر، يشبه دهب. "لكنه من الدير البحري". مهمته أن يخدم قرين "حتشبسوت". ما المانع أن يخدم سوسن؟ في أركان أخرى، وضعت تماثيل منحوتة على أحجار أو مسلات للراقصين والراقصات، للعازفين والعازفات، للبهلوانات وحاملات القرابين. تصف المخطوطات الهيروغليفية أمثلة لملايين القرابين: إوز، خبز، بيرة، أقمشة، لحمة رأس، كل الأشياء الطيبة والصالحة. وتقول أيضا المخطوطات إن الإله يمنح ملايين الحيوات للمتوفي.

لعبت سوسن لعبة الطاولة مع بشرى، وهي لعبة عصرية مأخوذة من أيام الفراعنة اسمها "محن". ألهتهما اللعبة لحظات عن الإحساس بالقلق والجوع. بحثا عن مستودعات الأطعمة في هذا البيت الذي هجراه فجأة دون سابق إنذار. وجدا كميات كبيرة من السلع التي تنقص في القاهرة. أنواع مختلفة من الحبوب والفريك. لو في وسعهما إحياء الصور لأكلا معا حماما بالفريك. اكتفيا بالخبز والأرز المتبل بالثوم والخل، دون لحوم، دون خضراوات، دون فواكه. مع ذلك، تناولا العشاء على ضوء الشموع، شربا نبيذ القداس أثناء تناول الوجبة البسيطة، طعمه عذب مثل أعذب أنواع نبيذ "بوردو". تذكرا فجأة الرجلين وأصيبا بنوبة من الضحك المتواصل تحت تأثير سحر الخمر. فقررا أن يلعبا لعبة إلقاء الأذى على الرجلين. الأواني المتناثرة حولهما المدونة في قائمة الجرد جميلة جداً ولا تصلح. ألوانها وأشكالها مختلفة: وردية، حمراء، مرجانية، مطلية بالورنيش، قنينات رقيقة أسفلها مدبب، مستديرة، أسطوانية الشكل، مغزلية الشكل رشيقة... ذهبت سوسن وبشرى إلى

المطبخ، واختارا أغلظ وأخشن الخزف المصنوع من الصلصال للانتقام من مندوب الحراسة ومندوب الآثار اللذين يريدان محو أثر جرجس ميخائيل عبد المسيح من ذاكرة البشر. لكن أين رأوهما من قبل؟ من كان هذان الرجلان فى الوقت الذى كان والدهما سيد الأقصر دون منافس؟ موظفان فى الحكومة؟ موظفان فى مصلحة السكة الحديد؟ تضايقا من هذا الغموض، من هذه الصورة المتعثرة الغارقة فى ماض بعيد. كتبا على أعرض ثغرة فى الخزف الفظ الخشن اسم الموظفين. خاطب كل منهما موظف:

– زمان كنت زحفت على ايديك ورجليك واتزليت. دلوجت نافخلى ريشك. روح!

ثم ألقيا بها على الأرض بقوة محاولين أثناء صوت الارتطام تقليد ضحكات الشيطان.

وأضافا منتصرين:

– اتمسح اسمك من على وش الدنيا.

ثم عزفت موسيقى شوبان على بيانو يحتاج إلى ضبط، للتغلب على الصمت الخانق. راحا يغنيان معا ألحانا تعرفها سوسن من أيام التحاقها بفريق الكشافة التابع لفرنسا، أو من خلال المدرسة. كان صوت بشرى نشازاً. بدت هذه الأغانى لسوسن من قبل أجمل من موسيقى موزار. ربما يحاولان تضليل الموت والعدم بالتحايل والخداع، بالسكر الخفيف والموسيقى. لا يهم إن كان عالم الأموات لا يعرف شوبان

أو الأغانى الفلكلورية الفرنسية. الشقيقان صورة غريبة، مطابقة لعالم الأموات القديم، لكن فى القرن العشرين.

غالبهما التعب. الصمت يحتله الغضب والاشمئزاز. هرب النوم فى خضم أحداث اليوم التى دارت فى الذهن كأنها أرجوحة فى مدينة الملاهى. اختلطت الوجوه بالضوضاء فى الخارج وبالتعليقات المتفرقة.

حاولت سوسن عبثًا أن تسترجع ملامح ناجى، شارب ناجى، ضحكته، قبلاته. لم تستطع.

ظل بشرى يجتر إحساسه بالعجز طوال الليل.

استولت عليهما رغبة ملحة فى الهروب. الحارس بالخارج والأبواب مغلقة بمزلاج. بالجوار، هناك تصميم للاحين فى زورق خشبى، تصدع وتشقق مع الزمن. لو كانا بالفعل قرينين فرعونيين، لأيقظا ملاحًا ليأخذهما فى رحلة طويلة عبر نهر النيل إلى الكرنك، أو إلى جزيرة الموز. ربما كان كوخ عزلة موجوداً حتى الآن، يقاوم العواصف والأمطار. لم تذهب إلى الكوخ منذ زمن طويل. هناك سبيكة ذهبية وأخرى فضية مرسومة بجوار رسم لقطعة من اللحم تكفيان لإغراء المراكبى لينتشلهما من هذه المقبرة، أو لإغراء الحارس المكلف بدفنهما أحياء.

عالم اليوم يسلب ويسرق ويدنس وينتهك الحرمات. لم يصنع "خنوم" قرينا لسوسن أو بشرى. ولا هما حتى بنقش فرعونى بارز انتُزع من مقبرة. ولن تكفى مساعدة الحارس المرتشى أن تضمن لهما الحرية.

* * *

أخيراً استغرقا فى النوم.

فى تلك الليلة التى دُفنت فيها سوسن حية، امتزجت الكوابيس بالأحلام أثناء نومها القلق.

فى الحلم، هى "حتشبسوت" المحنطة التى تشق طريقها عبر متاهة سرداب لتنضم إلى عشيقها "سنن موت" فى مدفنه. تشبه ملامح "سنن موت" ملامح ناجى. نهض عند رؤيتها واتكأ على ساعده. استلقت بجواره. ابتسما كصورة عشيقين على شاهد قبر إيطالى، تحدثا معا عن خططهما الأبدية المشرقة. إنهما متلاصقان بصفاء فى عذوبة تخلو منها الشهوة العنيفة. لا حاجة إليهما للشعور بالتقارب، التقارب الحميم. ثم اختفى العشيق، وحل محله مندوب الحراسة ومندوب الآثار، اللذان تحولا إلى عملاقين كالفرعون المحارب رمسيس، يمحوان بالمطرقة صورة العشيق واسمه. حضر المشهد حشد من المتفرجين. جثته المحنطة، الراقدة فى تابوت من خشب الجميز، النائمة كالجنين فى أحشاء الإلهة - الأم، تثير فضول السياح الذين لم يكترثوا لمشهد التدمير بالمطرقة. ثم تحول الحلم إلى كابوس. انتاب "حتشبسوت" غضب عارم. نهضت جثتها المحنطة، لوحت بصولجانها وسوطها، كشرت عن أسنانها، وحدقت فى حشد الفضوليين الذين هربوا مع العملاق فى فوضى عارمة. عندئذ، تحول قرينها إلى قمر، إلى شمس، إلى نور، وعاد ناجى، عاد الحلم.

وإذا بمندوب الحراسة ومندوب الآثار يحاولان اغتصابها. المغتصبان: فأر يريد أن يقضمها، وصرصور يجول فوق شفتيها.

نامت على الفـور. حلمت هذه المرة بـ "سـيت" الذى ألبسـها ثوبًا شفافًا، وأعطاها بين يديها مزمارًا ثنائيا لطرد شياطين الظلام. يشتهيها الجميع بجنون من فرط جمالها، أمناء المتاحف، أصحاب المقتنيات، تجار الآثار، حتى القوادون. تحالفوا ضدها وأرسلوا لصَّين: مندوب الحراسة ومندوب الآثار. نزعا الجبس من حولها بالمطرقة والسندان. أيقظها شعور بشـد عـضلى فى يدها . فى الكابوس، تصـورت أن السندان اصطدم بالمطرقة فتزحلقت على الحائط وقطعت إصبع قرينها .

نامت سوسن مرة أخرى من شدة الإجهاد. النسمة التى جاءت من فتحة النافذة أشعرتها بأن التماثيل الصغيرة فى دولاب جرجس السرى تداعب فخذيها ونهديها، وتغنى حولها فى دائرة مرحة، تعزف على الناى الثنائى والطبول لتهدئة غضبها . رأت نفسها فى الحلم قد وقعت فى غرام شمس عادت تشبه ناجى.

استيقظت على أنغام حزينة تصدر من مزمار . فتحـت النوافذ على مصراعيها . اختفت النسمة . بهـدوء مطلق ، يسحب زورق إلى النهر . كم يشبه عالم الأحياء عالم الأموات ، فيما عدا غياب الحب فيه . ناجى غـائب . أقسـم رمسيس جـديد أن يدمـره ، ارتفعـت هامته على شاطئ النهر . تفضل أن تعود إلى الكوابيس والأحلام ، وتهرب من الواقع الأليم.

هـرب بشـرى أيضـا مـن الـواقـع ونـام نـومًا عميقًا خـاليًا من الأحلام.

* * *

يشبه كل صباح جديد ليلة من الكوابيس الجديدة، تداس فيه الصور الجميلة بالأقدام، تدنس وتغتصب.

ساد الوجوم وتلاشت الأحلام المشرقة.

* * *

قال القس أثناء تعميد سوسن وبشرى باللغة القبطية:

-"تى أومس" أعطيك للبحر ليطويك فى جوفه. باسم الأب والابن والروح القدس.

غطس الطفل فى المياه ثلاث مرات، مثلما تغطس الأرض فى مياه الفيضان، لتولد من جديد.

استغرق الجرد ثلاثة أيام، ثلاث ليال، غطس فيها الشقيقان فى بحر الظلام.

قام القس أثناء التعميد برسم شارة الصليب ستة وثلاثين مرة لطرد الشيطان والموت وبعث الحياة فى كل أجزاء جسد الطفل. فوق الرأس والشفتين، والأذنين، والمنخرين، فوق القلب مرتان، فوق الظهر مرتان، حتى يمنحه القدرة على النطق والرؤية، والسمع، والاستجابة للحياة، حتى يكون عموده الفقرى متينا وصلبا والجسد منطلقا .

كذلك، يوقظ الكهنة الإله من نومه الطويل. الراقصات والمنشدات توقظن فيه أيضا الرغبة فى الحياة والحب.

مع ذلك، لم يخرج الشقيقان من بحر الظلام. أحاطت أيامهما العتمة. يلاحقهما الوجهان اللذان يقفان بينهما وبين الشمس. كيف جهلا

بوجودهما زمنا طويلاً إلى هذا الحد؟ وقف الوجهان بين سوسن ووجه ناجى دون رحمة.

قد يفسر الناس البسطاء:

- إنه شيطان ذو وجهين.

قد يقول المثقفون:

- إنه وسواس.

لكن أليس الوسواس من فعل الشيطان؟

مسح الشيطان ذو الوجهين ملامح ناجى من عينيها، من قلبها، من خيالها، رغم أنها أحاطت نفسها بصور الحبيب. ظلت تلاحقها صورة الشيطان.

بدا لها كأن ناجى يهجرها.

لماذا يعمل بعيدا عنها؟ لو كان قريبا منها، لأشبعت عينيها منه، لمسته بيدها وتحدثت معه هو فقط، لابتسمت له هو فقط، ولاستحوذ على كيانها بدلا من هذين الموظفين.

لكنها لم تستطع أن تستعيد آمالها و أحلامها المشرقة، فجر اليوم الذى شعرت فيه أنها دفنت حية.

* * *

لم يعطوا سوسن وبشرى فرصة لنسيان هذا الشيطان ذى الوجهين. يستأنفون كل شىء. بعدها بعدة شهور، وبعدها بعام لأن التحف الأثرية سرقت مرة ثانية وثالثة. يراجعون كل مرة قائمة الجرد، ويخرجون كل التماثيل الجنائزية من مكتب جرجس الذى خصصه كمتحف للتحف الفنية. ثم يعيدونها إلى الغرفة، واحدة تلو الأخرى، حتى يأتى اللصوص التالون.

يستأنفان الرحلة فى الظلام، يدفنان أحياء فى مقبرة لا يبعثان منها، رغم صلوات القس وهما طفلان فى المهد.

جن جنونهما من كثرة ظهور هذين الوجهين فى حياتهما وأحلامهما. إنهما يخنقان الحرية.

* * *

أصبح كل شىء خانقًا. تشك سوسن أحيانا بنفسها، تتصور أنها أوهام مريضة. لكن بعض التفاصيل تؤكد أنها حقيقة.

نسيت نظارة فى الزيارة الأولى، ثم وجدتها فى الزيارة الثانية. فى المرة الثالثة، نقلت قفف السكر الذى شح فى القاهرة من مخزن بيت الأقصر. تكرم مندوب الحراسة ومندوب الآثار وسمحا لهما بأخذها. ثم، ثم تماثيل "بس" الصغيرة غير المحتشمة التى لفتها سوسن بعناية وخبأتها فى قاع القفف ووضعتها فى درج سرى، بعيدا عن الأنظار المهينة. حتى بشرى يجهل وجودها.

عاش الاثنان هذا الكابوس الطويل، فى بيت يشبه مقبرة أثرية نهبها اللصوص. مثُّل الاثنان أمام محكمة الآلهة، صورة محورة ساخرة، قلد الاثنان الأموات وتظاهر الاثنان بأنهما بعثا من جديد، اثنان كما فى الزواج المقدس الذى يسبق الفجر.

لا وجود للفجر فى حياتهما. لا تموت شياطين الظلام ، بل تظهر على الدوام لتطغى على كل الشموس.

لم يعد للحبيب وجود. لم يتبق سوى مشاعر الأخوة. لا يتركون لهما الفرصة للحب. ليس الحب مدرجًا فى جدول أعمال الثورة.

كنوز جرجس

قام ضابط الجيش الذى كان يبحث عن مقر لمكتبه وطمع فى بيت باشا الأقصر بتنفيذ خطته. مقر الاتحاد الاشتراكى فى الدور الأرضى، سكن أمين الاتحاد الاشتراكى فى الدور الأول، سكن نائبه فى الدور الثانى. لم تعد تطرح مسألة إزالة البيت الكبير.

عادت سوسن وبشرى إلى الأقصر بالقطار المجرى لاقتسام الغنائم.

تمت العملية على عجل، كأنها عملية سطو أخرى.

اختار السكرتير ومساعده أجمل قطع الأثاث. انتهز عمال النقل الفرصة وسط الزحام لسرقة بعض قطع الأثاث وبيعه لحسابهم الخاص. لم يشترك السياح فى هذا المولد. نقل أولاد جرجس ما استطاعوا من أثاث. من شدة الغضب، حمل بشرى على أكتافه دواليب ضخمة بقوة بدنية مضاعفة كأنه عمل طوال العمر عتالاً، وقال:

– نحرجها أحسن ما ياخدوها!

* * *

حصلوا على جزء من تحفهم الأثرية، الأقل درجة فى قيمتها، وأصبح الباقى ملكية عامة. قيَّم مندوب الآثار هذه التحف النادرة بأسعار بخس، ودونها فى دفاتر حسابات مكتب الحراسة. عائلة عبد المسيح، ليس لها الحق فى الاعتراض، إنها تحت الحراسة وتعامل معاملة القُصَّر.

* * *

لم يروا هذه الكنوز التى لازمتهم فى الطفولة قط بعد ذلك. لم يكن الجمهور يدرك أصلاً قيمتها أو يفطن لوجودها.

أحيانا بعض أناس طيبين يطلعون الأسرة على آخر الأنباء:

– قال عالم مصريات مشهور إن التحف الأثرية دى مالهاش أى قيمة. بعناها بأى ثمن.

قال الملحق الثقافى لأحد الدول الأوربية:

– إنها فى قبو متحف القاهرة، تحققت منها وأنا مار فى زيارة للمتحف.

البعض الآخر أفقدهم الأمل، وقالوا بنبرة أهل الخبرة:

– عمركم ما ح تشوفوا التحف دى تانى.

لم يجزم بذلك البعض الآخر:

– يمكن في يوم من الأيام. بيجولوا كل التحف اللى أسفل متحف لقاهرة مسروقة!

ثم نسوا كنز باشا الأقصر!

عصر الإرهاب

انتقلت أسرة عبد المسيح إلى عمارة جديدة فى الزمالك، بنيت مثل غيرها من العمارات فى منتصف القرن العشرين. وضعوا فى الشقة الجديدة ما تبقى من بيت الأقصر الكبير. الأثاث ضخم على مساحة البيت؛ مائدة الطعام من خشب بلوط ثقيل الوزن، الصالون مصنوع من خشب الأبنوس الأسود المنحوت بصور التنين الصينية، منجد بالحرير الأحمر الدمقسى. فى الصالة، أريكة خطوطها منحنية ومنجدة بالجوخ الأحمر، بيانو بذيل فوقه صور عائلية؛ الأب بالنياشين، الأم بثوب أنيق من أزياء "شانيل"، الأطفال فى الصغر قبل وفاة بعض أفراد الأسرة، كل هذا الحشد وعلى رأسه جرجس ووردة. علقوا الأقمشة القبطية، أكفان أثرية استبدلت لتغطية الأموات عندما اندثرت وسائل التحنيط الفرعونية. فوق رفوف البهو المؤدى إلى غرف النوم، أوان، رءوس الآلهة "بس"، رءوس للإلهة "حتحور"، بعض تماثيل الأزواج الأثرية، حاملة قرابين، مجموعة جعارين، اعتبرت كلها بلا قيمة فى نظر مندوب الحراسة ومندوب الآثار.

* * *

خلقت سوسن ركنا خاصا لنفسها بدلاً من كوخ جزيرة الموز الذى انهدم. وضعت حديقة داخلية بها ياسمين وشجرة ورد عارشة، بجوار فتحة زجاجية تحتفظ بحرارة الشمس فى الشتاء، تدخل منها نسمة الصباح الباكر والمساء فى الصيف. اختارت مقاعد وثيرة للجلوس عند الشرفة، وبعض الكتب للقراءة.

تهبط العصافير هناك، تغرد وتبنى عشا للصغار، وتعود تنطلق نحو أفق السماء، أصبحت هواية جرجس المفضلة أن يترقب عودتها. من أين جاءت وماذا تقول؟ ظل يحاول أن يفهم.

جلس كثيرا عند هذه الشرفة، مرتدياً الطاقية التى طرزتها وردة. لكن فى زياراتى له، يستقبلنى بالزى الإنجليزى والطربوش التركى، المائل قليلاً على الجبهة صوب القلب، كما كان يفعل فى مقتبل العمر.

ظل يعطينا أملا، كأن العصافير التى تطير بعيدا نحو الأفق وتعود فى الليل تبشره بأنباء سعيدة. ماذا يأمل هذا الرجل المحاط بالموت من كل ناحية؟

* * *

تبخرت أحلامه الطموحة عن مستقبل سوسن. الآن، ما هى إلا سكرتيرة فى سفارة أجنبية، وظيفة تسعى إليها بنات العائلات العريقة لمعرفتهن باللغات الأجنبية ولمستوى تعليمهن الراقى.

استغرقت سوسن فى العمل. قضت فى السفارة القريبة من المنزل أوقاتًا أطول من موظفى الحكومة الذين ينصرفون فى الثالثة بعد الظهر.

بعد العمل، انهمكت فى رعاية الأسرة. ارتفع دخلها عن راتب الأهرام، فاستطاعت أن تتكفل بكل نفقات المنزل الجديد فى الزمالك. أصبحت صاحبة سلطة ويشار إليها بلقب "الست سوسن"، أو باختصار "الست". أحيا هذا اللقب حلم جرجس فى وجدانه، فى كيانه العامر بكل صور السيدات اللاتى أحبهن، خاصة السيدة العظيمة "حتشبسوت"، جارته لفترة طويلة من عمره، التى لم يقطع الأمل فى أن يراها مرة أخرى.

* * *

غرفة نوم جرجس فى نهاية الطرقة حيث وضع ما تبقى من تحفه الفنية فوق الرفوف. وقف كثيرا فى هذه الطرقة، يتأمل كل قطعة، يمسك واحدة بين يديه ويزيل عنها الغبار، ثم يأخذ الأخرى. فرح بقدوم أثاث الأقصر القديم القيم الفخم إلى بيت الزمالك. استرد الصور التى كانت قد أصبحت ذكرى فى خياله.

لم يغادر الطرقة إلا آخذا معه قطعة فنية يأتنس بها أثناء فترة القيلولة أو فى الليل. أنقذت بعض مجموعات من الجعارين من براثن المندوبين، قال إنها وثائق تاريخية قيمة حقا. استرد تمثال الزوجين الذى اشتراه فى الماضى مع الفتاة الأجنبية الفاتنة. حمداً لله على حماقة "دهب" الذى كسرها دون قصد. لولا ذلك ما تركوا له هذا التمثال. واسترد أيضا حاملة قرابين.

حاولت سوسن أن تخفى عنه الأنباء المؤلمة، لكنه يطالب بمعرفة كل الأحداث بالكامل عندما يشعر بأنها تكذب. إنه أكثر تحملا وصلابة منها.

بدا صلبا كالحديد. يستمد قوته من ذاته رغم وهنه. يقول لا، لا يعرف الحديد بل حبة الشعير التى حلم بها، عندما رأى نفسه حبة صغيرة تغزو الصحراء، تنثنى عندما تهب الرياح، تنتصب وتنهض عندما تهدأ العاصفة، وتمتد نحو السماء.

من أين يستمد الصلابة والصفاء. قال من الشيخوخة، يزيد عمره عما نتصور. ولد منذ آلاف السنين. مع ذلك، نتساءل كيف وصل إلى هذا القدر من صفاء البال؟ ماذا يرى أمامه وهو ينظر فى أعماقه، ولا يرقب الطيور وهى تحلق والأطفال وهم يلعبون، ماذا يرى؟ هل يرى صور العالم السحرى الذى ينبذ الشرور، تلك الصور التى أحبها منذ الطفولة؟

كم كنا نحسده على إحساسه بالأمل رغم حسرته على بيت الأقصر الكبير، رغم فراقه لمدينته الحبيبة "طيبة".

قال لى، المتنقلة الشاردة في الأرض، الفجر آت. عودى إلى مصر بعد عشرة أعوام. سنعبر الظلام بعد عشرة أعوام. حافظوا على قدوم الفجر الجديد. قال لى الآن تدق طبول الحرب، يزداد سباق التسلح لأن الموت يجذب الإنسان. علينا أن نتصدى للموت. يريد الإنسان أن يتحدى الطبيعة، بل يدمر الطبيعة. الموت يغتال الحياة. قال لى استمدى القوة من الجمال لكى يفسح مكانا للحياة .

* * *

كيف يخفف عن ناجى منفاه؟

لم يعد ناجى يحضر إلى مصر سوى مرة كل عامين فى إجازات متقطعة. حرصت المؤسسة التى يعمل بها على منحه هذه الفرصة.

تخوّفت سوسن من حضوره رغم تشوقها لرؤيته. فور وصوله تبدأ رحلة القلق على تأشيرة الخروج؛ يشعر كأنه فأر في مصيدة، وأنه قد لا يفلت منها وسيظل في بلاد ستخنق أحلامه ورسالته في مجال تخصصه.

لا يجدد عقده إلا عاما واحدا على أمل أن تتغير الظروف. تتساءل سوسن هل سيعطونها تأشيرة خروج لو أرادت أن تسافر معه؟ هل سيوافقون على تأشيرة له رغم فترة التعاقد القصيرة بالخارج؟ لو تزوجته، لأعدوا له ملفا خاصا يمنعه من مغادرة البلاد.

ينشغل بال سوسن بكل هذه التساؤلات ويستسلم ناجي للقلق المحموم ؛ مما يعكر صفو هذه اللقاءات الخاطفة. رغم أنه استقال من عمله في الحكومة منذ بداية رحيله إلا أنه لا بد أن يحصل على هذه التأشيرة اللعينة التي تحولت إلى كابوس، مثل مندوب الحراسة ومندوب الآثار.

تكررت الرسائل والزيارات، الرحيل والقبل والوعود، في شفتيه وشاربيه طعم الغد المشرق كشعاع القمر الذي يسبق ضوء الشمس، لا يمكن أن تستمر الأيام الصعبة إلى الأبد.

لكن طالت فترات الصمت، وأظلم الأفق.

* * *

يجوب ناجي العالم من مقره في جنيف التابع للمؤسسة، ويمكنه أن ينزل في مطار القاهرة وقتما يشاء، لكنه يتردد حتى لا يتعرض لمشكلة التأشيرة، فيتجنب رؤية سوسن خوفًا من المجازفة. ظنت أنه لا يهتم سوى بعمله كما يفعل والدها بمقتنياته. ربما حلت محلها فتاة أجنبية في قلبه.

تظاهرت هى أيضا بأنها ليست مهتمة سوى بالعمل، تكاد تفرغ فيه غيظها. من جهة أخرى، هى متعلقة بأسرتها ووالدها. ما مصيرها لو ذهبت إلى جنيف؟ ستعيش وحدها فى شقة فخمة؟ تستبدل بشمس الجنوب شتاء الشمال القارس؟ لا يمكنها أن تلاحق ناجى الذى ينتقل لمكافحة الأمراض فى كل مكان.

عند رحيله، تبكى على حماقة رجال السلطة الذين لا يكترثون إن بقى لخدمة الوطن، أو إن بقى من أجل أن يكون بجوارها.

وسط ضغوط العمل والهموم، تنتظر خطاب ناجى الذى يغمر قلبها بسعادة خاطفة. حينئذ، تخصص لنفسها قسطًا من الراحة، تجلس مع قرينها "عزلة" تقرأ الخطاب وتعيد قراءته مرات ومرات، تضعه على شفتيها، تذوق عذوبة قبلة تحيط شاربه الشائك فى رقبتها، فوق عنقها، تستشعر لمساته الحنون وضحكته العريضة المرحة.

تتمهل كثيرا قبل أن ترد عليه، تفكر ألف مرة فى الجمل بعقلها وعواطفها وتتمهل أيضا فى الكتابة لتتذوق كل كلمة. لا تكتب إلا عندما تنفرد بقرينها "عزلة" . ثم تنتظر لحظة سعادة أخرى ، خاطفة ، خافتة ، هشة.

يستمر إيقاع الحياة بهمومه وبضغوط العمل، تحتفظ فى ركن من قلبها بحديقة خاصة، مزدهرة بحنان الكلمات، سرعان ما تدمرها الرقابة بتعطيل رسائل ناجى داخل أدراج المكاتب.

اسودت الحياة خلال فترات الصمت.

بعد عذاب الصمت الطويل، تتسلم خطابات متسخة فقدت رونقها، نزعت الرقابة الغلاف وأعادت قراءة الرسائل بعد أن فتحتها وجعدتها من كثرة المراجعة.

كلما تباعدت رسائل ناجى، اتسعت دائرة الوجوه البغيضة. تخاف أن تنفرد بصديقها عزلة، توأمها الذى يتألم هو أيضا مثلها.

أجهدت نفسها فى العمل، وتعرضت لضغوط أفسدت أحلامها. فقد استقبلت فى مكتبها ضابطا طلب منها أن تكتب تقريرا سريا عما يدور فى الأوساط الدبلوماسية. رضيت بالظروف التى تحالفت ضدها من قبل، ماذا حدث الآن؟ أين الشعور بالرضا؟

* * *

إنهم مراقبون، تعرف ذلك. يعيشون فى مناخ المخبرين والمعتقلات. قد يكون مصدر المعلومات من أية جهة، من أشخاص أبرياء يذكرون تفاصيل عن حياتهم قد تثير الشبهات، بدون قصد. بعض أفراد أسرة عبد المسيح مدونون فى القائمة السوداء. ميخائيل، الأخ غير الشقيق، المغضوب عليه، بسمة، التى التحقت مؤخرا بعمل سكرتيرة فى منظمة الأمم المتحدة، سوسن، فى منصب مهم فى سفارة أجنبية، باشا الأقصر نفسه، الذى مازال يستطيع فى رأيهم أن يدبر مؤامرة للإطاحة بالحكم، رغم تقدم السن. عائلة عبد المسيح تحت مراقبة من الشرطة بكل الوسائل السمعية والبصرية، بل وتطلب منهم أيضا التجسس على الآخرين. تجرى معهم تحقيقات مستمرة عن تحركاتهم، عمن يختلطون بهم.

عيون وآذان مسلطة على حياتهم الشخصية، تخترق قلوبهم وتسلبهم الشعور بالأمان. ينظرون إليهم بتعسف فى ظل قانون الأحكام العرفية.

يخافون الاختلاط بالأجانب، يرتابون فى أهل البلد، حتى فى أفضل الأصدقاء. لا تقابل سوسن ليلى بكثرة، إنها متزوجة من شيوعى قضى خمسة أعوام فى السجن.

تسكن سوسن فى جزيرة الزمالك، وتسكن ليلى فى جزيرة الروضة؛ جزيرتان متباعدتان. يقللان الزيارات المتبادلة ويتعللان بالإرهاق فى العمل، لكن فى الواقع أصبح الحذر ضرورة. تبعدان الشبهات عن الملفات السرية فى مكتب المخابرات، التى تدون كل تحركات المشتبه بهم، سواء كانوا مذنبين أو أبرياء، عن طريق المراقبة التى تصل أعينها وآذانها حتى جدران غرف النوم. يمكن أن تتهم ليلى بمساندة الإقطاعيين، رغم انتماءاتها الشيوعية، أو تتهم سوسن بالتآمر مع اليساريين، رغم انتمائها إلى تلك العائلات العريقة التى "شبعت من دماء الفلاحين". فى ذلك الحين، ترددت قصة طريفة عن الجمال التى تهرب نحو المدينة. قالت الجمال للأرانب المندهشة لركضها السريع خبراً مخيفًا:

– أمروا بالقبض على كل الأرانب!

ردت الأرانب:

– لكن انتوا مش أرانب.

– على بال ما نثبت إننا مش أرانب، ح ناخد لنا خمس سنين فى السجن!

* * *

لم يكترث "سيت" بذلك كله. جاء إلى مصر ليواصل دراساته في الأقصر.

إنه من هؤلاء العلماء الذين يترددون على المناطق الأثرية ويشعرون بالضيق عندما لا تتوفر الظروف للذهاب إليها، كشعور الإنسان فى المنفى. يعشق "سيت" الصحراء، الوادى، رسوم هؤلاء النساء الحسناوات، التى يود أن يلامسهن بعنف لولا خوفه من تأثير اللمس على الجدران. يعشق الروائح، الألوان، ملمس الطين الأسود الطاعن فى القدم. يعشق سوسن، "سشن"، كأنها نقش حى أو تاج عمود هاتورى متحرك، امرأة فرعون من زمن الكمال، بشموخها وابتسامتها الجذابة المرحة، التى تنعكس عليه مثل شموس وأقمار طيبة. لا يطلب منها سوى أن يراها كما هى، و يفتخر بها، كالرسام المولع بالروائع الفنية.

مع ذلك، لم ييأس أن تتحول الصورة المتحركة إلى طبيعة إنسانية ضعيفة فى أحضان الشهوة من أجله، من أجله هو.

يرسل باقة زهور كلما حل بأرض مصر، إلى أروع زهرة لوتس فى نظره، لتزين سوسن البيت بشبيهاتها.

قطبت وتوجست سوسن فى الأول، كأن الزهور هى عيون المخابرات التى جاءت من أمريكا للتجسس على دولة اشتراكية.

فى المرحلة الناصرية، العدو فى المقام الأول هو أمريكا. يرتابون فى وجود "سيت"؛ كأن اسمه يذكرهم بالأخ الشرير فى الأسطورة الفرعونية، الذى يهدد شقيقه "حورس"، يهدد الشموس، يطوف الصحراء قبل أن

يحتل الوادى، يحرض الأمطار السماوية التى تتجمع فوق التلال لتنهمر وتسحق قرى الوادى وتدمرها. لم يتصور هؤلاء المواطنون الأمريكيون الطيبون الذين لا يعرفون سوى شخصية "سيت" فى الإنجيل، أن ابنهم سيتعلق ببلاد تصور "سيت" فى الأساطير إلهًا بوجه حمار، ليمثل الشر، الموت، الصحراء. باسمه هذا إنه أسوأ من الشيوعيين، أسوأ من جرجس. يملك جيشا من الحمير، ٧٧ على الأقل، يحاولون منع الشمس من الشروق.

تراجع سوسن نفسها عندما يطول انتظار رسائل ناجى، تطرح للبحث ثانية مسألة جيش الحمير، وتردد لنفسها ما يقوله والدها. ما زال جيش الحمير قادرا على سحب مركب الشمس صوب الفجر. تبدو كأنها وقعت تحت تأثير الشعارات، وصارت هى ضحية الشعارات، فلا تسمح لنفسها حتى بالقليل من الحريات التى تربت عليها.

بدأت ترتاح لوجود معجبٍ وفىٍّ يؤنس وحدتها.

يأتى فى زيارة إلى بيت الزمالك لتناول الشاى. يتحدث مع جرجس عن "طيبة"، المدينة التى حرم منها، وينقل له أحدث أنباء التنقيب. يتفادى بلباقة الحديث عن البيت الكبير ومجموعة المقتنيات، بل يصف أبحاث الفرنسيين الجارية لمعالجة الأحجار الأثرية المعرضة للتلف، عن عمله فى تخصصه بعلم النقوش. ينصت جرجس باهتمام، كأنه يشرب إكسير الحياة. "سيت" سيد الأقصر حقا. يقدرها، يقدر جمالها. "شيكاجو هاوس" البسيط، فى نظر جرجس قصر يعيش فيه "سيت" بجوار معبد الكرنك. لم تتجاسر سوسن على دعوته مرة أخرى. لكن جرجس دعاه

مرارا على العشاء. من أجل "سيت" يأمر باستخدام الأطقم الفضية التركية الأنيقة، التى أنقذت من بين غنائم البيت الكبير. من أجل "سيت" يجب شراء الكنافة ؛ لأن "سيت" يحبها، ولو بالسودانى. لا يوجد فستق أيام الثورة.

"سيت" له صديق آخر فى البيت، الخادم "دهب". لم يتكيف مع حياته فى كوم أمبو، فى شقة تشبه أقفاص الأرانب وتبعد عن أرضه الزراعية عشرة كيلومترات. ترك هذه البيوت ذات الكتل والقوالب الأسمنتية وعاد ليعيش مع "الست سوسن – ست الستات". حزن وبكى بلاد النوبة التى ابتلعتها بحيرة ناصر، ودمرت بيته المطلى بالجير، المزين بسقوف من القش ذى الألوان الزاهية، وبقبة تشبه الكنائس القديمة ، على واجهاتها رسم جدارى لمركب متجهة إلى مكة، تشبه مركب الشمس فى رحلتها الليلية، ومركب أبى الحجاج. سعد لرؤية الوجوه المألوفة التى تزور البيت مرة ثانية. عبر عن سعادته بارتداء زيه الرسمى، القفطان الأزرق بلون أعماق البحر، المزين بخطوط ذهبية.

عندما يأتى "سيت"، تضىء سوسن كل الأنوار فى بيت الزمالك، تتأنق من أجله، تشرب معه كأسا من الويسكى للاسترخاء، كى تستعيد ابتسامتها.

تنسى معه مهرجان الوجوه الحقودة، تتحدى عيون وآذان المتربصين للتشهير بها أو فضحها. إنها فى حماية رجلين؛ والدها وشقيقها بشرى. ليست خائفة الآن. لماذا يتدخلون فى شئونها؟ تتحداهم وتتناول مزيدا من الويسكى لتلقن هؤلاء الجواسيس درساً!

مع ذلك ظلت سوسن متحفظة. تتذكر فضيحة العمة "جرتى القذرة". إنها تتصف بأفضل الصفات. هى خليط يمتزج بطمى أسوان والأقصر. لا تفكر فى الزواج من رجل أجنبى. قبل أن ترتاب فى خطط زواج العمة مينى وتتعرف على ناجى وتحبه، أنذرت "سيت" على انفراد ألا يأمل فى علاقة حرة أو فى الزواج بها. قالت له، إنه من الأسهل عليه أن يسرق كاهنة فرعونية جميلة من متحف القاهرة، أو يلمس راقصة فى مدفن "نخت" بالأقصر، ويأخذ عازفة الناى أو الإلهة "حتحور" إلى الولايات المتحدة، على أن يلمس يدها أو يخطف قبلة.

الآن، يدها بين يديه، يطلب منها أن تتزوجه وتذهب معه إلى بلاد الحرية، الولايات المتحدة، وتعود مرة كل عام لزيارة أسرتها ووالدها. قد يصبح رئيس قسم فى جامعة شيكاجو التى يعمل بها أستاذا، أو مديرا للدراسات الشرقية هناك. مع ذلك، من أجلها يمكنه أن يسعى لوظيفة مدير "شيكاجو هاوس"، هذا البيت الصغير على شاطئ النيل، القريب من معبد الكرنك، حيث ستحظى، على غير العادة فى زمن الحكم الاشتراكى، بلقب مليكته المتوجة.

لمعت عينا جرجس بالفرحة.

لكن هناك عقبات. سوسن مخطوبة لناجى. تتلألأ شبكته الماسية بين أصابعها. بينهما رباط رغم الفراق، بسبب تطور الأحداث العامة، وبعد المسافة بينهما. من شدة الأسى والشعور بالذنب، تصور جرجس أنه كان من الأفضل أن يموت مبكرا، مثل شقيقه، قبل صدور قانون الإصلاح الزراعى.

* * *

لم تسمح سوسن بقبلة خاطفة من "سيت"، كما أجاز من قبل القس ذو الرداء الأبيض، امتنعت عن رقص التانجو أو الفالس معه. لو سمحت لنفسها بذلك لأخذت بنصائح "مير ماري دو كروسيفكس" وأبعدته كلما اقترب منها. مع ذلك، تزداد عيناها لمعانا وابتسامتها إشراقًا كلما زارهم فى منزل الزمالك.

عندما يعـود "سـيت" إلى الأقصر تـزداد صبراً وهدوءاً أيضًا، فى انتظار الرسائل النادرة من ناجي.

* * *

ظل جرجس دائمًا معجبًا بالعمة مينى، لم ينو حقا أن يقطع وعد الزواج الذى يربط الأسرتين للمرة الثانية. لا ينقطع الحديث بينهما حول زواج سوسن وناجى. هى واثقة بمشاعر ابنها تجاه سوسن، لن يلتقط أية فتاة أجنبية ويترك جوهرة الجواهر. يستمع إليها جرجس كالمعتاد برحابة صدر وهى تصف مميزات ابنته المفضلة.

العمة مينى متأكدة تمامًا أن الباشا لن يفقـد ثروته إلى الأبد. سوف يستردها فى يوم من الأيام. تعتمد فى رأيها هذا على الحدس. إنها متأكدة من صحة كلامها. هكذا تقول. وتقارن جرجس بيعقوب فى الكتاب المقدس:

– ح تشوف يا سعادة الباشا. ثروتك ح ترجع لك الطاج طاجين. إبجى افتكر الكلام ده يوم ما يحصل. جول العمة مينى جالت!

يلتقيان فى نادى الجزيرة أيام الأحد صباحًا، وكلما يتقابلان يتحدثان عن المستقبل. ترافق سوسن والدها وتصحب ليلى والدتها. ظلت تذهب إلى النادى أيام الأحد حتى آخر يوم فى حياتها، تلك السيدة الوفية ذات الشعر الفضى، والأسنان المستعارة اللامعة، والعينين السوداوين الماكرتين، الفخورة بابنتها وهى تقود سيارة، وبابنيها الناجحين. لم تفقد أناقتها حتى آخر لحظة. تذكر سوسن معطفها الأبيض فوق قميص صدار بنى، والحذاء والقفاز بألوان متناغمة. لا تضيع وقتها، تحضر معها صحيفة للقراءة وقطعة قماش للتطريز. تطلب شاياً على الطريقة الإنجليزية، بالتوست المحمص، والزبد، والمربى، وقطعتى الكيك بالفواكه.

– يفرج كتير عن شاى زمان فى "ونتر بلاس"، مش كده يا سعادة الباشا ؟

لقب "سعادة الباشا" الذى تنطقه هذه السيدة اللطيفة، يجعل الباشا السابق يستغرق فى ماض انتزعوه منه على مدار السنين.

فى النادى، يلعبان معا لعبة الطاولة التى تعشقها العمة مينى. تكسب أحيانًا، وتغش أحيانًا فى رمى النرد بطريقة خاصة. يمكن ذلك بالنرد الأكبر حجمًا فتتحجج بضعف النظر وتطلبه كبيراً، معلقة بابتسامة ماكرة:

– الشيخوخة سعادتك!

– انتى بتتدلعى يا مدام مرقس. بتكبرى نفسك عشان نجولك إنك لسه شباب!

أصبحت أيام الأحد، بعد حضور القداس فى الكنيسة، منفذاً مضيئا فى زمن الكآبة والرعب و الإرهاب.

يندر الحديث فى موضوعات مقبضة عن الأحداث الحالية، بل يحكيان عن ماضيهما السعيد. هى، عن سفريتها بمرافقة ابنتها، التى لا تقل جمالاً عن رحلاتها السابقة مع زوجها الراحل، وعن ذلك الشتاء فى الأقصر. معها الصور فى النادى؛ النزهة بالفلوكة، والنزهة فى معبد "حتشبسوت"، فى جزيرة الموز، ليلة عيد الميلاد فى فندق "ونتر بالاس". هو، يتحدث عن المرحلة التى كان فيها قنصلا فخريا لفرنسا واليونان وبلجيكا وروسيا القيصرية. يتحدث للمرة المليون عن اكتشاف مقبرة "توت عنخ آمون"، وعن وسامة وردة فى ذلك الحين. فتزايد مدام مرقس فى وصف جمال وردة بنظرة حالمة، وعن شبه فردوس بها؛ مع ذلك ليس تماماً، وقارنت بين أنف فردوس وأنف وردة الخالى من العيوب.

فى أيام الأحد فى النادى، لا يحنى جرجس ظهره تحت وطأة السنين بل تنتصب قامته، كأنه يرتدى النياشين على صدره ويضع سيفه فى حزام سترته، سترة الأعيان. يشعر بشموخ ويبرم شاربيه بكبرياء. أيضا مدام مرقس الرقيقة تشعر باستمتاع وهى تسترجع الماضى وتبتهج لأشياء بسيطة مثل شقشقة العصافير ومزاولة لعبة الطاولة.

يتحدثان أيضا عن المستقبل بتفاؤل.

مع ذلك تمر أحيانًا سحابة، فتعلق مدام مرقس بوقار:

- أنى شايلة هم مستجبل ولاد ولادنا فى عالم ما يعلم به إلا ربنا يا سعادة الباشا .صحيح. جلبى مش مطمئن ح يحصل إيه من بعدى.

* * *

إنها أول من رحلت عن الدنيا. لم تشهد هزيمة ٦٧ فى ثالث حرب ضد إسرائيل، الحرب التى سحقت البلاد، وحطمت حدائق الزهور فى الوجدان.

كارثة الحرب المحدودة الثالثة

كنا فى شهر يونيو. فى ذلك الوقت، لم يكن "سيت" بالقرب من سوسن، بل فى أمريكا المتفوقة بأسلحتها المتطورة وجنودها الإسرائيليين، والمنتصر على غطرسة المصريين. استمرت الحرب بالصدفة ستة أيام، المدة التى خلق فيها الربُ العالمَ فى التوراة. الانتصار سريع والهزيمة مخزية؛ احتلت سيناء وأرض فلسطين...

حاولوا إخفاء فداحة الكارثة عن الشعب، لكن انتشرت شائعات الهزيمة. فقد تناقضت الأقوال بين المحطات الأجنبية والمحطات المحلية وسمعنا أخباراً متضاربة أدت إلى كشف الأكاذيب. كنا من جنود معسكر الحرب الباردة الفاشلين. بددنا كل الأسلحة الروسية ولم يستطع الجندى المصرى أن يحتمى بأى مكان. قبل أن تبدأ المعركة، فر آلاف الجنود؛ ضل الجيش فى صحراء سيناء مهددا بالعطش والجفاف، الجفاف الذى هدد الوادى من قبل، منذ قديم الزمان، عندما رحلت الإلهة القصية عن البلاد. وقع رجالنا فى هاوية اليأس.

بعد الهزيمة، قال جرجس إن قوانين الزواج التى تبيح الطلاق قوانين حكيمة، إذ كيف نحتمل أن يشاهد الغرباء من داخل بيوتهم تلك الإهانة الساحقة، وخاصة الأمريكان!

إلى جانب الاحتلال والخوف من العطش والموت، امتلأت النفوس بمشاعر الرفض والاحتقار لهؤلاء الجنود الصغار المسالمين الذين ينتمون إلى الطمى الأسود الخصيب، هؤلاء الذين لا يعرفون القتال، الذين خلعوا أحذيتهم للفرار من هجوم العدو.

أقر الريس بمسئوليته عن الهزيمة واعترف بالذنب. أعلن أنه سيتنحى ليفسح المجال لشمس جديدة أكثر لمعانا. هتف الشعب احتجاجا على الاستقالة. هو الأب الجبار الذى يجب أن يقود المصريين إلى النصر، رمسيس الثانى الحديث، كالتمثال الشامخ فى ميدان باب الحديد. فقبل "الريس" أن يطيل فترة حكمه.

لم يسمع الريس قط صدى صوت باشا الأقصر.

* * *

صب البعض الآخر غضبهم على الريس ذاته، المسئول عن الهزيمة. شعر بعض الباشاوات الذين انتزعت ملكيتهم ببعض العزاء فى تطور الأحداث.

قالوا لجرجس:

– ده يستاهل بعد ما سلب كل حقوقنا وثرواتنا. أهه كلها راحت فى ست أيام.

لم يبادلهم جرجس نفس الشعور. بعد آلاف السنين ، ظهر رجل من الصعيد، أول ريس مصرى منذ زمن بعيد. ليته ربت على كتفه وقال له "يا بلديات"!

لكن لم يسمع الريس صوت "بلدياته"، لم يتغن بروعة بلاده بل استخدم فن الخطابة لإعدادها للحرب. لم يهتم بجمال مصر بل أعدها للتسلح مما برر للعدو الهجوم لتدميرها.

خنق الريس صوت جرجس. إنه مجرد أسد على الورق، قادر على قمع الحريات فى الداخل، على خنق صوت جرجس... جرجس الذى كتم صرخة... صرخة تستحق أن تسمع فى كل أنحاء العالم... صرخة خطر قادم أقوى من الإهانة والهزيمة، إنذار لإنقاذ الآثار المصرية والتراث المصرى. استُنفد المال فى الدعاية والحرب ولم يفكروا فى تصريف المياه لمعالجة آثار توقف الفيضان الذى كان يغسل الأملاح، الأملاح التى تقتل الأرض، تتلف الآثار الفرعونية، ذلك التراث القيم لكل الإنسانية.

* * *

فقد جرجس القدرة على الضحك، القدرة على النوم العميق.

عالم الصور ملجأه وملاذه الوحيد. فوق رفوف البهو المؤدى إلى غرفة نومه اصطفت تماثيل الأزواج الأثرية والأدوات التى تستخدم فى الحيوات المتكررة، وحيدة مثله، مبتورة، بعيدة عن موطنها الأصلى "طيبة"، كأنها تصرخ من أجله، من أجل نفسها، من أجل الأرض، من أجل جلب الفيضان، من أجل إغراء الإلهة القصية بالعودة...

يجلس كالطير الجريح بجوار الشرفة الزجاجية التى أعدتها سوسن لعزلة. يجلس الساعات الطوال صامتا، منهكا فى مأواه الصغير.

رأته سوسن وهو يمسك طاقية وردة بين يديه، وينظر إلى تطريزها لمار جرجس، كأنه يتحدث إليه. هل ينتظر مار جرجس أن يتحول الشر إلى تنين ليقتله أو يتحالف معه؟ هل يعرف مار جرجس أين الشر؟ هل الشر جرجس شخصيا؟ أم "سيت" أم السلطة؟ الرئيس أم إسرائيل؟ الروس أم الأمريكان؟ ماذا يعرف مار جرجس؟

ثم ينتبه جرجس إلى الحياة من حوله. يرنو إلى سوسن وهى تسقى شجرة الورد والياسمين. ينظر إلى العصافير وهى تنطلق عاليا، عاليا نحو السماء، ويترقب عودتها. من أين جاءت؟ يبتسم لأحفاده، ويحكى لهم القصص التى كان يرويها لسوسن وهى طفلة. يعلمهم الخطوط الهيروغليفية، رسم الـ "كا"، الـ "أخ"، الـ "با"، التى تختلف فى الشكل لتعبر عن معنى واحد: عن روح الإنسان.

ازداد جرجس شبها بالمنشد الكفيف الذى يرى الحياة والنور رغم الظلام المحيط، رغم الموت.

لا يحق لهذا المنشد الكفيف أن يغني الآن.

آه! كَتْم الصراخ يعمق الجراح.

* * *

الحنين إلى ماض يبعث الحياة فيه ويعوضه عن هذا الظلام؛ "طيبة"، مقتنياته الفنية، البيت الكبير، القرب من معبد الأقصر وجارته السيدة العظيمة "حتشبسوت".

أضافت زيارات "سيت" صورا إلى الصور فى وجدانه. "سيت" رسوله من مدينته الصغيرة، حليف الإله "تحوت"، ملك "طيبة" الحق. بالكلمات، ينتشل معبد الأقصر من العدم، يحيى موكب الزواج المقدس وميلاد الإله، مراكب الآلهة المغطاة بمظلات مقببة من الكتان مشدودة على أعمدة صغيرة، والبحّار الذى يوجه دفة المركب، المصلى الذى ينحنى احتراما للإله، اللافتات المقدسة.

– والكاهن قدام مركب، ماسك بخور، فاكر باشا؟ بخور من حبوب اسمه إيه؟ آه "جاوى". يطرد أرواح شر. لازم كتير بخور باشا لحماية آثار من ريح، مطر. ميه مالحة تعمل عفن. لازم رحلة بلاد "بونت" يا باشا زى أيام "حتشبسوت"، نجيب بخور كتير. خسارة عالم نقوش يضيع يا باشا! حمالين مراكب، مواكب كهنة، مصلين، اللى بيغنوا ويصرخوا مبسوط مع موسيقيين؛ آه، والبقر المقدس، البقر السمين، جميل!

يتحدث "سيت" بعشق عن أعمال البولنديين فى معبد "حتشبسوت". بدأت فكرة المشروع فى ذلك الشتاء فى الأقصر، قبل الثورة بكثير.

– فاكر يا باشا؟

أما "سيت" فلديه أحلام ومشروعات خرافية. يود أن يفكك معبد الأقصر، أن يعالج كل قطعة تالفة من أحجاره، ثم يضع المعبد فوق منصة جديدة، يعيد إحياءه كما سبق أن فعل، بألوان تزداد حيوية كلما ارتفع المعبد نحو السماء؛ فوق القمة، نقوش أضخم، صورة "حورس" فى عربته المذهبة، بزى أزرق اللون، يخطو فى الفضاء خطوات عملاقة،

وفى الليل، تنيره أضواء الشموع. يود "سيت" فى النهاية، أن يغلف المعبد كله بالزجاج ويحوله إلى متحف.

- ده تمنه مليون دولار، زى تمن صاروخ يا باشا!

عاش باشا الأقصر طوال العمر فى عالم الأحلام. دخل عالم "سيت" كمن يدخل مدينة الأموات ليلا، ويشهق للصور الرائعة التى تتلألأ فى الظلام!

كيف يعتمد على مار جرجس لإنقاذ هذه الدنيا الجميلة من الزخارف والنقوش والتماثيل؟

* * *

تشتد الأيام ظلاما. منذ الهزيمة، مر عام أضيف على كاهل جرجس، ثم عام آخر، ثم آخر. عبرت سوسن السنين كأنها تعبر الصحراء، لا تكاد تجد الماء؛ زيارة من "سيت" القريب منها جدا، خطاب من ناجى البعيد، البعيد جدا.

فجأة، تأتى انفراجة؛ خطاب من ناجى. فتجلس فى ركنها المخصص لعزلة، تقرأ وتعيد القراءة وتحلم، لحظات جميلة تخلصها من الشكوك، الوساوس، الدموع المخنوقة، والضحك المتشنج. جوقة من الطيور، تغرد مع الكلمات وتخترق الصمت. الخطاب ساحر، كأنها تستعيد أول لقاء بينهما. ناجى يحبها. إنها متأكدة. كتب يقول إنها تلمع فى وجدانه كآلاف النجوم؛ متشوق أن يراها، وهى منشغلة كالنملة وسط جيوش النمل. يردد اسمها: "سوسن"، زهرة اللوتس التى تحمل فى

قلبها رغم وحدتها شمسًا شامخة. يسألها لماذا لم يعرف كيف يجذبها نحوه، لماذا لا تتبعه بدافع الحب فى كل أنحاء العالم.

ثم تنتهى لحظة الانفراج وتعود لجفاء الصحراء من جديد. طالت المسافة، طال الوقت الذى يفصل ينبوع الماء. حاولت سوسن أن تملأ الفراغ بالعمل والجولات مع والدها. عند الغروب تصاحبه فى نزهة إلى الحقول، فى منطقة الأهرامات الخالية فى ذلك الحين من أية مبان، أو على ضفاف النيل، فى مناطق زراعية، بها أكواخ الفلاحين التى لم تعد مهددة بالفيضان، وبها الجاموسة معصوبة العينين، تدير الساقية. ترافقه أيضا إلى فندق سميراميس مع مراد وصادق باشا. غاب الأصدقاء خوفًا من التعرض للخطر. يلتقون فى أوقات منتظمة لقتل الفراغ. يستمدون من بعضهم القوة على الاستمرار، على الخوض بحذر فى حدائقهم الخاصة. بالحدس، لا يتحدثون فى موضوعات مهينة لتجنب الألم، لا يذكرون الذين تغيبوا. لماذا يحتاجون للكلام لملء فراغ الوحدة! مازال النيل العظيم مثل الزمن ينساب رويدا أمامهم بقواربه، بدون أن تنهار قصور الصور التى ارتسمت فى الوجدان برفق، عبر السنين. ماذا يدعو لاستعجال الزمن؟

* * *

عام ١٩٦٩ ، تم تعديل قانون الإصلاح الزراعى للمرة الثالثة. خفضوا الملكية إلى خمسين فدانًا للفرد، وخمسين أخرى للورثة. صادر مكتب الحراسة بقية أملاك جرجس.

لم يعد جرجس يهتم بأراضيه. يبحث عن النور فى نهاية النفق المظلم، حيث تولد الشموس الجديدة المبهجة، حيث تغرب الشمس غربًا فى طيبة، فى مدينة الأموات، فى مكتبه المطل على النيل بالأقصر، حيث يحضن تمثال الـ "كا" زوجته الحبيبة.

توفى الريس بعدها. أصيب الشعب بالإجماع بحالة هستيرية أثناء الجنازة. " ليتها جنازتى حتى أدخل أخيرا عالمًا جديدًا فى مدينة الأموات".

عودة الملكية

أدخل الريس الجديد تعديلات جوهرية أدت إلى تغيير مجرى الأحداث.

كان رجلاً من محافظة المنوفية التي تقع في مصر السفلى؛ ابن ملاك زراعيين صغار، مهنته الأولى متواضعة؛ عمل ساعياً ثم أصبح ضابطا في الجيش المصري. كغيره من الأهالي، بشرته سمراء من كثرة تعرضه لأشعة الشمس الحارقة.

رغم قامته القصيرة، اتخذ هامة رمسيس الثاني العملاقة، وحقق إنجازات أسطورية بالقضاء على نظام بال وإقامة نظام جديد. في العامين الأولين من حكمه، بدأ بالثورة الإصلاحية، وهدم النظام السابق ورموزه. أوقف عن العمل علي صبري، رجل السلطة الذي وقع على الأمر العاجل بنزع ملكية بيت الأقصر الكبير. أقر قانونا، بعد أخذ الأصوات في مجلس الشعب، يبيح استثمار رأس مال عربي في مصر والمناطق الحرة، ويتضمن إلغاء الحراسة والتأميم، وأصدر قراراً بطرد خمسة عشر ألف خبير سوفييتي، وسمح للإقطاعيين باسترداد ثرواتهم، وقضى على ملامح الشر.

أخيرا، أفاق جرجس من الكابوس.

لو كانت مدام مرقس على قيد الحياة، لقالت له:

- مش جلتلك إن ثروتك ح ترجع لك الطاج طاجين يا باشا!

* * *

ذهب بشرى ليستكشف الأمر. لم يستطع جرجس لكبر سنه أن يعود إلى الأقصر بشكل مفاجئ.

يحمل بشرى اسم جده من الأم ومعناه النبأ السعيد. لكن ينادونه "فتفوت" لأنه ضئيل الحجم، يحاول أن يجد لنفسه مكانة بسيطة في محيطه.

اكتشف وسط الأتربة والأوراق المتراكمة فئرانا تعيش في البيت. أعدت الأدوار لتكون معقل الثورة الأولى. في الدور الأول ، مكاتب الاتحاد الوطني الديموقراطي ، في الدور الثاني ، مكاتب الجمعية العامة للإصلاح الزراعي.

شاهد بشرى بحزن الوضع المتدهور للمكان. وجد ثقبًا يكشف السماء بدلاً من القبة المضيئة التي كانت تشبه ألوانها قوس قزح. قيل له إن السماء لم تعد بنفس الجمال على الدوام، تختفي النجوم في بعض الأحيان، بسبب بناء السد العالي. وجد بشرى أيضا أن الدور الثالث انهدم تمامًا، هذا الدور الذي كان يميز البيت الكبير عن البيوت المجاورة في ارتفاعه.

أصبح بيت بنات العم أكثر جمالاً وتألقًا بالمقارنة ببيت باشا الأقصر. اضطرت بنات العم إلى البقاء فى منزل الأسرة. مصدر معيشتهن الوحيد من الإنتاج الزراعى. تابعن عن كثب أعمال الفلاحة لضمان إنتاج مثمر.

توفى للتو شقيقهن الذى يسمونه الباشا الصغير، صاحب الضحكة المشرقة، المحبوب. ظل أعزب طوال حياته. فى الجنازة، ارتدت المدينة كلها ملابس الحداد حزنًا عليه، ترك فراغا لم يستطعن ملأه بعد رحيله.

* * *

كان من المقرر إزالة البيت الكبير، لولا الاحتياج إلى مقر للحزب. بعد بناء السد العالى، قامت مصلحة الآثار بالتنقيب على ضفاف النيل، اتضح بالفعل أن الجد ميخائيل بنى بيته دون أن يدرى فى موقع مجموعات سكنية لقدماء الفراعنة البسطاء تحت أرضه.

ظلت حفريات التنقيب جارية، تفصل البيت الكبير عن معبد الأقصر. لإيواء موظفى ثورة الريس الأولى، صمد المبنى الجميل مثل جذع شجرة قوية، رغم محاولة اقتلاعه.

أصبح البيت الكبير شاهداً على عصر مضى، مثل جامع أبى الحجّاج، أصبح مهجوراً ونشازاً، مثل "فتفوتة" خبز منسية على مائدة الطعام، مثل بشرى فى سلسلة شجرة العائلة العريقة التى توالت فيها وتكررت أسماء جرجس وميخائيل.

* * *

كان فى حسبان بشرى أن اليوم الذى سيسترد فيه جرجس ثروته آت. سجل فى قائمة دقيقة تواريخ وفيات الأقارب عبر السنين، والتعديلات المختلفة فى قوانين الإصلاح الزراعى، ومستحقات أفراد العائلة، كأنه سافر عبر الزمن إلى الوراء حتى العام الثامن من حكم عبد الناصر، يجمع فى كل رحلة إلى الأقصر المستندات اللازمة. قام أيضًا بمراجعة العقود التى أبرمها مكتب الحراسة بالنيابة عنهم.

اكتشف أن الأقارب الذين يملكون أراضيهم رغم تطورات الأحداث، تصرفوا فى ممتلكات جرجس ووزعوها على أنفسهم اعتقادا منهم أن الباشا لن يستردها فى يوم من الأيام، سواء كان ذلك بحسن نية أو بسوء نية.

استولوا على أحسن المواقع فى الحقول، فى الأراضى الزراعية التى تحولت إلى مبان سكنية، فى جزيرة الموز، فى الأراضى الصالحة للفلاحة، وتركوا لجرجس وأبنائه ما تبقى. فكروا أنهم أولى من الحكومة التى تضع الممتلكات تحت تصرف مكتب الحراسة.

سلم مكتب الحراسة لبشرى دفتر حسابات مختصر، أثبتوا فيه قلة الإيراد وتزايد الإنفاق. قاموا بتأجير الدور العلوى بجنيه واحد شهريا للجمعية العامة للإصلاح الزراعى، و كذلك الدور السفلى، للاتحاد الاشتراكى بنفس الثمن، وصرفوا تكاليف وصلت إلى مئات وآلاف الجنيهات؛ حددوا الضرائب على الأراضى على أنها مناطق بناء رغم أن عائد الإيجار كان ضئيلاً لا يعادل أكثر من إيجار حقل من حقول القطن.

بدأت النزاعات. رفع بشرى سلسلة من القضايا على أقاربه وعلى مكتب الحراسة. تتابعت النزاعات واحدة تلو الأخرى فى دائرة لعينة، كالمرض الخبيث.

* * *

أين ناجى ليشفيه وينتشله من ذلك كله؟ لماذا لم ينجده؟ لا يطمع ناجى فى ثروة جرجس، شغله الشاغل مكافحة المرض وتحسين مستوى الإنسان؛ لا يرغب فى الانزلاق فى الدائرة اللعينة مع بشرى. يريد سوسن، سوسن وحدها؛ ليطير معها بعيداً عن مصر.

مع أن الثروة المنتظرة هائلة؛ بعد انتهاء الحرب الرابعة ضد إسرائيل، ارتفعت قيمة الثروة إلى آفاق بلا حدود.

* * *

العام الثالث من الحكم الجديد يشبه العام الخامس من حكم رمسيس الثانى. عقد العدو اتفاق سلام أصبح مناسباً بعد حرب ١٩٧٣، التى أدت إلى نصف هزيمة لمصر.

معركة قادش الشهيرة ضد تحالف بلاد الشام مدونة بالنقوش فوق صرح معبد الأقصر الضخم. يخلد الشاعر "بنتاءور" ذكرى هذا الانتصار. يقول النص المصاحب للصور كيف دمر العدو وهرب، والبالغ عدده عشرة آلاف وتسعمائة جندى، وكيف تقدمت العربات المصرية بنظام فى أثناء القتال وسط معترك الجنود المهزومين. الرب هو النور، يرشد الفرعون، ابن النور، الذى هزم الظلام.

فى عام ١٩٧٣، بدا للمرء كأن صرح رمسيس الثانى تضاعف فى كل مكان، لتقلد الأثر الفرعونى. انتشرت أقواس النصر فى العاصمة، فى المحافظات، فى القرى المصرية لتدوين المعركة الرابعة ضد إسرائيل. انتصر الفرعون الثانى فى العصر الحديث باسم الله. حولوا نصف الانتصار إلى إنجاز مبهر وراعد لمآثر الجيش، من أجل مصلحة الحاكم العسكرى فى العصر الحديث الذى يحاكى مآثر الفرعون رمسيس الثانى.

استُخدمت فى هذه الحرب الأسلحة الروسية. لكن تفوقت الأسلحة الأمريكية التى استخدمها العدو فى الحربين السابقتين. فتملكتهم الرغبة فى التغيير.

انتقلنا إلى المعسكر الآخر للاشتراك بأسلحة أفضل فى الحرب الأشمل، المسماة بالحرب الباردة.

* * *

حدثت تغييرات جذرية فى الأقصر.

أنعم الله على العرب بالذهب الأسود. فتحوا أبواب المنفى الذى فرضه الريس الأول فى الداخل، بعد أن كان يسمح للصفوة المحظوظة فى ذلك الوقت بالسفر بحرية. هجمت جميع الفئات إلى بلاد الذهب الأسود: الجامعيون، والموظفون، والفلاحون، وكل الأيدى العاملة التى تعانى من البطالة.

عملت غادة فى الكويت بأجر أعلى مائة مرة من الأجر الذى كانت تتقاضاه عند أسرة عبد المسيح.

شاهد تمثال الفرعون فى محطة باب الحديد، بعد مغادرة غادة، سيلا من الفلاحين بصرة هزيلة فوق الرأس؛ لا يقدمون له القرابين بل يغادرون بلاده، لالتقاط فتات الخبز من مأدبة الذهب الأسود.

توارى المنفيون الجدد وحل محلهم المقاولون. انتشرت الفنادق بجوار معابد ومدافن "طيبة" الغنية بآثارها المدهشة. ازدادت الصفقات مع الأهالى أو الملاك السابقين الذين استردوا ثرواتهم، أو مع سلطات الأقصر وقنا. عاد المنفيون الذين تركوا البلاد أثناء الحكم الاشتراكى لاسترداد ممتلكاتهم التى وضعت تحت الحراسة؛ لإقامة مشاريع مشتركة مع شركة أجنبية أو لبناء منزل، أو إقامة مطعم؛ للاستفادة من نظام الانفتاح الاقتصادى، وربما لجمع ثروة فى وقت زمنى قصير، ثم مغادرة البلاد فى حالة تغير ظروف المعيشة. أصبح العائد من السياحة فى الدخل القومى، بذات أهمية الأموال القادمة من بلاد النفط وثانى دعامة للاقتصاد المصرى.

ارتفعت الأسعار تدريجيا ثم اشتعلت ثروة جرجس كالسراب المبهر. لم يستطع بشرى استردادها، ولم يقدم له ناجى أية مساعدات.

غرق بشرى فى المنازعات. فى البداية تراكمت الملفات بانتظام، ثم ارتفعت أكوامًا، أيضا بانتظام. خلقت النزاعات نزاعات جديدة. لجأ للقضاء لإيمانه بالعدالة. استعان بمحامين طلبوا أتعابًا باهظة غير متوافرة لديه سوى على الورق. حاول "فتفوت" أن يحل المشاكل بنفسه، فانتقل من وزارة إلى وزارة، من مكتب إلى مكتب، فى دوامة زيارات بيروقراطية مصرية حبالها طويلة. ينفجر تارة ويفسد الأمور،

ويحاول تارة أخرى اللجوء إلى أسلوب الإقناع بدون جدوى. لجأ أيضا لأسلوب الرشوة دون نتيجة. طالب الموظف الصغير الذى يقبض مرتبًا ضعيفًا أن يأخذ حقه مقابل الإمضاء على مستندات تحتوى على أرقام خيالية، بينما ما يقدمه بشرى الآن ليس كافيًا. فى النهاية صرخ طالبًا الرأفة.

حرام! حرام! حرام!

ثم غاص مرة أخرى فى دوامة جهنمية من مكتب الأوقاف إلى وزارة الزراعة، يدور ويدور وحده، كأنه سائر أثناء النوم فى متاهات الوزارات، تائه وسط خلية نمل بشرية من صغار الموظفين. ظل يدور ويدور بدون جدوى . يلزمه عشرة ألسنة، عشرة عقول، عشرة أزواج من الأذرع، سيقان عداءٍ مدربة قوية للركض وراء ثروة والده. ثم ينهار من شدة الوهن، يتحدث عن أيام العز والاستقرار القادمين مع أصدقائه أو يتصور أنه مصاب بأعراض مرضية، مثل سرطان بالمخ أو سرطان الرئة. هذه الصعوبة فى التفكير ، فى التنفس، لابد أنها أعراض المرض الخبيث.

لا يود أن يرى السجن الذى وقع فيه، الذى لا مخرج منه. استرد الآخرون أملاكهم. لماذا لم يستردها هو أيضا؟

من شدة ارتباكه، لم يحاول أن يبحث عن مقتنيات متحف والده. لا يجد هدوء البال سوى عندما يعتكف فى "دير العجوز" بالأقصر. يستقبله الرهبان هناك بترحاب كالأخ العزيز.

ثم يعود إلى القاهرة فى حماية ورعاية شقيقته سوسن.

لا يطرح جرجس عليه الأسئلة. يخمن من صمت بشرى، أن ابنه لم يأت بالنبأ السعيد.

* * *

مع ذلك عاد الأصدقاء إلى بيت الزمالك. استعادوا حرية الرأى. تضاعفت الأحزاب السياسية لتحتل مقاعد فى البرلمان الجديد. زالت المخاوف من التردد على الباشا.

انطلقت الألسنة التى كانت معقودة من قبل. رأوا الأمر بوضوح لكن لم يجرءوا على التعبير عن أنفسهم؛ خوفًا من العقاب. تنبأوا أن الرئيس الأول سيقود البلاد إلى التهلكة. لم يوجهوا النقد للنظام الجديد بعد، لكن للاشتراكية، للتأميمات، وقضايا كثيرة ليس لها نهاية.

السد العالى؟ موضوع شائك أثار جدلاً طويلاً:

– ما سمعتوش الفلاح بيقول إيه؟ حاسس إنه اتسرق. الأرض خربت. ما بقاش فيه طمى. بيقول فين أيام البركة والمية الحمرا.

– زمان كان الفيضان بيطهر الأرض من الأملاح. دلوقتى كل حاجة عفنت.

– سواحل الدلتا بتتاكل شوية بشوية.

– مية النهر بطيئة. ما بتكنسش الجواجع اللى عمالة تزيد وتجيب أمراض خطيرة. الدكاترة مش جادرين يسيطروا على البلهارسيا.

- مصيبة للمراكبية، المية الراكدة دى! بتكتر من ورد النيل اللى بيغرز فى الأرض ويعطل حركة المراكب الصغيرة. بيعدوه من سكتهم يرجعلهم تانى.

- الورد ده بيقتل السمك ويخنق أى كائن حى فى المناطق اللى ما فيهاش هوا، زى الترع والشقوق اللى على شط النيل.

- السردين اختفى.

- السمان هاجر شواطئنا.

انضم صوت "سيت" ليضيف إلى قائمة الشكاوى وأدى إلى تعميق جرح جرجس.

- أمطار كتير على الأقصر شالت فى سكتها مزراب وحتة حيط. أول مرة نشوف كده فى شيكاجو هاوس.

- ومية جوفية تطلع كذا سنتى فوق الأرض، مليان أملاح. الملح يعفن الأرض والحجر.

- فى يوم من الأيام مش ح يفضل من مبعد الأقصر إلا شوية حيط، واللى سجله شيكاجو هاوس.

وجد المؤيدون للسد العالى الذين اعتبروا بناءه إنجازاً رائعًا صعوبة فى مواجهة الاحتجاجات العارمة. هل الحل هو إزالة السد العالى لمسح أثر الريس الأول وأصدقائه الروس؟ لأول مرة، أرى ناجى و "سيت" يختلفان اختلافا جذريا لأن السد يمثل لناجى الحياة، و لـ "سيت" الموت. أين الحقيقة؟ هل يعرفونها؟

حاولت أن أفكر بوضوح، بدون وضع الجانب السياسى والحرب الباردة فى الاعتبار؛ لأننا فى النهاية نبحث عن قضية تخص مصر ونهر النيل، ولا علاقة لها بالروس أو الأمريكان أو تغير الآراء. لم أجد إجابة واضحة.

مع ذلك، اعتبرت بحيرة ناصر إنجازًا كبيرًا مما دعا الريس الجديد إلى أن ينسبه لنفسه. لم تعد تسمى بحيرة ناصر بل "السد". هل سيعاد تسميته مستقبلاً ليصبح "السادات"؟

ما هى إلا دعابة خلقتها الروح الشعبية للهروب من خلال النكتة من مأساة الحياة اليومية.

مازال ناجى يسافر بين القارات الخمس.

لم يعد يحتاج تأشيرة خروج لمغادرة البلاد. استعانت به وزارة الصحة؛ لشهرته العالمية؛ للتشاور أو لطلب إعانة مالية من الخارج. يقوم بزيارات خاطفة وهو فى طريقه إلى إفريقيا أو آسيا. يمكث عدة ساعات أو ليلة على الأكثر. ليس لديه الوقت الكافى لمعاونة بشرى.

يقرر هو وسوسن أن يتزوجا فى عيد الفصح أو فى رأس السنة ثم يغادر مصر ليلاً أو فى اليوم التالى لوصوله، تاركًا خلفه خيطًا رفيعًا من النور وسط ظلام دامس، لفشلهما فى تنسيق حياتهما معا.

يحمل فى قلبه وهو محلق فى سماوات القارات الخمس صورة سوسن وهمومه. سوسن، نقطة صغيرة تائهة فى الكون. مع ذلك، ضيعة البيت الكبير أصبحت مصب اهتمام سماوات القارات الخمس والعالم أجمع.

ذهب الفرعون نفسه سفيرا لبلاده مع كنز "توت عنخ آمون"، يجوب عاشقو الفن المصرى القديم السماوات مثل ناجى لمقابلة الفرعون فى استراحاته المؤقتة، يتحدثون معه عن الأقصر. لابد أن يعرف ناجى الأقصر مادام من بلاد الفرعون!

يعرف الأقصر؟! عاش أجمل لحظات عمره فى الأقصر مع سوسن!

لكنه وهب نفسه للقضية التى لاقت صدى فى وجدانه عندما أطلق مدير المؤسسة الجديد شعار "الصحة للجميع فى عام ٢٠٠٠". ليس لديه الوقت ليعود إلى صحراء "طيبة". يتنقل من قارة إلى قارة من أجل تحسين صحة الإنسان، يشجع العلماء للبحث عن أمصال أكثر فاعلية، ينظم اجتماعات علمية. يشبه أفعى البحر ذات مائة الرأس. يقدمون له تقارير عن التطورات الطبية فى مدينة الأقصر، أعدها أناس مثله متفانون فى مكافحة المرض. لكن تصاعدت أعداد السكان بصورة خيالية، تضاعفت الأفواه مثلما تتكاثر الأرانب. لا يجرؤ أحد أن يدوِّن إحصائية عن عدد هذه الأفواه الجديدة.

قالت له سوسن:

– كنا ٢٧ مليون لما ملوا بحيرة ناصر،ح نبجى ١٠٠ مليون سنة ٢٠٠٠ . كنا بنزيد ٨٠ ألف كل سنة، النهاردة بنزيد كل ١٠ شهور بنسبة مليون. بعد كده ح نجول كل ٩ أشهر ويعدين كل ٨ ...

لا تنمو الزراعة فى الأراضى الصحراوية بالإيقاع نفسه، وامتلأ الوادى بالبيوت المبنية بالطوب الأحمر أو الأسمنت، والعمارات الشاهقة ...

يبدو كأنهم يوجهون له اللوم لإطالته عمر الإنسان.

كان يعود كالنجم المذنب للتشاور أو لحضور مؤتمر، يستقبلونه بحفاوة لمركزه المرموق. يدعونه إلى الأقصر فيعتذر، مسافراً مرة أخرى ليواصل كفاحه ضد المرض. في الطائرة، تقدم له المضيفة كل أنواع الخمور التي تلطف الألم، يداعبها ويحكي لها عن سوسن، هذه السكرتيرة في السفارة الأجنبية التي كان يجب أن تتوج في الأقصر، في البيت الكبير القريب من المعبد. هو محتاج أن يتحدث عنها حتى للغرباء، للقمر، للأحجار. إنها تلمع كمائة نجمة مجتمعة في السماء. يحتاج أن ينطق اسمها: زهرة اللوتس التي تحمل الشمس في جوفها.

لكن سوسن مرتبطة بوطنها، بوالدها، بشقيقها.

لم يحب امرأة غيرها، مع ذلك لا يستطيع أن يتوقف عن مهمته المقدسة. فهي حياته، كيانه: مكافحة المرض في كل أركان القارات الخمس. لا يستطيع أن يعيش بدون القيام بمهمته هذه الأخاذة.

مع ذلك، كان يحلم بأن يرتاح مع سوسن في مدينة الأقصر الصغيرة، التي يزداد صيتها يوما بعد يوم. عزز "الريس" الثاني شهرتها بالدعاية، بالسفر إلى القدس، بإمضاء معاهدة سلام مع العدو الإسرائيلي في كامب ديفيد. حصل على جائزة نوبل للسلام. انتعشت السياحة وتوافدت أعداد كبيرة من السياح بالطائرات والبواخر والقطارات لمشاهدة أجمل معالم مصر، ليومين أو أسبوعين حسب الرغبة، بأسعار مغرية أو بتخفيضات للأفواج. حجزت إدارات الفنادق

الغرفة نفسها مرتين أو ثلاثًا لإرضاء أكبر عدد من الزبائن، أو احتمال إلغاء بعض الحجوزات. أحيانًا، ينام السياح متجاورين فى طرقات الفنادق، أو عند مواطنى "القرنة"، أو مدينة "هابو"، على البر الآخر من نهر النيل. تختلط جميع الجنسيات من الجنسين. لم يقلل ذلك الازدحام من إقبال مزيد من الأفواج السياحية لزيارة المعابد والمدافن بالآلاف.

دخلت مكاسب السياحة إلى خزينة الدولة واستخدمت فى شراء الأسلحة .

* * *

يوما ما، استطاع ناجى أن يستقطع من وقته لقبول دعوة رسمية، وذهب إلى الأقصر بصحبة كبار رجال الدولة.

وجد نفسه وسط أفواج السياح، وقابل منفيين آخرين مثله، يعرفون الأقصر من قبل وحضروا ليشاهدوا التغييرات التى حدثت منذ أن غادروها . وجدوا الأراضى الزراعية قد تحولت إلى مناطق سكنية وبنايات أسمنتية، تحول قصر السلطانة ملك الذى اشتراه مصطفى الزيناتى إلى "كلوب مديترانيه" وبيت للشباب. بيت عبد المسيح؟ قال "العربجى" إن بنات الباشا تسكن هناك. توفى شقيقهن لكن مازلن هناك.

توقف ناجى أمام البيت الكبير الذى فقد رونقه والبيت المجاور، عندما خرجت الأخوات الأربع، بنات شقيق جرجس، إلى الشرفة للمشاركة فى الاحتفال. لمّعن النجف المورانو المنحوت، والأثاث الخشبى المطعم بالصدف، نظفن التراب عن الستائر الجوخ الحمراء المقصبة

بخيوط ذهبية، وأضـأن أنوار المنزل جميعـها. فتحن باب المدخل على مصراعيه، كان محط أنظار المارة. يحيونهن ويبدين الإعجاب بفخامة المنزل، القريب من المعبد، المختلف والفريد وسط الفنادق المبنية على حافة الشاطئ. ترد الشقيقات الأربع التحية بوقار. سعدن بالمنفيين الذين يقدمون لهن احتراماتهم. غرق البيت الكبير في بحر الظلام فشعرن بمدى تفوقهن. أصبح منزلهن هو البيت الكبير من الآن فصاعداً.

حقا زمنهن أكثر إشراقًا من زمن جرجس، وأكثر انفتاحًا على العالم. لم تفرغ الأقصر من أفواج السياح المتدفقة. قال الناس فى "شيكاجو هاوس" إن القيظ لم يعد يؤثر على أحد. يستمتعون بنسمة الصباح والمساء. الفنادق مكيفة. زاد الإقبال على الأحجار الأثرية وانتعشت تجارة الآثار إلى حد غير متوقع. انتشرت صناعة تقليد التماثيل والصور. يستطيع السائح أن يرى كيفية صنعها أو يلتقط الصور. يدفنون التماثيل الصغيرة بالأسلوب التقليدى فى "جلة" وخشب مبشور وقش ملتهب فتبدو وكأنها قطع الآثار الأصلية تماماً وقد يتصور المرء أنها حقيقية، لكنها رخيصة فى مستواها الفنى وفى سعرها.

ذهل ناجى لوجه الأقصر الجديد وشعر أكثر بالدوار من رحلاته المكوكية والطيران فوق القارات الخمس.

* * *

سيعود إلى الأقصر وسوسن يومًا ما، وسوف يساعد بشرى فى حل المنازعات.

أما الآن، فما زال يجوب السماء لمكافحة المرض ويحلم بأن يشيخ مثل جرجس بجوار سوسن، أو مثل "دهب"، هذا الخادم النوبى الذى يعتنى ببيت الزمالك ويجعله براقا كالذهب. لا توجد ذبابة أو ذرة تراب واحدة تكدر الجو. قال له دهب مرة:

– أنا عايز أعيش جنب الست سوسن لحد ما اموت. دى الست سوسن ست الستات!

يعد ناجى الأيام التى تفرقه عن القاهرة، عن بيت الزمالك، عن سوسن. عندما يصل تتحرر من مشاكلها اليومية.

لماذا لا يبقى بجوارها، يجعل القاهرة مقرا له بدلاً من جنيف، ويجوب السماء انطلاقًا من مطار هليوبوليس، مدينة الشمس، التى يجب أن تشع مثل الشمس فوق القارات الخمس؟

ينظر للأمور بواقعية. لن يرحبوا به فى بلاده بدون هذا المنصب العالمى المرموق الذى يستطيع من خلاله تقديم الخدمات. بدون المنصب، سيبعدونه عن الأضواء على أنه شخص غير مرغوب فيه. يجب أن يحافظ على مركزه المرموق ليتمكن من الهبوط فى مطار هليوبوليس، من حين إلى آخر، ويسافر فى الغد أو فى الليلة نفسها.

فى أثناء تواجده فى الطائرة محلقة فى آفاق بعيدة، يستعرض كالشريط السينمائى اللحظات التى استمتع بها فى القاهرة. يضحك مع "دهب"، هذا الملك المجوسى الذى يحتفظ بكبريائه، ويشعر بالحنين إلى بلاده. ربما أصبحت الأراضى النوبية يومًا ما أكثر ثراء من أراضى مصر.

لا يوجد ذهب الآن فى بلاد الذهب، لكن يتراكم طمى النيل خلف السد، وقد يجعل من بلاده أرضا سوداء خصبة، غنية، أكثر نفاسة من الذهب الأسود الذى أنعم الله به على أراضى الرسول فى الصحراء.

لكن "دهب" يتقدم فى السن. يستأذن للذهاب إلى الطبيب مراراً. يشكو مرة من المعدة، ومرة أخرى من المفاصل أو الجسد بأكمله. لن يرى أبدا أرضه السوداء الجديدة، هذا الملك المجوسى الذى يحتفظ بمظهره الجميل رغم تقدم السن وزحف المرض.

بدأ شعر ناجى يشيب لكن ضحكته مازالت تجلجل أكثر من ذى قبل ويسمع صداها عبر القارات الخمس.

يلتقى بسوسن فى تقاطع طريقين، نملة منهمكة وسط جيش من النمل المنهمك، فى مدينة مكتظة بالسكان. يتعجب كيف تستطيع أن تقود سيارتها وسط شوارع لا تترك مجالاً لمرور البشر. لم يعد يستطيع أن يغامر بالقيادة. وصفت له نظام الكبارى العلوية الجديدة، التي سميت الآن الدور الثانى لمدينة القاهرة.

اشتكت سوسن من كثرة السيارات بجوار متحف القاهرة. تهتز التحف الأثرية وتتفتت تدريجيًا متحولة إلى تراب. تمنت أن تلامس إطارات سيارتها بالكاد أرض الشارع لحماية كنوز والدها لو كانت لا تزال موجودة.

سوسن ! آه كم تمنى أن يأخذها معه ويشق معها السحب عبر السماوات!

* * *

لكن سوسن مرتبطة بأرضها. وسط صخب مدينة القاهرة الشاسعة، تواصل روتين حياتها.

تجاوزت سن الإنجاب لطول الوقت الذى انتظرت فيه ناجى. لم تشعر أنها محتاجة لأطفال. كانت محاطة بحنان أولاد شقيقتيها. يعبدون خالتهم المعجونة بخليط من العسل والبخور، "ماما نويل" المليئة دائمًا بالمفاجآت، ذات الضحكات التى تشبه أجراس الكنائس فى عيد الميلاد. ماما نويل حقيقية. لا تريد أن تتزوج كسائر البشر. تكتم شوقها إلى العيش بجوار ناجى بأية وسيلة عبر صخب العاصمة والهموم اليومية. مع ذلك، عندما تبتعد عن ذلك كله وتنفرد بـ "عزلة"، تستسلم للدموع، والأحلام التى تدفعها إلى الاستمرار، تنظر إلى ماسة العمة "مينى" التى تلمع فى إصبعها، فى الخنصر بالذات، المميز بخطه المباشر إلى القلب.

رغم ارتباطها بأرضها، فهى أيضا مرتبطة بناجى الذى يجوب السماء، مخطوبة رسميا فحسب.

على كاهلها واجبات؛ حماية بشرى ومساعدة والدها على اجتياز صحراء الشيخوخة، والأخذ بيده حتى أعتاب الموت.

* * *

مرت السنون على جرجس. بدا عليه تأثير الشيخوخة مثلما بدا على وردة من قبل. ضعف بصره، وخارت قواه. لا تحمله ساقاه، يحتاج لعكاز. وحتى العكاز لم يعد يجدى. لكن ذاكرته المترنحة مسحت شقاء

السنوات الأخيرة، وعكست أحيانًا سعادة الأمس. يتحدث عن "طيبة" أيام شبابه، عن البيت الكبير المدثر بالنجوم، عن الواجهة المغطاة بالتيجان وأكاليل النور. ذكر لأول مرة الفتاة الأجنبية الفاتنة التى تناولت العشاء على مائدته. هل يفكر فيها أو فى وردة عندما يصف يوم زواجه فى البيت الكبير؟ لن نعرف الحقيقة أبداً. وردة، أجمل الزهور، التى حكمت كالإلهة البيت الكبير، يكاد يسمع صوتها وهى تتوعده بنار جهنم لأنه يعبد الأصنام، ويبتسم لهذه الذكرى الراسخة. يجتاحه دفء الشمس فى قلب البيت الكبير. يدخل عبر نوافذ القبة الملونة التى تمتد أشعتها كالأذرع الممدودة باللون الأحمر والأزرق، واللون النيلى والفيروزى فترسم صورة للقبة كالهرم المقلوب، يسكن فيه، وسط أضواء قوس قزح الخلابة ممزوجة بنغمات أجراس ناعمة، ويرى النور بعينى مدام مرقس التى تلمع من الانبهار.

مازال يستطيع أن يجرجر قدميه ليتأمل ما تبقى له من "أصنام". لكنه توقف عن الذهاب إلى نادى الجزيرة أو إلى ضفاف النيل فى المناطق التى ظلت ريفية. يجلس فى مقعده عند الشرفة الزجاجية التى أعدتها سوسن لعزلة، ينعس ويحلم بأنه مسافر فى فلوكة تشبه خطوط الهلال، مشرق مثل الشمس. يرى الأسماك تقفز فوق الماء، وعصافير الجنة الضالة فى الأرض تتحدث إليه. سوف يفهم لغتها عن قريب.

يسافر نحو الشاطئ الآخر لـ "طيبة"، نحو صحراء "طيبة". يمتد الموت أمامه، شاسعًا مثل الصحراء، ومضيئا مثل هذا الكتاب الكبير المنبسط على ضفتى نهر "طيبة".

* * *

لم ير الأقصر بعد ذلك.

ربما لو عاد إلى هناك قبل موته لنجا ووجد الحماية فى ماضيه وشبابه. ربما جرحته جرحًا قاتلاً بوجهها الجديد وقضت على ذكرياته، خنق الضجيج أطياف الألوان المستوحاة من قوس قزح، وأفسد انسحابه إلى عالم الأموات.

ظل إله القمر، الذى يسكن الأحلام ويتجلى فى دنيا الشعر، وفيا لجرجس حتى فى ساعاته الأخيرة. حتى فى أثناء هذيانه، تحدث عن مجموعات تماثيل الأزواج فى مكتبه، وعن المكان المناسب لها وسط المكتب، فى مواجهة النور، فى مواجهة مدينة الأموات. ظن أنه فى البيت الكبير وطلب فتحه للزوار، ليشاهد العالم الكنوز التى تتغنى بجمال البلاد. قال إنه يرى الفجر أمامه، وإن الأحجار الأثرية تحمل رسالة سحرية يجب دراستها ليدوم هذا الفجر...

واجه أسلافه الصحراء بمعاونة القوافل. عبر هو آخر مراحل صحراء الشيخوخة بمعاونة الإله القمر.

كان محاطًا بذويه. انضم إليهم "سيت"، جاء ليسهر بجانب رجل يشرف على الموت، يمثل مصر القديمة، الطاعنة فى القدم. مازال جرجس يميزه ويسأله عن معبد الأقصر و"حتشبسوت". حبس "سيت" دموعه، رسم ابتسامة على وجهه، تحدث وتحدث، عن المعابد العزيزة، عن آخر أنباء التنقيب، عن الكاهنات الجميلات اللاتى توقظن الحواس الخاملة للشموس الشائخة...

توفى جرجس وهو ينادى وردة. مات فى منتصف شهر كيهك، عندما يحتفلون بزواج الإله والإلهة المقدس. يا وردة! رآها جرجس أمامه. هل دخل عالم الظلام بصحبتها ليملأه بالحياة؟ أو مثل أحد أعيان العصر القديم، مع كل النساء اللاتى أحبهن على التوالى، وقلبه ملىء بالراقصات، والبهلوانات، والمنشدات، وعازفات الناى والطبول، يحمل معه عالمًا بأكمله من الجمال ليغير وجه الموت؟

* * *

لم يقيموا مأتما يوم أن دفنوا جرجس، ولا أقاموا سرادقًا لاستقبال العزاء، لكن لم تتوقف زيارات التعزية فى صالون بيت الزمالك. قدم "دهب" القهوة التركية على صوان ضخمة. تلقى أولاد وأحفاد جرجس العزاء بمصافحة أياد وأياد، وردوا مئات المرات على الجملة التقليدية فى مثل هذه المناسبة:

– البقية فى حياتك.

وتساءل كل واحد فى صمت كيف يمكن تحقيق ذلك . كيف ترقى سوسن لمستوى حلم جرجس؟ أى شمس تنجبها لتستحق لقب أجمل الزهور؟

ظلت تكرر إلى ما لا نهاية الإجابة التقليدية على جملة العزاء التقليدية التى يتردد صداها فى أذنيها:

– حياتك الباقية. حياتك الباقية. حياتك الباقية ...

اشتعال الكرة الأرضية

دفن جرجس فى القاهرة، فى مقبرة بنيت حديثًا. اضطروا لبيع آخر قطعة مجوهرات بقيت من مقتنيات الأسرة لبناء مدفن متواضع لوالدهم بأقصى سرعة، فحتى يوم الوفاة لم يكونوا قد استردوا بعد ثروتهم.

بعد زوال آلام الحداد، بدأت صورة والدهم تتخذ حجما فائق الحد، كأن قرينه قد جاء ليسكن فى الأماكن التى عاش فيها من قبل. ربما عاد لنا ليبث فينا الأمل.

أصبح تقليداً أن تتناول أخواتى الثلاث وجبة غداء يوم الجمعة من كل أسبوع فى منزل سوسن وبشرى، وهو اليوم الذى يجتمع فيه أحفاد جرجس أيضا. تستقبلنى العائلة على أنى نموذج الابن الضال فى الإنجيل.

كنا نحكى عن الماضى مع الأحفاد. قلنا لهم إن جرجس ووردة انضما لأسلافهما. يشبهان الأسلاف منذ زمن بعيد. كنا نحدثهم عن الأسلاف.

ثم تنفض الجلسة العائلية وتبقى أخواتى الثلاث لإطالة الحوارات الحميمة وذكريات الماضى؛ نستعرض حياة جرجس ووردة محاولين حل ما خفى منها علينا.

ثم تنصرف بسمة وفردوس، فيمتد الحوار الحميم بينى وبين سوسن. أحيانا، ينضم إلينا بشرى لتصحيح بعض النقاط.

بث فينا جرجس الأمل بصفة دائمة وهو على قيد الحياة.

الأمل. كيف نشعر بالأمل مع الأحداث المضطربة التى قلبت الدنيا رأسا على عقب. استمرت الحرب الباردة وسط الحروب الصغيرة. فى خضم المعارك فقد المتحاربون القدرة على تمييز الصديق من العدو، يغيرون انتماءاتهم ليجربوا حظهم فى الفوز.

تدريجيا، تفكك لبنان الذى اختنق بوجود اللاجئين الفلسطينيين وبالقذائف الإسرائيلية على مواقع المقاومة. أفرطت إيران فى شراء الأسلحة لمواجهة الخطر السوفييتى وكذلك فعل العراق فى مواجهة الخطر الإيرانى. اتفق الشرق الأوسط بأكمله على مخاصمة السلام. ظهر الإخوة الأعداء فى كل مكان. توفرت الأسلحة للجميع، بتمويل من عوائد الذهب الأسود والأثرياء الفينيقيين، ملوك البحار قديماً...

كنا نستنجد بصورة جرجس كى نصمد أمام الدمار والموت. لابد أن يهمس لنا ببعض الكلمات السحرية علّنا نستعيد التوازن. لا يعرف المتفاوضون السياسيون الأحياء سوى الكلمات الباهتة، الخالية من السحر. هو يسكن فى أحلام مدينة الأموات.

* * *

كانت الأقصر تزدحم بالسياح تارة وتخلو منهم تارة أخرى حسب تطور الأحداث.

كنت أتردد وحـدى على الأقـصـر، لـم ترغب أخـواتى الثـلاث فى مصاحبتى قط.

ومرة أخرى اختفى الزائرون عندما حدث الانقلاب على شاه إيران، ولم يكترث به أى من الأصدقاء الذين سبق واستقبلهم فى قصره من قبل، فرحبت به مصر رغم احتمال غضب الحكام الإيرانيين الجدد، وعندما أحدثت هزة أرضية صدعًا بسيطًا فى بناء السد العالى وخشينا أن يتسبب ذلك فى غرق البلاد بأكملها؛ قيل وقتها إن المسطحات المائية الكبيرة قد تسبب الهزات الأرضية. ذهبت فى ذلك الحين لمشاهدة آثار "طيبة" التى خلت من أفواج السياح. وجدت بعض الإسرائيليين، يستقبلونهم بتحيات "شالوم". عند شباك توزيع تذاكر دخول معبد الأقصر، قلت لهم "سلام". ظنوا أننى إسرائيلية أدعى أننى مصرية كى أحصل على تذكرة مخفضة القيمة. فتحدثت باللهجة الصعيدية حتى أثبت لهم أننى "بلديات". لكن ذلك لم يكف وطالبونى بإظهار البطاقة الشخصية المصرية.

عندئذ، تخيلت أنى أرى خيال باشا الأقصر فى شرفة البيت الكبير، يرنو إلى بنظرة ساخرة ويقول:

– ما تستغربيش. أديكى شايفة. نشبه بعض، زى ما يتشابه النور والضلام، زى ما يشبه الخير الشر. جوليلهم مهما اجتمع الخلق مع بعض مش حيجدروا يحموا الحجارة الأثرية وخبريهم عن سر الفجر الجديد اللى مخبياه الحجارة دى، اللى بتتغنى بالهدنة بين الإخوة الأعداء.

همست أن الحجارة الأثرية أعلى قدرا من البشر، وأنها تنقل لنا أثمن ما فى البشر.

طلبت من خيال جرجس أن يجرد الإنسان من الأسلحة مثلى.

هيئ لى أن بعض المتسكعين ضحكوا عندما رأونى أتحدث إلى جدران متاهلكة.

ماذا لو حكيت لهم عن روح البيت الكبير؟ تلك التى تستمد طاقتها من حبل سرى دفنته خادمة بسيطة تحت الأساس، وتصعد فوق الجدران المتهالكة كأنها شجرة الحياة، تنغرس جذورها فى أعماق الزمن.

ظهرت ظلال أخرى على جدران البيت الكبير، ظلال أحد الإلهين "بس"، يعزف على القيثار ليجرد الإلهة من قسوتها، ويشدو بجمال المعابد والبلاد لإغرائها. ما هى الكلمات التى استعان بها لتجريد الإلهة القاسية من أسلحتها؟

ربما كان الحوار حلمًا.

مع ذلك، كنت فعلا هناك في الأقصر ذلك العام، وكذلك الإسرائيليون. لم أكن أحلم.

لكن لا أحد يريد أن يبدى أى اهتمام بتلك الكلمات الساحرة التى تتغنى بالهدنة وبالفجر الجديد.

لا يتوقف البشر عن تكديس السلاح استعدادا للحرب. حتى الريس الذى أراد أن يصبح فارس السلام لم يجد بدا من الاشتراك فى سباق

التسلح؛ فمن يحيطونه تجهزوا بأسلحة أكثر فتكا. ضاع في الصحراء صوت فارس السلام. يجب أن يضاعف من أسلحته لمواجهة الحرب ويتورط في الديون. اشترى الأسلحة هذه المرة من الأمريكان. أسلحتهم أفضل صنعا، تقتل أفضل وأسرع.

انتشرت أقواس النصر بعد المعركة الثالثة مع إسرائيل. كانت أقواس مصنوعة من الورق المضغوط! فقد أفرخ النصر هزيمة، هزيمة كبرى، سقط السلام. رغم أنه استعاد سيناء المحتلة فإن طبول الحرب دقت من حوله، لتعلن فشل الاقتصاد الحر، المعاناة من التضخم، وارتفاع معدل النمو السكاني بخطى سريعة، ظهور طبقة الانتهازيين، وذوى الثراء الفاحش.

رغب أن يكون فارس السلام، لكنه أعلن الحرب على شعبه الذى سئم منه ومن شعاراته.

قبض على الإسلاميين، والشيوعيين، والصحفيين، ورجال الدين، وأساتذة والجامعات، حتى على بابا الأقباط ذاته، وألقى بهم فى السجون، حيث كان التعفن مصيرهم لولا أنه اغتيل باسم الله والدين على يد مسلم.

وفاة الريس حادث عرضي. تتطور آليات الحرب الوحشية العمياء. تنتشر الأسلحة الكيميائية والأسلحة النووية. يتعرض أكراد العراق للغازات السامة. تلقى القنابل على المركز النووى العراقي. تسقط القنابل أيضا على لبنان...

وسط الضجيج الأرعن في عالم تحول إلى مخزن متفجرات، مازال ناجى يجوب السماء فوق القارات الخمس لتأمين صحة الإنسان.

الصحة للجميع عام ٢٠٠٠!

الصحة للجميع عام ٢٠٠٠!

مع ذلك، ظهر مرض جديد بين الأمراض التى تصيب سكان الكرة الأرضية، مرض الإيدز، الذى يلقى بلعنته على الحب، كأن الآلهة تتخلى عن الإنسان وتتركه ليفنى تحت عجلات الحروب الوحشية.

الصحة للجميع عام ٢٠٠٠؟

لكن ماذا يفعلون إزاء لعنة الإيدز؟ ماذا يفعلون إزاء انتصار التسلح بوسائل أكثر قوة ودقة وفتكا، مثل الأسلحة الكيميائية والنووية والبيولوچية، إلى جانب السباق لاحتلال الفضاء والكواكب.

لكن ناجى لم ييأس مع ذلك. كان الثعبان الأسطورى ذا الألف الرأس. ضاعف من رءوسه لحماية الإنسان، للوقاية الصحية ولمكافحة الإيدز، وممارسة الحب بأمان رغم كل شىء. هو، الذى تربى تربية محافظة ، اقترح تغطية الإله "بس" - ذلك الإله السفيه الضئيل الحجم - برداء.

لكن ما هو الحل لمواجهة انتشار السلاح الكيميائى والنووى وحماية الإنسان من كوارث الحروب؟ تحالف ناجى مع الأطباء فى كل أنحاء العالم، ممن حصلوا على جائزة نوبل للسلام، من المعسكرين؛ الروسى والأمريكى،

لأنهم أدانوا بصوت واحد الحروب التى تؤدى إلى تدمير العالم. أنشأ خطة لمكافحة الإيدز، واشترك فى برنامج لمكافحة الحروب، بتوظيف المكافأة المالية لجائزة نوبل للسلام لإطلاق صاروخ ينشر صرخات حرب ضد الحرب، وإقامة أجهزة استقبال فى كل أنحاء العالم لالتقاط صرخة الحرب ضد الحرب ولالتقاط صرخات جرجس.

* * *

نشر فى جميع أنحاء العالم شعار المؤسسة:

الصحة للجميع عام ٢٠٠٠ !

الصحة للجميع عام ٢٠٠٠ !

لم يستطع أن يكف عن السفر ويجوب السماء.

عندما يهبط فى مصر، يقيس مدى كثافة السكان ونموهم الرهيب، ومدى صعوبة مهمته. أما البعض الآخر فيراقب أعداد من يمتلكون الأسلحة. إنه يريد مخاطبة تجار الأسلحة ويذكرهم بأن الهدف الأسمى هو الحفاظ على صحة الإنسان، وأن الأجساد البشرية التى تحصد فى الحروب لم تخلق أبدا كوقود للمذابح.

لم تحبطه أية عقبات، حتى ما يستحيل تجاوزه، بل كثف معركته.

قال له ساحر فى أدغال إفريقيا، فى إحدى المرات:

– كل تغيير يحمل معه الأمل.

كان تغييرًا مذهلاً. أين الأمل؟ التغيير يهدد مصر ووجهها الخالد. اختلف إيقاع الفصول الذى استمر عبر آلاف السنين. اختفت البقرة التى تدور وتدور، معصوبة العينين كى ترفع الساقية مياه الترع إلى الحقول؛ تحولت هذه الحقول إلى مناطق سكنية تكدست عليها البيوت؛ نسيت مصر حتى حبات الشعير هذه التى ترمز إلى تجدد الحياة. اعتمدنا على استيراد القمح من الأمريكان. وتسلحنا لنذود على أنفسنا خطر الموت والفناء.

اقترب ناجى وسوسن من الشعور بالسعادة فى ركن من الجنة على الأرض، فى الأقصر.

ذهبا معًا إلى جزيرة التمساح القريبة من جزيرة الموز، كملجأ آمن، بعيداً عن الجو المشتعل فى العالم.

استقبلهما ثلاثة نوبيين يعزفون على الربابة فى مدخل فندق سويسرى جديد وأنيق بدون بذخ مبالغ فيه. غنى النوبيون الجمل نفسها بكلمات مؤثرة وحزينة.

تقول الأغنية: "غصون النخيل بتميل وترد سلامى. البحر شربته كله ولم يطفى نارى".

أمسك ناجى بيد سوسن وقبلها كمن يقبل نجمة فى السماء، شاعراً بجفاف فى حلقه، ناظراً إليها بتشوق ورغبة، محاولا إخفاء اضطرابه بالتعليق على ديكور صالة الطعام، وركن التمساح، والبار المزين بكرم معرش ونخيل فى بستان ينعكس عليه ضوء الشمس المبهر، وستارة فى شكل سلاسل من زهور اللوتس. كم "سشن"؟ ألف، ألفان؟

لا توجد إلا سوسن واحدة فريدة.

يقدم لهما الفندق جنة على الأرض ينعمان بها سويا. تتناثر البيوت الصغيرة على الطراز الريفى وسط أشجار الـ "أكاسيا" والـ "أوكاليبتوس"، وزهور الجهنمية والياسمين؛ الحديقة محاطة بالورود والريحان ، تنبعث منها رائحة عطرة تجذب إليها العصافير. لا يعرفان أن الفندق قد بنى على أرض ورثة جرجس بدون علمهم، عندما تولى مكتب الحراسة إدارة شئونهم.

أخذت سوسن مع ناجى غطسا فى حمام السباحة ثم جلسا معًا على كراس خشبية طويلة لتجفيف جسديهما تحت أشعة الشمس. يقدمون للنزلاء حولهم آيس كريم "موفنبيك"، سويسرى النكهة، شاى، قهوة، توست بالجبن فى الفرن. يستفسر السياح عن خط سير المرشد، يدرسون الخرائط؛ يقرءون عن تاريخ كليوباترا، "سنوحى المصرى"، يتصفحون الجرائد الألمانية والفرنسية. يراقبان زوجين يلعبان فى حمام السباحة مع ابنهما الصغير. الزمن فى إجازة، لا أحد يرتدى ساعة سويسرية الصنع. لا يشعر أحد بمرور الزمن. تمر نسمة عبر أغصان الـ "أوكاليبتوس" وتجعلها ترتجف، وتزيح الذباب الملتصق بجلد العاشقين.

تجولا معًا حتى وصلا إلى جزيرة الموز حيث وجدا رجلاً مسنا، جالساً فى الشمس، يتحدث عن بؤسه وصحته المتدهورة.

سأله ناجى:

– والدكتور؟

- الدكتور؟ الشافى هو الله. أما الدكاترة دجالين.

قال ناجى:

- الراجل ده عنده حج. الطبيب فعلا ساكن فوج ؛ عند الجمر والنجوم.

يوما ما، سيستقر ناجى هنا فى الأقصر ليعثر مرة ثانية على الكلمات الشافية، كلمات الإله "تحوت" الساحرة.

قال لسوسن:

- فى الوضع اللى احنا فيه ما فاضلش غير كلمات الإله "تحوت" لتأمين صحة الإنسان عام ٢٠٠٠!

فى جزيرة الموز، فى هذه الجنة المنسية التى تسكنها العصافير، تعرف فلاح طاعن فى السن على سوسن ابنة الباشا. وصل فوق حماره، يحمل حزمة ضخمة فوق رأسه المتمايل، سيقانه نحيفة، يرتدى حذاءً مستهلكا، يظهر متدليا تحت الحزمة الضخمة. نزل من فوق الحمار وحدثهما عن الأيام الماضية:

- زمان، كان النيل موجود، أيام جرجس باشا. فى الصيف يجيب لنا الدميرة، ولما الفيضان ينسحب، نلاجى أرض خصبة، والطماطم تطلع كبيرة وحمرا. زمان كان النيل موجود. لكن غير كده مفيش حاجة تغيرت يا ست الكل، مفيش غير إننا بنزرع موز بطعم المسك بدل الموز الهندى.

بحثت سوسن عن قطعة الأرض التى بنت عليها قديما كوخ "عزلة".

قال الفلاح:

– النيل أكل الشط. من ساعة ما زادت المراكب الآلية. ما هو كل ده بيأثر على الشط.

ألقى بحصاة فى النهر بعيداً ليحدد لسوسن مكان الكوخ القديم.

تناولا معًا غداءً خفيفًا من البرتقال والموز. جهز الفلاح الذى يحرس الأرض وجبته المكونة من الباذنجان المقلى بالملح والكزبرة. قدم لهما الباذنجان ليتذوقاه، فوجداه رائعًا، والخبز الشمسى اليابس كالحجر، بعد أن ألانه بالماء، والجبن الأبيض والبصل واللفت. ثم بدأ يتناول الطعام ببطء، متربعًا فوق أقفاص الدجاج الفارغة، المغطاة بأوراق الموز. وجبة فقيرة ستصبح فيما بعد ذكرى وليمة.

بعد الظهر استقلا معًا القارب الآلى للفندق فى آخر موعد له فى جدول المواعيد، وتحركا محاذيين جزيرة الموز، وحدائق الفنادق الجديدة، شيراتون، إيزيس، بللادونا، بعض منازل القرويين المبنية من الطين ومزدانة بجرار من الفخار. إلى متى ستصمد هذه البيوت أمام اجتياح الفنادق الحديثة؟ شاهدا جوسق حديقة السلطانة ملك الشهير، التى يتمتع بها الزناتى من حين لآخر؛ إنه رجل من علية القوم الآن؛ ثم مراً بجوار فندق "ونتر بالاس"، القديم والجديد، ومعبد الأقصر والبيت الكبير... بيتهما. صدما عند رؤيته.

خيل إليهما أنهما لمحا بنات العم الأربع فى البيت المشابه للبيت الكبير، جالسات فى انتظار غروب الشمس نحو المرسى.

عند رصيف الميناء، وجدا نفسيهما أمام فندق "سافوى" محتفظاً بمظهره الريفى، منذ أيام جرجس. تجولا والقلب ملىء بالحنين إلى الماضى عبر حدائق فندق "سافوى" وفندق "ونتر بالاس".

فتح لهما حارس مجهول أبواب البيت الكبير. مازال فى الطابق العلوى يحمل اللافتات القديمة لمقر الإصلاح الزراعى. فى هذا الطابق يخيم الصمت والفراغ. الغرف خالية، مقاعد المحكمة، وقاعة المستشارين، ومكتب رئيس المحكمة. غرف خالية تثير الرهبة والذهول.

سأل ناجى "العربجى" الذى عاصر أيام الباشا، وهما فى الطريق إلى الكرنك:

– تفضل أيام زمان واللا أيام الثورة؟

نظر "العربجى" إلى الخلف، معلقا السوط فى الهواء، كأنه يريد أن يتوقف وأجاب:

– يا بيه! إحنا زى الطبيعة.الحكومات تتغير،الكبار يتحاربوا، لكن إحنا زى ما إحنا، ما نتغيرش، زى الطبيعة!

* * *

فى فصل الخريف ، تجولا معًا فى الأقصر عند جرف جزيرة الموز.

في الضفة الأخرى من نهر النيل كانت الشمس تغرب، مستديرة، حمراء، تمهد لقدوم الليل. ألقت نخلتان ظلال عينين سوداوين واسعتين على غروب الشمس. تبدل لون النهر، ذهبى، فضى، مظلم، يرتجف. ثم تضاعف عدد العصافير وملأت شقشقتها الفضاء. أتت من مدينة الأموات بعد أن عششت هناك وسط زهور الـ "ميموزا" التى تحيط بمدخل معبد الأقصر، لتستيقظ مع الفجر الذى يتغنى به المعبد الأثرى.

تسبح الزهور فوق الماء كأنما هى موكب عائم من البط. يتقدم البلشون الكركى ساكنا بجلال وسط جزيرة عائمة من الزهور؛ أبيض اللون فوق عرش من الأوراق الخضراء، يحل محل الزهرة العنيدة التى ترفض النمو. لم يعد ناجى وسوسن يشعران بالوحدة، مثل تلك البلشون. إنهما معًا، توأمان، عاشقان. يقبلان بعضهما البعض مثل شجرة الموز وشجرة المانجو المتعانقتين أمامهما، فى تناغم وتوحد مع الطبيعة الخلابة. لن يفترقا بعد الآن.

* * *

عاد ناجى بسرعة النيزك وسط معركتين ضد المرض والحرب.

شاب شعره قليلاً عند الخدين، وانتفخت بطنه قليلاً، قليلاً جدا .

علق على زيادة وزنه قائلاً:

– عشان أشبه باشاوات زمان.

– مش ح تشبههم أبدا يا ناجى، حتى لو بجيت مدير عام. وبعدين باشا الأقصر ماكانلوش كرش.

تعدت سوسن سن الشباب، بدون تجاعيد على وجهها العسلى، بدون صبغة على شعرها الذى تناثرت فيه خيوط فضية، بأسنان ظلت مثل صفى اللؤلؤ.

ترتدى زيا يشبه زى الرجال مع الاحتفاظ بأنوثتها. زيها المفضل، بذلة موظف تنفيذى، شمسية اللون، ذهبية تتناسب مع بشرتها السمراء.

التقطت صورة تذكارية لهذين العاشقين، وهما متعانقان ومبتهجان، يبتسمان ابتسامة عريضة أثناء الرقص على إيقاع موسيقى التانجو، يتقدمان نحو الأبدية ، يحملقان فى الفراغ كأن سعادة غامرة أعمت عيونهما.

* * *

كان يجب أن تحتفظ به بجانبها، تمنعه من الرحيل. لكن عليه أن ينشر شعار المؤسسة: الصحة للجميع عام ٢٠٠٠ .

اعتادت أن تراه يمر كالنيزك، كالأحلام العابرة فى أثناء الليل. لم يعد يحتاج إلى تأشيرة خروج، فسمح له ذلك أن يعود لمدة يوم أو ليلة أو أسبوع بأكمله، وهو فى طريقه إلى إفريقيا أو آسيا أو أوروبا. منذ أن تحسنت وسائل الاتصال، يطلبها فى الهاتف. تضع السماعة قرب عنقها، صوته كلمسة تتسلل عبر الأثير فتضىء قلبها المتعطش. تظل صامتة معظم الوقت لتستمتع بالإصغاء إليه.

سوف يتصل. سوف يهبط مرة أخرى فى وطنه.

انتظرت طويلاً فجر زواجها كما كان النيل الذى أصابه الجفاف ينتظر مياه الفيضان. لم تعد مياه السد تسد العطش. لابد أن تتزوج ناجى، النيل، الفيضان.

تضرعت لمار جرجس، للملاك ميخائيل، للقمر.

حصل النيل على قليل من الماء. لم تحصل هى على قطرة.

يوما ما أدركت الحقيقة. لن يهبط ناجى أبداً على الأرض، سوف يظل يحلق! مثل والدها من قبل، تمنت الموت. الموت فى الأقصر. تلك هى الحقيقة. قرب المناطق الخلابة التى ذاقت فيها طعم السعادة.

صعدت فى ليلة صيفية فوق صخرة معبد حتشبسوت. تعرف أن الصخرة قابلة للانهيار. تود أن تقع الصخرة بها وتدمرها، وتدمر تاريخ حتشبسوت بأكمله.

انهزم جرجس. تبخرت أحلامه الطموحة عن مستقبل سوسن. تحملت مسئولية إغاثة أسرتها. هلكت كأنقاض البيت الكبير. ما هى إلا أنقاض هشة لم تعد تحتمل الحياة مع قرينها "عزلة".

لامت والدتها. ليتها خنقتها بالفعل وهى رضيعة.

فى تلك الليلة تلألأت النجوم واكتمل البدر. رأت ملامح ناجى مرتسمة على وجه البدر ونظرته الحنون تنبعث من كل نجمة فى السماء. يعرف عشقها للقمر. أيود أن يؤثر عليها بكلمة صغيرة سحرية مقتبسة من إله الشعر؟

لا تحدق فى الهوة بل تتأمل القمر والنجوم المبتسمة. وسط دموعها، ابتسمت لها أيضا محاطة بدفء قبلة ناجى، بدغدغة شاربه، بنظرته الحنون.

تلاشت ملامح ناجى مع الخيوط الأولى للفجر واختفت النجوم. تشرق الشمس خلف أنقاض البيت الكبير... فى مكان ما، يستيقظ جرجس ووردة من نوم طويل. تكاد تسمع ضحكاتهما. أخيراً وردة تصالحت مع "أصنام" جرجس، لم تعد تتوعده بنار جهنم. مازالت وردة تتضرع لمار جرجس والملاك ميخائيل، ومع ذلك أضافت الإله "تحوت" فى صلواتها أيضا؛ بينما تحول جرجس إلى عملاق يعانق بذراعيه القويتين المعابد والنهر والصحراء، بل ويسند بحزم صخرة "حتشبسوت" ليحميها من الوقوع فى هوة النسيان.

تخيلت أنها سمعت بشرى يستنجد بها ... بشرى ! كيف تتخلى عنه وهو غارق فى مقبرة الهموم الإدارية ... عادت وتوجهت ببطء نحو الشرق.

نحو الألفية الجديدة

تضافرت الدروب، دروب الحياة الشخصية لسوسن مع الحروب الصغيرة كأنها من صغار الشرر تجتمع لتصب فى نهر الجحيم والحرب الكبيرة.

تجلس يوميا مع قرينها "عزلة" لتستمد منه قدرًا بسيطًا من الشجاعة تحافظ به على ضحكتها التى تشبه أجراس عيد الميلاد.

فى شهر من شهور ديسمبر قرب نهاية القرن العشرين، اجتمع الأمريكان والروس فى جزيرة "مالطا" أثناء عاصفة جوية حادة للتفاوض على إنهاء الحرب الباردة.

حينئذ، استيقظ الأمل فى إطفاء الحريق الذى يشعل منطقة الشرق الأوسط.

بدأ "سيت" يتصرف بالميزانية الجديدة بعد انتهاء الحرب الكبيرة. سوف ينقذ كل الأحجار الأثرية، ويرمم البيت الكبير. لابد أن يبعث البيت الكبير من جديد، ما دامت غادة قد دفنت روح سوسن، هذا الحبل السرى الذى يربطها بالأسلاف.

فيما مضى سأل غادة إذا كانت قد فهمت معنى ما فعلته. فهزت كتفيها وقالت إنها فعلت الواجب لكى تعيش "الست سوسن" ويعيش البيت الكبير.

* * *

تعود غادة دائما من الكويت لقضاء الإجازة فى مصر . تتزوج من حين لآخر ثم تطلق. حياة غادة متقلبة منذ أن بدأت تقبض فتات الذهب الأسود.

تعود ومعها حقائب مليئة بالهدايا للأخوات الثلاث ولبشرى. ولم تنس أحفاد باشا الأقصر. قالت إنها عاشت فترة طويلة من خير جرجس باشا . ولم تنس أيضا "دهب" و "سيت". كانت تحب هذا الخواجة غريب الأطوار. يجاملها مثلما يجامل الذين تخدمهن، ويقول لها إنه فيما عدا سيداتها، نساء الشعب أجمل من البرجوازيات! فتسأله هل هذا صحيح فعلا، وتذهب إلى المرآة لتعدل حجابها وتبتسم لنفسها.

* * *

لكن فى أحد الأيام، اشتعلت الحرب مرة أخرى. طمع الوحش العراقى فى ثروة الكويت بعد أن استنزف ثروته فى الحرب مع إيران. فرض تزاوج البلدين اللذين فرق بينهما تدخل القوى الإمبريالية القديمة.

أدى طمعه فى إدماج البلدين إلى إراقة دماء وإلى العديد من المصائب. هربت غادة عبر الأردن لتعود إلى سوسن؛ ضاعت مدخراتها وما اشترته من مجوهرات لإغراء الرجال أو لتأمين شيخوختها.

عاد كل من ذهبوا للحصول على فتافيت مهرجان البترول الكبير، أكثر فقرا من ذى قبل. باع البعض حصص أراضيهم لسداد نفقات السفر والوسطاء الذين وعدوا بالحفاظ على مكاسبهم البسيطة. عادوا أفواجًا ضخمة، إلى بلاد تسعى للحصول على الفتات لإصلاح أوضاعها.

* * *

عندئذ، قرر الإخوة الأعداء "السابقان" إقامة نظام عالمى جديد. انضم بعض العرب إليهما لمحاربة عرب آخرين.

قذفوا العراق بأطنان من القنابل. استمر القذف ستة أسابيع؛ كابوس يومى. فى أية لحظة قد تنفجر قنبلة كيميائية أو ذرية لحسم الموقف.

هل سيطلقون صواريخ من السودان إلى السد العالى فى أسوان ويدمرونه، لإغراق أراضى مصر عقابًا لها لتحالفها مع الروس والأمريكان معًا؟ هل سيحدث طوفان يبتلع "طيبة"؟!

هل سمعت الآلهة قارئة الطالع عندما ألقت اللعنة على الأحجار الأثرية؟

* * *

تتدفق الفلاحات المتضررات من جفاف الحب فى حياتهن الزوجية كل صباح إلى بيت الأقصر الكبير الذى تحول إلى محكمة، إلى البيت ذاته الذى يأوى فيه جرجس تماثيل الأزواج الخالدة المليئة بالأحلام والتفاؤل.

يأتين من كل القرى المجاورة، متدثرات بملاءاتهن السوداء الطويلة، بالمعدية، وعلى الأقدام، أو بـ "الحنطور". ينتظرن صدور قرار الطلاق أو النفقة أو الحكم العادل.

هل يدركن مقدار ما صرف على الأسلحة الوحشية من أموال هن أولى بها؟ لو حصلن على هذه الأموال، لعرفن كيف يتقاسمنها مع "سيت".

أحسسن باليأس.

لكن ربما يومًا ما، سوف تنمو شجرة الحياة فوق الجدران المتهالكة للبيت الكبير، لو كانت غادة قد زرعت بالفعل البذرة.

جزيرة الموز

جاءت سوسن وشقيقتاها إلى جزيرة التمساح المجاورة لجزيرة الموز لقضاء الإجازة.

حكمت المحكمة لصالح بشرى فى جميع القضايا المرفوعة. لكن متى؟ بعد مرور ثلاثة عقود من الاستيلاء على الأراضى. ظلت معظم هذه الأحكام التى صدرت فى صالحه، أحكام نظرية.

يحتاج إلى طاقة للمطالبة بحقوقه. يجد الطاقة فى الصلاة.

ملجأ بشرى هو "دير العجوز".

* * *

تنزل أخواتى الثلاث إلى المدينة وتبكين من شدة الحزن. ازدحمت الضيعة القديمة بالعربات، بالتاكسيات، بالبائعين، بالسياح، استعداداً لوضعها الجديد كمحافظة. يعدون الأرصفة، والمجارى، يضاعفون عدد الفنادق، ومحلات بيع التذكارات الفرعونية، والسفن الآلية الكبيرة. البيت الكبير محطم.

سمعوا أخبار بنات العم من خلال "سيت". مازال يشاهدهن جالسات فى الشرفة ينتظرن غروب الشمس أمام المرسى. لا يلمعن

النجف المورانو، ولا الأثاث الخشبى الضخم المطعم بالصدف، لا يُزلْن الأتربة عن الستائر الجوخ الحمراء المقصبة بخيوط ذهبية. تنطفئ الأنوار شيئًا فشيئًا. لا يغيرن المصابيح الكهربائية التالفة.

طعنت بنات العم الأربع فى السن. تفضلن تقديم أنفسهن كبنات باشا الأقصر. توجهن الدعوة إلى من يلقى بالتحية لهن عرفانا بجميل المرحوم لتناول فنجان قهوة فى داخل البيت المترب الخرب. تقلن "ماذا نفعل؟ إنها ظروف الحياة القاسية!" انتحلن مصائب جرجس ذاته وتحدثن عن ماضيهن الباهر، عن واجهة البيت الكبير المصممة على طراز عصر النهضة، عن الأكاليل والتيجان المضيئة، عن ضوضاء الأفراح. يتعاطف معهن العائدون بحنين فى قلوبهم لزمن ولى؛ لتشابه المشاعر، ويغادرون المدينة واثقين بأنهم استرجعوا بعضًا من ماضيهم الذى أحزنهم زواله.

لم تقم أخواتى الثلاث بزيارة بنات عمهن.

مساء، تتأملن من شرفة مطعم، البيت الكبير القريب من المعبد المضىء، وقد غرق فى الظلام.

* * *

مازال "سيت" يرتب صرف ميزانية الحرب السابقة فى ذهنه. يود أن يؤسس مدرسة حرفية لنساء الطبقة الشعبية اللاتى يذهبن للمحكمة للمطالبة بحقوقهن.

قال لهن:

- الستات دول عندها ماضي والمستقبل في قلب. شوفوا حلوين ازاي! يعرفوا يعملوا فن حلو.

تتأملن أفواج الفلاحات العائدات بالمعدية إلى القرى في الجانب الآخر من النهر بمظهرهن الشامخ وأعينهن المكحلة.

-"اتسرقوا من مدفن رع-موز؟"

ما زال عاشقا، "سيت" العزيز.

تظهر إشراقة على الأخوات الثلاث عندما يتحدثن عنه. شاب شعره ومازال الشباب في قلبه. مازال يغازل سوسن، الوحيدة التي لم ترتبط بالزواج. لكنه معجب بفردوس وبسمة بالقدر نفسه، تجسدان الكاهنات اللاتي توقظن الحواس الخاملة لكل الشموس الزائلة. لو لم تكن الزوجتان الوفيتان سمراوان لاحمر وجههما من السعادة.

مازال عاشقًا، "سيت" العزيز.

الشعر الرمادي والتجاعيد ما هي إلا غلاف خادع. ظل شابا. احتفظ بوقار الأمريكاني الذي لم يتخل يومًا عن ممارسة رياضة الركض في الشوارع.

* * *

مع ذلك، لا تعرف سوسن إن كانت تريد أن تفارق ذكرى ناجي.

* * *

وقفت على حافة الجرف حابسة دموعها. لا يجب أن يراها الفلاح وهى تبكى. تطير الحدآت فوق رأسها. تجمعت الحدآت فجر هذا الصباح فى شرفة بيتها الريفى بالفندق، ومست شعرها.

تدور الحدآت بإصرار من حولها. يزداد عددها. كأنما تحمل لها رسالة مهمة.

ثم تبتعد، اثنتان اثنتان سويا نحو آفاق أخرى. تتبعها سوسن بنظراتها. إنها تتجه نحو طائرة.

لم يكف ناجى عن الطيران. يجوب السماء من أجل رسالته المقدسة: "الصحة للجميع". أما سوسن فهى مرتبطة بالأرض.

تذكرت رؤيتها لناجى لأول مرة فى إحدى الحدائق. راقبا سويا حياة العصافير، التى تشبه عصافير هذه الليلة فى جزيرة الموز، بلبل، ذعرة رمادية، سرب حدآت.

يخترق كالبرق ستار النسيان، ابتسامة شاب أخذ حيزًا كبيرًا فى قلبها. عندما قابلت ناجى لأول مرة، قالت له:

– اسمى سوسن، معناه "سشن"، لوتس، ووالدتى اسمها وردة.

* * *

فى جزيرة الموز، تتشاور الطيور. رأت سوسن تقرأ خطابًا، ليس من ناجى، لكن من "سيت".

تعود لقراءة الخطاب مرات عـديدة وتضمه إلى قلبهـا. تستغرق فى الحلم. قال لها "سيت" إن أنقاض البيت الكبـير ليسـت أنقاضا فقط بل روحًا. اسمها "سشـن" والقـدر يحتم عليها أن تبعـث الحياة فى هذه الروح.

ينقر غـراب الخطاب فتتكاثر الغربان حـولها. نعيـقها يحرف موسيقى الكلمات.

لا داعى للجلبة أو الفضيحة أيتها الغربان السود.

دعوها تحب!

فلتذهبوا لحراسـة الأحجار الأثرية أيتها الغـربان السـود! تأملوا جمالها!

هل تستطيعون طـرد الأرواح الشـريرة وفك اللعنة التى ألقتها قارئة الطالع؟

المؤلفة فى سطور

فوزية أسعد

حصلت الكاتبة على الدكتوراه فى الفلسفة ، وعلى العديد من الجوائز الأدبية من "جمعية الكتاب السويسرية" . نالت أيضاً جائزة من الجمعية نفسها على هذه الرواية : "بيت الأقصر الكبير" عام ١٩٩١ .

المترجمة فى سطور

منى قطان

كاتبة ومترجمة مصرية .

لها عدد من الكتب والدراسات من بينها كتاب (النساء فى العالم النامى) الصادر عن المشروع القومى للترجمة .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للتـرجمـة مشـروع تنمية ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١	اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣	التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	ت: بإشراف أحمد عتمان
١٧	مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨	رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنة
٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢	الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤	الرواية العربية	روجر ألن	ت . حصة إبراهيم المنيف
٣٥	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم

٣٨	نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠	قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢	عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢	لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧	مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت . عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
٧٢	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت · فؤاد مجلى
٧٣	نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش

٧٦	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣	مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦	طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠	وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوامريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد عبد اللطيف
٩٦	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٩٩	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥	مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣	راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان

١١٤	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت بإشراف: رءوف عباس
١٢٠	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤	الفجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	ت : سمحة الخولى
١٢٦	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧	إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣	الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦	فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيفلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩	پارسيفال	ريشارد ڤاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان
١٤٥	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرءوف البمبى
١٤٧	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم منوفى
١٤٩	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى

١	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٠	المدارس الجمالية الكبرى	جى آنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٠	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٠	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
١٠	الإيديولوچية	ديفيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١	آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
١٦	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧	الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧	وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧	حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٠	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧	حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى
١٨٤	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧	الأرضة	بُزرج علوى	ت:محمد علاء الدين منصور
١٨٨	موت الأدب	ألفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩	العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد

١٩٢	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦	المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
٢٠١	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣	الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا
٢٠٨	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	ت: نادية البنهاوى
٢١٨	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم منوفى
٢١٩	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠	الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام
٢٢٢	فرانز كافكا	رونالد جراى	ت: نسيم مجلى
٢٢٣	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت: السيد محمد نفادى
٢٢٤	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت: منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت: السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت: طاهر محمد على البربرى
٢٢٧	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت:مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	ت: أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسوا جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣١	الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت: جمال عبدالرحمن
٢٣٢	ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣	فكرة الاضمحلال	آرثر هومان	ت: طلعت الشايب
٢٣٤	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت: فؤاد محمد عكود
٢٣٥	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦	الولاية	ميشيل تود	ت: أحمد الطيب
٢٣٧	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت: عنايات حسين طلعت
٢٣٨	العولمة والتحرير	الانكتاد	ت: ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوخ	ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١	فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت: ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	ت: على عبدالرءوف البمبى
٢٤٤	الغليان	لاورا إسكيبيل	ت: نادية جمال الدين محمد
٢٤٥	نساء مقاتلات	إليزابيتا آديس	ت: توفيق على منصور
٢٤٦	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	ت: على إبراهيم منوفى
٢٤٧	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	ت: محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت: رفعت سلام
٢٥٠	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ت: ماجدة محسن أباظة
٢٥١	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	ت: بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت: على بدران
٢٥٣	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت: حسن بيومى
٢٥٤	الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥	أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦	ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت: محمود سيد أحمد
٢٥٨	الفجر	سير أنجوس فريزر	ت: عُبادة كُحيلة
٢٥٩	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	ت. فاروجان كازانجيان
٢٦٠	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت: محمد أبو العطا
٢٦٣	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	ت: على يوسف على
٢٦٤	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	ت: لويس عوض
٢٦٥	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويئيل جونسون	ت: لويس عوض
٢٦٦	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت: عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧	فن الرواية	ميلان كونديرا	ت: بدر الدين عرودكى
٢٦٨	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن

٢٧٠	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧١	الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	ت: شوقى جلال
٢٧٢	الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت: إبراهيم سلامة
٢٧٣	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت: عنان الشهاوى
٢٧٤	السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	ت: محمود على مكى
٢٧٥	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت: ماهر شفيق فريد
٢٧٦	فنون السينما	فرانك جوتيران	ت: عبد القادر التلمسانى
٢٧٧	الچينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت: أحمد فوزى
٢٧٨	البدايات	إسحق عظيموف	ت: ظريف عبدالله
٢٧٩	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	ت: طلعت الشايب
٢٨٠	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت: سمير عبدالحميد
٢٨١	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت: جلال الحفناوى
٢٨٢	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت: سمير حنا صادق
٢٨٣	السهل يحترق	خوان رولفو	ت: على البمبى
٢٨٤	هرقل مجنوناً	يوربيديس	ت: أحمد عتمان
٢٨٥	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت: سمير عبد الحميد
٢٨٦	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢٨٧	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	ت: محمد يحيى وآخرون
٢٨٨	الفن الروائى	ديفيد لودج	ت: ماهر البطوطى
٢٨٩	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت: أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٢	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٣	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	ت: نخبة من المترجمين
٢٩٤	فن الشعر	بوالو	ت: رجاء ياقوت صالح
٢٩٥	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت: بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦	مكبث	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٢٩٧	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ت: ماجدة محمد أنور
٢٩٨	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت: مصطفى حجازى السيد
٢٩٩	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت: هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	ت. جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢	فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤	ماركس	ريوس	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥	الجلد	كروزيو مالابارته	ت: صلاح عبد الصبور
٣٠٦	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	ت: نبيل سعد
٣٠٧	الشعور	ديفيد بابينو	ت: محمود محمد أحمد
٣٠٨	علم الوراثة	ستيف جونز	ت: ممدوح عبد المنعم أحمد

٣٠٩	الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	ت: جمال الجزيرى
٣١٠	يونج	ناجى هيد	ت: محيى الدين محمد حسن
٣١١	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت:أسعد حليم
٣١٣	أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت: عبدالله الجعيدى
٣١٤	الفن كعدم	جينس مينيك	ت: هويدا السباعى
٣١٥	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت: كاميليا صبحى
٣١٦	محاكمة سقراط	آ.ف. ستون	ت: نسيم مجلى
٣١٧	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	ت: أشرف الصباغ
٣١٨	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت: أشرف الصباغ
٣١٩	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت: حسام نايل
٣٢٠	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢	وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	ديليو يوجين كليتباور	ت: خالد مفلح حمزة
٣٢٣	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت: هانم سليمان
٣٢٤	اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٢٥	عالم الآثار	فيليب بوسان	ت: كرستين يوسف
٣٢٦	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت: حسن صقر
٣٢٧	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	ت: توفيق على منصور
٣٢٨	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٢٩	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت: سامى صلاح
٣٣١	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت: سامية دياب
٣٣٢	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	ت: على إبراهيم منوفى
٣٣٣	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت: بكر عباس
٣٣٤	لقطات من المستقبل	آرثر.س كلارك	ت: مصطفى فهمى
٣٣٥	عصر الشك	ناتالى ساروت	ت: فتحى العشرى
٣٣٦	متون الأهرام	نصوص قديمة	ت: حسن صابر
٣٣٧	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٣٣٨	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٤٠	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت: فخرى لبيب
٣٤١	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت: حسن حلمى
٣٤٢	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٤٣	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت: سمير عبد ربه
٣٤٤	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت: سمير عبد ربه
٣٤٥	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦	سحر مصر	رشاد رشدى	ت: جمال الجزيرى
٣٤٧	الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت: بكر الحلو

٣٤٨	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	ت: أحمد عمر شاهين
٣٥٠	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت: عطية شحاتة
٣٥١	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصارى
٣٥٢	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت: نعيم عطية
٣٥٣	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت: على إبراهيم منوفى
٣٥٤	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت: على إبراهيم منوفى
٣٥٥	التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٥٦	الميراث المر	بول سالم	ت: بدر الرفاعى
٣٥٧	متون هيرميس	نصوص قديمة	ت: عمر الفاروق عمر
٣٥٨	أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت: مصطفى حجازى السيد
٣٥٩	محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت: حبيب الشارونى
٣٦٠	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت: ليلى الشربينى
٣٦١	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت: عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢	تلميذ بابنبيرج	هاينرش شبورال	ت: سيد أحمد فتح الله
٣٦٣	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	ت: صبرى محمد حسن
٣٦٤	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت: نجلاء أبو عجاج
٣٦٥	سأم باريس	شارل بودلير	ت: محمد أحمد حمد
٣٦٦	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت: مصطفى محمود محمد
٣٦٧	القلم الجرىء	نخبة	ت: البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨	المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت: عابد خزندار
٣٦٩	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت: فوزية العشماوى
٣٧٠	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت: فاطمة عبدالله محمود
٣٧١	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢	عاش الشباب	وانغ مينغ	ت: وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت: على إبراهيم منوفى
٣٧٤	اليوم السادس	أندريه شديد	ت: حمادة إبراهيم
٣٧٥	الخلود	ميلان كونديرا	ت: خالد أبو اليزيد
٣٧٦	الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت: إدوار الخراط
٣٧٧	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٧٨	المسافر	محمد إقبال	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩	ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت: جمال عبدالرحمن
٣٨٠	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت: شيرين عبدالسلام
٣٨١	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت: رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت: أحمد محمد نادى
٣٨٣	هدية الحجاز	محمد إقبال	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت: إيزابيل كمال
٣٨٥	مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت: ريهام حسين إبراهيم

٣٨٧ أغنيات وسوناتات	چون دن	ت: بهاء چاهين
٣٨٨ مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠ الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت: عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت: منى الدروبى
٣٩٢ مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣ فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت: زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت: هاشم أحمد محمد
٣٩٥ آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت: سليم حمدان
٣٩٦ السافاك	تقى نجارى راد	ت: محمود سلامة علاوى
٣٩٧ نيتشه	لورانس جين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨ سارتر	فيليب تودى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩ كامى	ديفيد ميروفتس	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠ مومو	مشيائيل إنده	ت: باهر الجوهرى
٤٠١ الرياضيات	زيادون ساردر	ت: ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣ ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت: عماد حسن بكر
٤٠٤ تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت: ظبية خميس
٤٠٥ إيزابيل	أندريه جيد	ت: حمادة إبراهيم
٤٠٦ المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت: جمال عبد الرحمن
٤٠٧ الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت: طلعت شاهين
٤٠٨ معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت: عنان الشهاوى
٤٠٩ انتصار السعادة	برتراند راسل	ت: إلهامى عمارة
٤١٠ خلاصة القرن	كارل بوبر	ت: الزواوى بغورة
٤١١ همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت: أحمد مستجير
٤١٢ تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	ت: نخبة
٤١٣ أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت: محمد البخارى
٤١٤ الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت: أمل الصبان
٤١٥ صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت: أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦ مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت: مصطفى بدوى
٤١٧ تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨ سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت: عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	ت: نسيم مجلى
٤٢٠ مكرو ميجاس	فولتير	ت: الطيب بن رجب
٤٢١ الولاء والقيادة	رؤى متعددة	ت: أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣ إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت: وحيد النقاش
٤٢٤ لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	ت: محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	ت: محمود سلامة علاوى

٤٢٦	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧	باندراس الطاغية	باى إنكلان	ت: ثريا شلبى
٤٢٨	الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت: محمد أمان صافى
٤٢٩	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠	كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢	ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت: حمدى الجابرى
٤٣٤	الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت: عصام حجازى
٤٣٥	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زريرج	ت: ناجى رشوان
٤٣٦	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت: عايدة سيف الدولة
٤٣٩	موت المرابى	صدر الدين عينى	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤١	رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	ت: فخرى لبيب
٤٤٢	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت: ماهر جويجاتى
٤٤٣	اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت: صالح علمانى
٤٤٥	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت: محمد محمد يونس
٤٤٦	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت: أحمد محمود
٤٤٧	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيفوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨	علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩	الحركة النسائية	نخبة	ت: جمال الجزيرى
٤٥٠	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا ورببيكا رايت	ت: جمال الجزيرى
٤٥١	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	ت: محيى الدين مزيد
٤٥٣	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت: حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت: سوزان خليل
٤٥٥	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	ت: محمود سيد أحمد
٤٥٦	لا تنسنى	مريم جعفرى	ت: هويدا عزت محمد
٤٥٧	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨	الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت: جمال عبد الرحمن
٤٥٩	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
٤٦٠	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	ت: عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣	الدولة المارقة	وليام بلوم	ت: كمال السيد
٤٦٤	ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت: حصة إبراهيم المنيف

٤٦٥	قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت: جمال الرفاعى
٤٦٦	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت: فاطمة محمود
٤٦٧	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت: ربيع وهبة
٤٦٨	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٤٦٩	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت: مجدى عبدالرازق
٤٧٠	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت: محمد السيد الننة
٤٧١	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	ت: عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٣	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٤	الأدب والنسوية	بام موريس	ت: سهام عبدالسلام
٤٧٥	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت: عادل هلال عنانى
٤٧٦	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت: سحر توفيق
٤٧٧	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت: أشرف كيلانى
٤٧٨	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	ت: عبد العزيز حمدى
٤٧٩	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨٠	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت. عبد العزيز حمدى
٤٨١	عباءة النبى	روى متحدة	ت. رضوان السيد
٤٨٢	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت: فاطمة محمود
٤٨٣	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت: أحمد الشامى
٤٨٤	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	ت: رشيد بنحدو
٤٨٥	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت. عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسِّرل	ت: محمود رجب
٤٩٠	أسمار الببغاء	محمد قادرى	ت. عبد الوهاب علوب
٤٩١	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت: سمير عبد ربه
٤٩٢	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت: محمد رفعت عواد
٤٩٣	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت: محمد صالح الضالع
٤٩٤	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت. شريف الصيفى
٤٩٥	اللوبى	إدوارد تيفان	ت: حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوانو بانولى	ت: نخبة
٤٩٧	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت: مصطفى رياض
٤٩٨	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت: أحمد على بدوى
٤٩٩	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت. فيصل بن خضراء
٥٠٠	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت: طلعت الشايب
٥٠١	تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت: سحر فراج
٥٠٢	أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت: هالة كمال
٥٠٣	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم

٥٠٤ كتابات أساسية (جـ١) مارتن هايدجر ت: إسماعيل المصدق
٥٠٥ كتابات أساسية (جـ٢) مارتن هايدجر ت: إسماعيل المصدق
٥٠٦ ربما كان قديساً آن تيلر ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧ سيدة الماضى الجميل بيتر شيفر ت: شوقى فهيم
٥٠٨ المولوية بعد جلال الدين الرومى عبدالباقى جلبنارلى ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩ الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك آدم صبرة ت: قاسم عبده قاسم
٥١٠ الأرملة الماكرة كارلو جولدونى ت: عبدالرازق عيد
٥١١ كوكب مرقَّع آن تيلر ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢ كتابة النقد السينمائى تيموثى كوريجان ت: جمال عبد الناصر
٥١٣ العلم الجسور تيد أنتون ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ مدخل إلى النظرية الأدبية جوناثان كولر ت: مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ من التقليد إلى ما بعد الحداثة فدوى مالطى دوجلاس ت: فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦ إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان آرنولد واشنطون ودونا باوندى ت: صبرى محمد حسن
٥١٧ نقش على الماء وقصص أخرى نخبة ت: سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨ استكشاف الأرض والكون إسحق عظيموف ت: هاشم أحمد محمد
٥١٩ محاضرات فى المثالية الحديثة جوزايا رويس ت: أحمد الأنصارى
٥٢٠ الولع بمصر من الحلم إلى المشروع أحمد يوسف ت: أمل الصبان
٥٢١ قاموس تراجم مصر الحديثة آرثر جولد سميث ت: عبدالوهاب بكر
٥٢٢ إسبانيا فى تاريخها أميركو كاسترو ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٣ الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن باسيليو بابون مالدونادو ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٤ الملك لير وليم شكسبير ت: محمد مصطفى بدوى
٥٢٥ موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى دنيس جونسون ريفز ت: نادية رفعت
٥٢٦ علم السياسة البيئية ستيفن كرول ووليم رانكين ت: محيى الدين مزيد
٥٢٧ كافكا ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب ت: جمال الجزيرى
٥٢٨ تروتسكى والماركسية طارق على وفِلْ إيفانز ت: جمال الجزيرى
٥٢٩ بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى محمد إقبال ت: حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠ مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية رينيه جينو ت: عمر الفاروق عمر
٥٣١ ما الذى حَدَثَ فى «حَدَثِ» ١١ سبتمبر؟ جاك دريدا ت: صفاء فتحى
٥٣٢ المغامرُ والمستشرق هنرى لورنس ت: بشير السباعى
٥٣٣ تعلُّم اللغة الثانية سوزان جاس ت: محمد الشرقاوى
٥٣٤ الإسلاميون الجزائريون سيفرين لابا ت: حمادة إبراهيم
٥٣٥ مخزن الأسرار نظامى الكنجوى ت: عبدالعزيز بقوش
٥٣٦ الثقافات وقيم التقدم صمويل هنتنجتون ت: شوقى جلال
٥٣٧ للحب والحرية نخبة ت: عبدالغفار مكاوى
٥٣٨ النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى كيت دانيلر ت: محمد الحديدى
٥٣٩ خمس مسرحيات قصيرة كاريل تشرشل ت: محسن مصيلحى
٥٤٠ توجهات بريطانية - شرقية السير رونالد ستورس ت: رءوف عباس
٥٤١ هى تتخيل وهلاوس أخرى خوان خوسيه مياس ت: مروة رزق
٥٤٢ قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث نخبة ت: نعيم عطية

٥٤٣	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	ت: وفاء عبدالقادر
٥٤٤	ميلانى كلاين	نخبة	ت: حمدى الجابرى
٥٤٥	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	ت: عزت عامر
٥٤٦	ريموس	ت. ب. وايزمان	ت: توفيق على منصور
٥٤٧	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	ت. جمال الجزيرى
٥٤٨	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	ت: حمدى الجابرى
٥٤٩	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	ت: جمال الجزيرى
٥٥٠	شكسبير	نيك جروم وبيرو	ت: حمدى الجابرى
٥٥١	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	ت: سمحة الخولى
٥٥٢	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	ت: على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	ت: رجاء ياقوت
٥٥٤	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	ت: عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	ت: أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦	چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	ت: حمدى الجابرى
٥٥٧	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨	الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين ڤان لون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩	الماس الزائف	تشا تشاجى	ت: عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠	صلصلة الجرس	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦١	جناح جبريل	محمد إقبال	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢	بلايين وبلايين	كارل ساجان	ت: عزت عامر
٥٦٣	ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	ت. صبرى محمدى التهامى
٥٦٤	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	ت: صبرى محمدى التهامى
٥٦٥	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا. ج. جيرنر	ت: أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦	تاريخ أوربا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	ت: على السيد على
٥٦٧	الوطن المغتصب	مايكل رايس	ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	ت: عبد السلام حيدر
٥٦٩	موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ت: ثائر ديب
٥٧٠	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	ت: يوسف الشارونى
٥٧١	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	ت: السيد عبد الظاهر
٥٧٢	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	ت: كمال السيد
٥٧٣	فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	ت: جمال الجزيرى
٥٧٤	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	ت: علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	ت: أحمد محمود
٥٧٦	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ت: ناهد العشرى محمد
٥٧٧	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	ت: محمد قدرى عمارة
٥٧٨	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	ت: محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩	تشومسكى	چون ماهر وچودى جرووز	ت: محيى الدين مزيد
٥٨٠	دائرة المعارف الدولية	چون فيزر وبول سيترجز	ت: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١	الحمقى يموتون	ماريو بوزو	ت: سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٢	مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣	الجيران	أحمد محمود	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤	سفر	محمود دولت آبادى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥	الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	ت: سهام عبد السلام
٥٨٧	تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	ت: عبدالعزيز حمدى
٥٨٨	أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ت: ماهر جويجاتى
٥٨٩	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبواه	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	ت: محمود مهدى عبدالله
٥٩١	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	ت: على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢	الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	ت: مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣	قصائد ساحرة	بول فاليرى	ت: بكر الحلو
٥٩٤	القلب السمين	سوزانا تامارو	ت: أمانى فوزى
٥٩٥	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	ت: نخبة
٥٩٦	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	ت: إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	ت: جمال عبدالرحمن
٥٩٨	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	ت: بيومى على قنديل
٥٩٩	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	ت: محمود سلامة علاوى
٦٠٠	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	ت: مدحت طه
٦٠١	النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	ت: أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	ت: إيمان عبدالعزيز
٦٠٣	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	ت: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤	الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. آبوت	ت: توفيق على منصور
٦٠٥	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	ت: محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	ت: صبرى محمد حسن
٦٠٨	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هاردى سينت فيلبى	ت:صبرى محمد حسن
٦٠٩	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	ت: شوقى جلال
٦١٠	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	ت: على إبراهيم منوفى
٦١١	النقد والأيديولوچية	تيرى إيجلتون	ت: فخرى صالح
٦١٢	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	ت: محمد محمد يونس
٦١٣	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	ت: محمد فريد حجاب
٦١٤	بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	ت: منى قطان

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٩٦١٠ / ٢٠٠٣





تنسج المؤلفة بمهارة خيوط قصة عائلة قبطية ارتبطت حياتها ارتباطًا وثيقًا بالتطورات السياسية فى مصر منذ عصر محمد على حتى يومنا هذا؛ حيث تتشابك الأحداث الدرامية فى هذا العمل معبرة عن الأمل وعن أحلام الوقت الحاضر وطموحاته.

تمزج المؤلفة أيضًا بين لحظات شاعرية وبين رؤيتها الخاصة لتطور الأحداث السياسية ، وتجسد رؤية قطاع من المجتمع المصرى لأحداث ثورة ١٩٥٢ .

أيًا كان رأى القارئ فى هذه الثورة فإنه سوف يلمس الجانب الإنسانى فى الشخصيات المرسومة، بغض النظر عن آرائه السياسية.

